ضوابط الافتقار إلى الله تعالى
في ضوء الكتاب والسنة

تأليـــف

الدكتور/ أحمد محمد فخر الدين

(١٤٤٠هـ/٢٠١٩م)

الكتاب : ضوابط الافتقار إلى الله تعالى

في ضوء الكتاب والسنة

الكاتب : الدكتور/ أحمد محمد فخر الدين

تصميم الغلاف : محمد محسن

تنسيق داخلي : هبة خليل

الطبعة : الأولى

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٥٧٥٣

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٧٨٣-٠٦-٥

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول 36 - ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

01550096215 – 0222017260

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

ضوابط الافتقار إلى الله تعالى

في ضوء الكتاب والسنة

د/ أحمد محمد فخر الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

"إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصلاح ما استطعتُ
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ
وإليه أُنيبُ"

سورة هود، (الآية: ٨١).

مقدمـــــة

الحمد للهِ ربِّ الأرض والسماء، خلق آدم، وعلَّمه كل الأسماء، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة دار البقاء، وحذره من الشيطان ألد الأعداء، ثم أنفذ فيه ما سبق به القضاء؛ فأهبطه إلى دار الابتلاء، وجعل الدنيا لذريته دار عمل لا دار جزاء، وتجلَّت رحمته بهم؛ فتوالت الرسل والأنبياء، وما منهم أحدٌ إلا جاء معه بفرقانٍ وضياء، ثم خُتمت الرسالات بالشريعة الغراء، ونزل الفرقان لما في الصدور شفاء؛ فأضاءت به قلوب العارفين والأتقياء، وترطبت بآياته ألسنة الذاكرين والأولياء، ونهل من فيض نوره العلماء والحكماء. نحمده- تبارك وتعالى- على النعماء والسراء، ونستعينه على البأساء والضراء، ونعوذ بنور وجهه الكريم من جَهد البلاء، ودرك الشقاء، وعضال الداء، وشماتة الأعداء، ونسأله عيش السعداء، وموت الشهداء، وأن يحشرنا مع الصديقين والأصفياء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، ليس له أنداد ولا أشباه ولا شركاء، خلق السماوات والأرض في ستة أيامٍ وكان عرشه على الماء، خلق الخلق، وأجرى الأمور بحكمته، وقسم الأرزاق وفق مشيئته بغير عناء، لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، فكلُّ شيء خُلق بقدر، وكلُّ أمرٍ جرى بقضاء. وأشهد أن سيدنا محمدًا– صلى الله عليه وسلم- خاتم الرسل والأنبياء، وإمام المجاهدين والأتقياء، والشهيد يوم القيامة على الشهداء، صلى الله عليه قديمًا، وكذا الملائكةُ في السماء، وصلى هو في المسجد الأقصى بالرسل والأنبياء، سبح الحصى في كفه بخير الأسماء، وحين ظمىء أصحابه نبع من بين أصابعه الماء، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابته الأجلاء، وعلى السائرين على دربه، والداعين بدعوته إلى يوم اللقاء، ما تعاقب الصباح والمساء، وما دام في الكون ظلمة وضياء.

أما بعد... فإنه من المتفق عليه أنَّ ديننا الإسلامي مصدره الكتاب العزيز، والسنة النبوية المطهرة، والمتأمل فيهما؛ يجد أن اللهَ- تبارك وتعالى- غنيٌّ عن العالمين، لا تنفعه طاعةٌ، ولا تضره معصيةٌ، فهو الغني المغني، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام. ونحن جميعًا عبادٌ لله تعالى، وكما

هو معلومٌ أن السيد يأخذ خير عبده، فالعبد مملوكٌ لسيده، فهذا معنى العبودية بمفهومنا نحن البشر؛ لكنَّ العبودية لله تعالى تخالف ذلك تمامًا، ففيها يأخذ العبدُ خيرَ سيده، وفيها العزة والرفعة.

وعندما نتأمل في آيات الله البينات؛ نجد في أكثر من آيةٍ قولَ ربنا- تبارك وتعالى-: {يا عبادي}، فهذا شرفٌ عظيم لكل مَن انتسب، ودخل تحت هذا القول العظيم، فكفانا عزّا أن نكون عبادًا لله تعالى، وكفانا فخرًا أن يكون ربنُا اللهُ.

وما أحسن قول القاضي عياض في هذا المعنى، إذ يقول[1]:

ومِمَّا زَادنِي شَرفًا وتيهًـــــا وكِدتُ بِأخمصِي أطأُ الثُّريَا

دُخُولي تحتَ قولِك: يا عبادِي وأنْ صيَّرتَ أحمدَ لِي نَبيًا

ويقول الشيخ الشعراوي:

حَسْبُ نفسِي عِزًّا بأنّي عَبدٌ يَحتفِي بِي بِلا مَواعيدَ رَبُّ

هُو فِي قُدسهِ الأَعزُّ ولَكِنْ أنَا ألقَى مَتَى وَأينَ أُحِـبُّ

وجديرٌ بالذكر أن اللهَ- عز وجل- لم يأمرنا إلا بما فيه خيرٌ لنا في حياتنا وآخرتنا، ولم ينهنا إلا عن ما فيه شرٌّ لنا في حياتنا وآخرتنا. كما أنه- سبحانه- لم يأمرنا بعبادته إلا بما نقدر عليه، فلم يأمرنا بكثرة العبادات والأعمال؛ بل أمرنا بفرائض محدودة، جعلها فرضًا علينا، ثم سنَّ لنا نوافل، نتقرب بها إليه قدر استطاعتنا، فهو- سبحانه- يقبل العمل اليسير، ويثيب به الأجر الكثير.

ولكنه– سبحانه- اشترط لقبول العمل- صغيرًا كان أم كبيرًا- الإخلاص، فقال تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا اللهَ مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} (سورة البينة: ٥).

---

(١) انظر: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٤٧٥/٢).

ويتحدث هذا الكتاب عن موضوعٍ مهمٍّ، يحتاج إليه كل امرئٍ مسلم، خاصةً في زمننا هذا، الذي بَعُد فيه الكثير- إلا مَن رحم ربي- عن طريق الله تعالى، واستهوته الدنيا بزينتها، وغرَّه طول الأمل، ونسي أن اليوم عملٌ بلا حساب، وأنَّ غدًا حسابٌ بلا عمل، ألا وهو: **"الافتقار إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة"**، فمعنى العبودية والافتقار- كما سيأتي بيانه- أجلُّ وأرقى من أن يسمى فقراً؛ لأن كلمة "فقر" تنصرف إلى أن إنسانًا لا يجد كل حاجاته، وربما تكفف الناس، في حين أن الافتقار لله تعالى هو بمثابة قمة الامتثال والاستسلام، وتفويض الأمر لله تعالى، وهو صفة القلوب الحية، فهو العز بالله، والغنى بالله، والاستغناء بالله تعالى عمن سواه.

وقسمتُه إلى: تمهيدٍ، وفصلين، وخاتمةٍ، ثم زيلته بفهارس.

تحدثتُ في التمهيد عن: ماهية الافتقار إلى الله تعالى.

وتحدثتُ في الفصل الأول عن: طرق ووسائل الافتقار إلى الله تعالى، وجاء في عشرة مباحث. وتحدثتُ في الفصل الثاني عن: الافتقار إلى الله في حياة الأنبياء والمرسلين- عليهم السلام-، واخترتُ منهم ثلاثة عشر نبيًّا، على رأسهم المصطفى- صلى الله عليه وسلم-، ذكرتُ في الحديث عن كل واحدٍ منهم نبذةً مختصرةً عنه، ثم تحدثتُ عن الافتقار في حياته مباشرةً؛ حرصًا على عدم ذكر ما لا علاقة له بموضوع البحث.

وتأتي الخاتمة؛ لتضم أهم وأبرز ما توصل إليه البحث من نتائج.

ثم الفهارس، وقسمتها إلى ما يلي:

أ - فهرس المصادر والمراجع، حسب ترتيب حروف المعجم .

ب- فهرس الموضوعات، حسب ترتيبها بالبحث.

وأخيرًا، أسألُ اللهَ العليَّ القديرَ، أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكتب له القبولَ، وأنْ ينفعَ به المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، إنه- سبحانه وتعالى- على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وآخر دعوانا أنْ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

المؤلف:

تمهيد

ماهية الافتقار إلى الله تعالى.

تعريف الافتقار في اللغة:

أصله: (ف ق ر)، والذي يدور في اللغة حول الحاجة والعوز، فالفقير هو المحتاج، والفقر -كما هو متفقٌ عليه- ضد الغنى، والفقير مكسور فقار الظهر، وهو مشتقٌ من انفقار الظهر، أي: انكسار فقاره، فكأن الفقير مكسور الظهر من شدة حاجته، والفقير هو مَن يجد ما يأكله، بينما المسكين هو مَن لا شيء له. ويقال: افتقر يفتقر، فهو مفتقِر، والمفعول: مفتقَر إليه[(١)].

يقول ابن منظور: "الفَقر والفُقر: ضد الغنى، مثل: الضَّعف والضُّعف. والفُقر لغة رديئة. والفَقر: الحاجة، وفعله الافتقار. والنعت فقير، والفقير: الذي له بُلغة من العيش، والمسكين: الذي لا شيء له، وقيل: الفقير أحسن حالًا من المسكين.... والفقار: يضرب مثلًا لكل ضعيفٍ لا ينفُذ في الأمور. والفقير معناه: المفقور الذي نُزعت فِقَره من ظهره؛ فانقطع صلبه من شدة الفقر، فلا حال هي أوكد من هذه" [(٢)].

ويقول (الراغب الأصفهاني): "يستعمل الفقر على أربعة أوجه، وهي:[(٣)]

الأول: وجود الحاجة الضرورية، وذلك عام للإنسان ما دام في دار الدنيا؛ بل عام للموجودات كلها، وعلى هذا قوله تعالى: {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد}(سورة فاطر: ١٥). وإلى هذا النوع من الفقر أشار القرآن الكرم في وصف الإنسان، وذلك في قوله تعالى: {وما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين} (سورة الأنبياء: ٨).

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٤٤٣/٤)؛ صحاح العربية، للجوهري الفارابي (٤١٥/٦).
(٢) لسان العرب، لابن منظور (٢٠٥/١١).
(٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص٤٩٥).

الثاني: عدم المقتنيات: وهو المذكور في قوله تعالى: {للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا وما تنفقوا من خيرٍ فإن الله به عليم} (سورة البقرة: ٢٧٣).

الثالث: فقر النفس: وهو الشَّره- الطمع- المعني بقول النبي- صلى الله عليه وسلم-: "كاد الفقر أن يكون كفرًا"[(١)].

الرابع: الفقر إلى الله تعالى: وهو المشار إليه في: "اللهم اغنني بالافتقار إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك"[(٢)].

تعريف الافتقار في الاصطلاح:

الفقر اصطلاحًا: هو عدم ملك الإنسان لما يكفيه من مالٍ، مع عدم القدرة على الكسب والعمل[(٣)].

أما الافتقار اصطلاحًا- وهو موضوع دراستنا بمشيئة الله تعالى-، فله تعاريف كثيرة، تعددت ألفاظها؛ لكن اتحدت معانيها ومرادها، فالافتقار معناه: قمة الخضوع والانكسار والامتثال، ودوام الانقياد والتسليم.

يعرفه ابن القيم بقوله: "إن من أخص خصائص العبودية: الافتقار المطلق لله تعالى، فهو حقيقة العبودية ولبها.... وحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله، وإن كنت لنفسك؛ فثمَّ ملْك واستغناء منافٍ للفقر. والفقر الحقيقي هو دوام الافتقار للواحد القهار بالليل والنهار، وأن تشهد- أيها العبد المؤمن- في كل ذرةٍ من ذراتك

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٦٧/٥)، باب: في الحث على ترك الغل والحسد، حديث رقم: (٦٦١٢). وقال الألباني في صحيح الجامع (حديث رقم: ٤١٤٨): "حديث ضعيف".
(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص٤٩٥).
(٣) انظر: (علاج مشكلة الفقر. دراسة قرآنية موضوعية)، عبد السلام حمدان اللوح- ومحمود هاشم عنبر، مجلة الجامعة الإسلامية- سلسلة الدراسات الإسلامية، المجلد السابع عشر، العدد الأول، يناير ٢٠٠٩م، (ص٣٢٠).

الظاهرة والباطنة فاقةً تامةً إلى اللهِ تعالى من كل وجه[1].

وعلى هذا، فإن معنى الافتقار إلى الله تعالى: العبودية الحقيقية لله- عز وجل-، أن يكون الإنسان عبدًا لله حقًّا، وأن تتحقق عبوديته لله تعالى، فيعرف حقيقة نفسه، فهو عبدٌ ضعيف بنفسه؛ لكنه قويٌّ بالله. فقيرٌ بنفسه؛ لكنه غنيٌّ بالله. جاهلٌ بنفسه؛ لكنه عالمٌ بالله تعالى. إذا تحققت هذه المعاني؛ اقترب الإنسان من مرتبة العبودية، أي: من مرتبة الافتقار إلى الله تعالى، وكلما افتقر العبد المسلم إلى الله؛ رفع الله قدره، ورفع ذكره، وأعلى مقامه، وألبسه الهيبة والوقار، وألقى محبته في قلوب الناس.

وجديرٌ بالذكر أن معنى العبودية والافتقار أجل وأرقى من أن يسمى فقراً؛ لأن كلمة "فقر" تنصرف إلى أن إنساناً لا يجد كل حاجاته، وربما تكفف الناس، في حين أن الافتقار لله تعالى هو بمثابة قمة الامتثال والاستسلام وتفويض الأمر لله تعالى، وهو صفة القلوب الحية، فهو العز بالله، والغنى بالله، والاستغناء بالله تعالى عمن سواه.

وهو التذلل والخضوع لله، وتفريغ القلب إلا منه- سبحانه وتعالى-، وعدم التوكل إلا عليه، وعدم اللجوء إلا إليه، وعدم الثقة إلا به، وعدم الشكوى إلا إليه، وعدم الطلب إلا منه.

وهذا معناه: لجوء العبد إلى الله تعالى لجوء الفقير المحتاج، لجوء المسكين الضعيف، لجوء مَن لا يملك من الدنيا- مهما ملك منها- شيئًا، لجوء مَن ضاقت سُبله إلا بربه العلي القدير، وهذا اللجوء لا قيمة له، ولا يكون بمعناه الحقيقي إن لم يكن لجوءًا مليئًا بالذل والانكسار، والتوبة والاستغفار، وطلب المغفرة والعفو من الله العزيز الغفار، الذي سبقت رحمته غضبه، غافر الذنب، وقابل التوب شديد العقاب ذي الطَول، سبحانه وتعالى لا إله إلا هو إليه المصير.

الشَّمسُ والبَدرُ مِن آياتِ قُدرتـِهِ ... والبَرُ والبحْرُ فَيضٌ مِن عَطايَاهُ

الطَّير سبَّحهُ، والوَحشُ مجَّـدهُ ... والمَوجُ كبَّرهُ، والحُوتُ نَاجَـاهُ

والنَّملُ تحتَ الصُّخورِ الصُّمِ قدَّسهُ ... والنَّحلُ يهتفُ حَمدًا فِي خَلايَـاهُ

والنَّاسُ يَعصُونَه جَهرًا فَيسترهُم ... والعَبد يَنسى وَربِي ليسَ يَنسَـاهُ

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/٤٤٠).

الفصل الأول

طرق ووسائل الافتقار الحقيقي إلى اللّه تعالى:

هناك العديد من الطرق والوسائل التي يمكن للعبد المسلم من خلالها الوصول إلى درجة الافتقار الحقيقي إلى ربه- تبارك وتعالى-، ولعل من أبرز تلك الطرق والوسائل ما نتناوله في المباحث التالية:

المبحث الأول: ويتضمن الوسيلة الأولى: تحقيق العبودية لله تعالى بمعناها الصحيح

المبحث الثاني: ويتضمن الوسيلة الثانية: تعلق القلب بالله تعالى.

المبحث الثالث: ويتضمن الوسيلة الثالثة: مداومة الاستغفار.

المبحث الرابع: ويتضمن الوسيلة الرابعة: مداومة ذكر الله تعالى.

المبحث الخامس: ويتضمن الوسيلة الخامسة: الإخلاص في العبادة مع وجل القلب.

المبحث السادس: ويتضمن الوسيلة السادسة: خشية الله سرًا وعلانيةً.

المبحث السابع: ويتضمن الوسيلة السابعة: تعظيم حرمات الله تعالى، وشعائره.

المبحث الثامن: ويتضمن الوسيلة الثامنة: الالتزام بخُلق التواضع.

المبحث التاسع: ويتضمن الوسيلة التاسعة: المبادرة بالتوبة، وعدم الإصرار على المعصية.

المبحث العاشر: ويتضمن الوسيلة العاشرة: ملازمة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى.

المبحث الأول

ويتضمن الوسيلة الأولى: تحقيق العبودية لله تعالى بمعناها الصحيح

بدايةً لابد من تعريف العبادة لغةً وشرعًا، وبيان ذلك فيما يلي:

العبادة لغةً: أصلها (ع ب د)، فالعين والباء والدال: أصلان صحيحان كأنهما متضادان، فالأول منهما يدل على اللين والذل. والآخر يدل على الشدة والغلظة. فالأول: العبد المملوك، والمعبد: الذلول. والطريق المعبَّد: الطريق المسلوك المذلل. والبعير المعبَّد: هو البعير المذلل. والأصل الآخر: العبدة، والتي هي القوة والصلابة، يقال: هذا ثوبٌ له عبد إذا كان صفيقًا قويًّا [(١)].

العبادة شرعًا: لها تعريفاتٌ كثيرة عند العلماء، ومن أبرز تلك التعريفات ما يلي:

١- يقول ابن كثير: "العبادة في اللغة: من الذل. يقال: طريق معبد وبعير معبد، أي: مذلل. وفي الشرع : عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف"[(٢)].

٢- يقول الزمخشري: "والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه: ثوب عبدة إذا كان غايةً في الصفاقة وقوة النسج، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى؛ لأنه مولى أعظم النعم؛ فكان حقيقًا بأقصى غاية الخضوع"[(٣)].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٢٠٥/٤)؛ ولسان العرب، لابن منظور (٢٧٤/٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢٥/١).
(٣) الكشاف، للزمخشري (١٠/١).

٣- يقول القرطبي: "والعبادة: الطاعة والتذلل، وطريق معبد: إذا كان مذللًا للسالكين، ونطق المكلف به إقرارٌ بالربوبية، وتحقيقٌ لعبادة الله تعالى، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك"[(١)].

٤- يقول الطبري: "معنى العبادة: الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة"[(٢)].

٥- يقول السعدي: "العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله، فالحب التام والخضوع الكامل لله، هو حقيقة العبادة. فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين، أو من أحدهما؛ فليست عبادة، فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة، والتي تتبعها المحابُّ كلها"[(٣)].

وبناءً على تلك التعريفات– سالفة الذكر- للعبادة؛ فإنه يمكننا القول: إن العبادة هي التذلل والانكسار، والخضوع والامتثال لأوامر الله تعالى، وهي الطاعة والانقياد المطلق، وتُعد بمثابة الاسم الجامع لكل ما يحبه ربنا- تبارك وتعالى- ويرضاه من العقائد، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح.

ومتى ارتقى العبد المسلم لهذه الدرجة؛ كان مقبلًا على الطاعة، ملتزمًا بالأوامر والنواهي، ممتثلًا خاضعًا ذليلًا لأمر الله تعالى، مقتديًا بقول ربه- تبارك وتعالى-:

{وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومَن يعص اللهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضلالًا مبينًا} (سورة الأحزاب: ٣٦).

يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره لهذه الآية: "وذكر اسم الجلالة هنا للإيماء إلى أن طاعة الرسول- صلى الله عليه وسلم- طاعة لله تعالى. و(الخيرة): اسم مصدر تخير، كالطيرة اسم مصدر تطير. وقيل: ولم يسمع في الوزن غيرهما. و (مِن): تبعيضية. و (أمرهم): بمعنى شأنهم وهو جنس، أي: أمورهم. والمعنى: ما كان اختيار بعض شئونهم ملكًا يملكونه؛ بل يتعين عليهم اتباع

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٤٢/١).
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٥٥/١).
(٣) الحق الواضح المبين، لعبد الرحمن السعدي (ص٥٩).

ما قضى الله ورسوله- صلى الله عليه وسلم-، فلا خيرة لهم. و (مؤمن ومؤمنة): لما وقعا في حيز النفي يعمان جميع المؤمنين والمؤمنات، فلذلك جاء ضميرها جمع؛ لأن المعنى: ما كان لجمعهم ولا لكل واحد منهم الخيرة كما هو شأن العموم. وقوله: (ومن يعص اللهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضلالًا مبينًا): تذييل تعميم للتحذير من مخالفة الرسول- صلى الله عليه وسلم-، سواء فيما هو فيه الخيرة، أم كان عن عمد للهوى في المخالفة"[(١)].

وعلى هذا، فإنه ليس من شأن المؤمن إذا وجد أمر الله- عز وجل-، أو أمر نبيه- صلى الله عليه وسلم- أن يقف مترددًا أفعلُ أو لا أفعل، وإذا كان هناك تردد؛ فهناك ضعفٌ في الإيمان، وعلامة الإيمان الذي يُنجي صاحبه من عذاب الدنيا والآخرة، أن يكون في الحجم الذي يحمله على طاعة الله- تبارك وتعالى-، فإن لم يحملك إيمانك على طاعة الله تعالى؛ فهذا الإيمان ناقص لا يكفي، ولذلك ينبغي على مَن كان هذا حاله أن يجدد إيمانه، وأن يجلس وينظر في ملكوت السماوات والأرض، ويقرأ ما تيسر له من كتاب الله تعالى؛ حتى يصل للدرجة التي تحمله على طاعة الله تعالى.

وانظر إلى منهج الحسن البصري في حياته، إذ يقول عن نفسه: "ما ضربتُ ببصري، ولا نطقتُ بلساني، ولا بطشتُ بيدي، ولا نهضتُ على قدمي؛ حتى أنظرَ أعلى طاعةٍ؟ أو على معصية؟، فإن كانت طاعةً؛ تقدمتُ، وإن كانت معصيةً؛ تأخرتُ"[(٢)].

ويقول تعالى في وصف المؤمنين: **{إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خروا سُجَّدًا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون}** (سورة السجدة: ١٥).

أي: "إنما يؤمن بآيات الله الذين ذُكرت أوصافهم هنا بتشديد الكاف، أي: أعيد ذكرها عليهم، والمراد بالآيات هنا: آيات القرآن بقرينة قوله، وتكررت تلاوتها على مسامعهم، ومفاد "إنما" قصر إضافي، أي: يؤمن بآيات الله الذين إذا ذُكروا بها تذكيرًا بما سبق لهم سماعه؛ لم يتريثوا عن إظهار الخشوع والخضوع لله تعالى. وأوثرت صيغة المضارع في "إنما يؤمن" لما تشعر به من أنهم

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج٢٣/٢٧- ٢٨).
(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/١٥٥).

يتجددون في الإيمان، ويزدادون يقينًا، وإلا فإن المؤمنين قد حصل إيمانهم، فعبر عن إبلاغهم آيات القرآن وتلاوتها على أسماعهم بالتذكير المقتضي أن ما تتضمنه الآيات حقائق مقررة عندهم، لا يفادون بها فائدة لم تكن حاصلة في نفوسهم، ولكنها تكسبهم تذكيرًا بها؛ لقوة إيمانهم، وهذه الصفة هي حالهم التي عُرفوا بها، وتميزوا بها عن الذين كفروا، وليست تقتضي أن من لم يسجدوا عند سماع الآيات ولم يسجدوا بحمد ربهم من المؤمنين ليسوا من المؤمنين، ولكن هذه حالة أكمل الإيمان، وهي حالة المؤمنين مع النبي- صلى الله عليه وسلم- يؤمئذٍ عُرفوا بها. و "الخرور": هو الهوى من علة إلى سفل. والسجود: وضع الجبهة على الأرض؛ إرادة التعظيم والخضوع. وانتصب "سجدًا" على الحال المبنية للقصد من خروا، أي: سجدًا لله وشكرًا له على ما حباهم به من العلم والإيمان، كما دل عليه قوله: "وسبحوا بحمد ربهم". والباء فيه للملابسة، ودلت الجملة الشرطية على اتصال تعلق حصول الجواب بحصول الشرط وتلازمهما" [(١)].

يقول ابن تيمية: "كلما ازاد القلب حبًّا لله؛ ازداد له عبودية، وكلما ازاد له عبودية؛ ازداد له حبًّا وحريةً عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائية. ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلية، فالقلب لا يصلح ولا يفلح، ولا يلتذ ولا يُسر، ولا يطيب ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات؛ لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقرٌ ذاتيٌّ إلى ربه، ومن حيث هو معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه"[(٢)].

ويقول ابن القيم: "إن تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد، وأكمل الخلق عبوديةً؛ أكملهم ذلًّا وانقيادًا وطاعةً، ذليل لمولاه الحق بكل وجهٍ من وجوه الذل، فهو ذليلٌ لقهره، ذليلٌ لربوبيته فيه وتصرفه، وذليلٌ لإحسانه إليه، وإنعامه عليه"[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج٢٢/٢٠٤).
(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٠/١٩٣).
(٣) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/٥٠٠).

وتدبر معي ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: يقول الله تعالى: "العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته"[(١)].

وجه الدلالة: إن العز والكبرياء مما يختص بالله- تبارك وتعالى-، والرداء والإزار كل ذلك مما يختص بصاحبه، وليس لأحد أن يشاركه فيه كما هو معلوم؛ فيفهم من ذلك أن العز والكبرياء مما يختص به الله- سبحانه وتعالى-. أما الكبرياء فلا يكون لأحد من المخلوقين، لا قليله ولا كثيره، فهو لا يصلح للمخلوق؛ لأن المخلوق إنما يصلح له العبودية والتذلل، وكلما ازداد المخلوق عبودية؛ ازداد رفعةً في حقه.

أما ما يتعلق بالعزة، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فالعزة لله جميعًا، وهذه العزة التي تكون لله جميعًا، يُعز بها من يشاء من عباده، فكلما كان العبد أكثر قربًا من الله- عز وجل-؛ كلما كان ذلك أعظم وأوفر، والعزة الحقيقية إنما تكون بتحقيق العبودية، ولهذا قال تعالى عن أهل الإيمان في وصف من يحبهم ويحبونه، قال تعالى: {أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين} (سورة المائدة: ٥٤). فهذا العز على الكفار، على أهل الظلم والعدوان، هو وصف كمال؛ لأن ذلك بحق، والمؤمن يكون له من العزة بقدر ما يكون له من الطاعة والتخلص من الذنوب، وكلما ارتكس العبد ونزل وهبط بترك المأمور، أو بفعل المحظور؛ كلما كان ذلك نقصًا في عزته، وبهذا نعلم أن العزة التي تكون للمخلوقين إنما هي من الله العزيز الحكيم، وتكون بحسب أحوال العباد وأعمالهم من جهة الكمال والنقص.

❄❄❄❄❄❄❄❄❄❄

هذا، وقد ذكر ابن القيم في كتابه: (مدارج السالكين) جملةً من الآثار التي تُعد بمثابة العامل الحفَّاز لتحقيق عبودية العبد لله- تبارك وتعالى- بمعناها الصحيح، والتي يمكننا إيجازها في النقاط التالية:

١- علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر، والنفع، والعطاء والمنع، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل، وثمراته ظاهرًا، فالتوكل متعلّقٌ

(١) أخرجه مسلم، في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر، حديث رقم: (٢٦٢٠).

بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسره بعضُ الأئمة أنه: (المعرفة بالله)، والمعنى في ذلك، أنّه كلّما كان بالله أعرف؛ كان توكله عليه أقوى[١]، ولذلك فإنّ التوكل من لوازم الرضا بالله تعالى: {ربُّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلًا} (سورة المزمل: ٩).

يقول الفخر الرازي: "وها هنا مقامٌ عظيم، فإنه لما كانت معرفة (أنه لا إله إلا هو) توجب تفويض كل الأمور إليه؛ دل هذا على أن من لا يفوض كل الأمور إليه، فإنه غير عالم بحقيقة لا إله إلا هو، وتقريره أن كل ما سواه ممكن ومحدث، وكل ممكن ومحدث، فإنه ما لم ينته إلى الواجب لذاته لم يجب، ولمّا كان الواجب لذاته واحدًا؛ كانت جميع الممكنات مستندة إليه، منتهية إليه، وهذا هو المراد من قوله: فاتخذه وكيلًا"[٢].

٢- وعلمه بسمعه تعالى، وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرةٍ في السموات، ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين، وما تخفى الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه، وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله عز وجل.

وهذا الحفظ من العبد لايأتي إلا بمراقبة الله- عز وجل-، ومعرفته التامة أنّ الله- تبارك وتعالى- مطّلعٌ على جميع حركاته وسكناته.

أما المراقبة، فقد عرفها ابن القيم بقوله: "هي التعبد باسمه الرّقيب، الحفيظ، السميع البصير، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبّد بمقتضاها؛ حصلت له المراقبة"[٣].

يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كانَ عليكم رقيبًا} (سورة النساء: ١).

وقال تعالى: {يعلمُ خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور} (سورة غافر: ١٩).

وقال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} (سورة العلق: ١٤).

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (١٣٠/٢).
(٢) مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي (٦٨٨/٣٠).
(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٦٩/٢).

٣- ومعرفته بغناه، وجوده، وكرمه، وبره، وإحسانه، ورحمته؛ توجب له سعة الرجاء، وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

يقول تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (سورة الكهف: ١١٠).

فلا يكون العبدُ راجيًا لله– عز وجل- من دون عملٍ صالحٍ يعصمه من عقاب الله تعالى، ولذلك فإنّ من لوازم إقبال العبد على هذا العمل أن يعرف الله تعالى بربوبيته، فإذا عرف الله واحدًا برًّا رحيمًا؛ أعقبه ذلك العمل له وحده إرضاءً لذاته العليّه، وخوفًا من عقابه، وأملًا في ثوابه[(١)].

"فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله، ولا يتعلق بمخلوق، ولا بقوة العبد، ولا عمله، فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك.... فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رجا قوته، أو عمله، أو علمه، أوصديقه، أوقرابته، أو شيخه، أو ملكه، أو ماله، غير ناظر إلى الله؛ كان فيه نوع توكل على ذلك السبب، وما رجا أحد مخلوقًا أو توكل عليه؛ إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك: **{ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق} (سورة الحج: ٣١)**"[(٢)].

وهو "عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه المحسن البر، فذلك التعلق، والتعبد بهذا الاسم، والمعرفة بالله، هو الذي أوجب للعبد الرجاء، من حيث يدري، ومن حيث لا يدري، فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء؛ لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا؛ بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات.....وعلى حسب المحبة، وقوتها يكون الرجاء، فكل محب راجٍ خائف بالضرورة، فهو أرجى ما يكون لحبيبه، أحب ما يكون إليه، وكذلك خوفه، فإنه يخاف سقوطه من عينيه، وطرد

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، (١٣٥/١٨)؛ وانظر/ معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، (٢١٣/٥).
(٢) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٢٣٢/٥).

محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه، فخوفه أشد خوف، ورجاؤه ذاتي للمحبة، فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه، فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له؛ لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمّه"[(١)].

٤- وكذلك معرفته بجلال الله- عز وجل-، وعظمته، وعزه؛ تثمر له الخضوع، والاستكانة، والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعًا من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

يقول تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} (سورة البقرة: ١٦٥).

والحب لله تعالى أن يطيعوه في أمره، وينتهوا عن نهيه، فكل من كان أطوع لله؛ فهو أشد حبًّا له، كما قال الإمام الشافعي:

تَعصِي الإلهَ وأنتَ تُظهرُ حُبَّه ... هَذا مُحالٌ في القِياسِ بَديعُ

لَو كَانَ حُبَّك صادقًا لأطعتـه ... إنَّ المُحُبَّ لِمَن يُحُبُّ مُطِيعُ

فِي كلِّ يومٍ يبتديكَ بِنعمـةٍ ... مِنه، وأنتَ لِشكرِ ذاكَ مُضيعُ

ولحبهم لله تعالى، وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له؛ لا يشركون به شيئًا؛ بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه[(٢)].

والذي يجب أن يعرفه العبد، وأن يتحقق في نفسه، أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء؛ بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله- عز وجل-[(٣)].

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/٤٣- ٤٤).
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (١/٤٧٦).
(٣) العبودية، لابن تيمية (ص٤٩).

فإنّ "من عرف الله بأسمائه وصفاته، وأفعاله؛ أحبه لا محالة"[1].

٥- وكذلك علمه بكماله، وجماله، وصفاته العلى، يوجب له محبةً خاصةً بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها، فخَلْقُه سبحانه، وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم، وآثارها، ومقتضاها؛ لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم، ولا تَشينه معصيتهم، فهو سبحانه غنيٌّ عنهم، والخلق جميعهم مفتقرون إليه.

يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (سورة فاطر: ١٥).

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمرٌ ذاتي لهم، لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيًا حميدًا ذاتيًّا؛ فغناه وحمده ثابتٌ له لذاته، لا لأمر أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان؛ بل هو ذاتي للفقير، فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته، لا لأمر أوجب غناه... وهذا من كماله- سبحانه وتعالى- أن تفتقر له الخلائق، وتحتاج إليه في جميع حركاتها، وسكناتها، فهو غنيٌّ متفرد بالغنى سبحانه، محمودٌ في جميع أفعاله[2].

❄❄❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) تفسير القرآن الكريم، لابن القيم (ص٤٣٧).
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٧٩/٦).

المبحث الثاني

ويتضمن الوسيلة الثانية: تعلق القلب بالله تعالى:

بدايةً، اقرأ معي تلك الكلمات التي تذهل العقول، وتهذب النفوس، وترقق القلوب، وتُبصِّر بالحق، وتُنور البصيرة، والتي أوردها أبو نعيم في الحلية: "حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعُثْمَانِيُّ , ثنا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْبَغْدَادِيُّ , ثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ الرَّازِيُّ ، قَالَ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مُعَاذٍ ، يَقُول: مَفاوِزُ الدُّنْيَا تُقْطَعُ بِالأَقْدَامِ، وَمَفَاوِزُ الآخِرَةِ تُقْطَعُ بِالْقُلُوبِ. قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ لا يَزَالُ دِينُكَ مُتَمَزِّقًا مَا دَامَ الْقَلْبُ بِحُبِّ الدُّنْيَا مُتَعَلِّقًا. قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَا رَكَنَ إِلَى الدُّنْيَا أَحَدٌ إِلا لَزِمَهُ عَيْبُ الْقُلُوبِ، وَلا مَكَّنَ الدُّنْيَا مِنْ نَفْسِهِ أَحَدٌ، إِلا وَقَعَ فِي بَحْرِ الذُّنُوبِ. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَرَأَى رَجُلا يَوْمًا يَقْلَعُ الْجَبَلَ فِي يَوْمٍ حَارٍّ وَهُوَ يُغَنِّي، فَقَالَ: مِسْكِينٌ ابْنُ آدَمَ قَلْعُ الأَحْجَارِ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ الأَوْزَارِ. قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ لَمْ يَرْضَ عَنِ اللَّهِ فِي الْمَنْعِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْمَنْعِ. قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: طَلَبُوا الزُّهْدَ فِي بَطْنِ الْكُتُبِ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي بَطْنِ التَّوَكُّلِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَسُئِلَ مَتَى يَعْلَمُ الرَّجُلُ أَنَّهُ قَدْ أَصَابَ الطَّرِيقَ وَأَمِنَ هَذَا الْخَلْقَ؟ قَالَ: إِذَا اسْتَحْلَوْهُ وَاسْتَمَرَّهُمْ وَأَحَبُّوا لِقَاءَهُ، وَكَرِهَ لِقَاءَهُمْ. قَالَ: وَنَظَرَ يَوْمًا إِلَى إِنْسَانٍ وَهُوَ يُقَبِّلُ وَلَدًا صَغِيرًا، فَقَالَ: أَتُحِبُّهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَذَا حُبُّكَ لَهُ إِذْ وَلَدْتَهُ، فَكَيْفَ بِحُبِّ اللَّهِ لَهُ إِذْ خَلَقَهُ؟!. قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَبَّحُوا فِي بِحَارِ الْبَلايَا حَتَّى جَاوَزُوهَا إِلَى الْعَطَايَا، ثُمَّ سَبَّحُوا فِي بِحَارِ الْعَطَايَا حَتَّى جَاوَزُوهَا إِلَى رَبِّ الْبَرَايَا. قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ أَشْخَصَ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ؛ انْفَتَحَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ، وَجَرَتْ عَلَى لِسَانِهِ"[(١)].

فاعلم - يا رعاك الله- أن الدنيا لا تستحق أن تُعلق قلبك بها، فهي دار ممر، حلوة خضرة، متاعها زائل، فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. والآخرة هي دار المقر، وهي الدار الباقية، فمن عمل صالحًا فلنفسه، ومن أساء فعليها. فخذ من دنياك لآخرتك، واجعل الدنيا كجسرٍ تعبر به للآخرة، واجعل قلبك- دومًا- مُعلقًا بذكر الله، وطريق الله، وحاول- قدر استطاعتك- أن تكون

(١) أخرجه ابن نعيم في الحلية، انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم (حديث رقم: ١٥٠١٧)، وقال: حديث مقطوع.

ممن زكاهم الله تعالى في كتابه العزيز، ووصفهم **بقوله تعالى: {رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار} (سورة النور: ٣٧).**

يقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية: "قوله: (لا تلهيهم). أي: لا تشغلهم. وخص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل بها الإنسان عن الصلاة. فإن قيل: فلِم كرر ذكر البيع، والتجارة تشمله؟ قيل له: أراد بالتجارة الشراء لقوله: ولا بيع. ... قوله: (عن ذكر الله). اختلف في تأويله، فقال عطاء: يعني حضور الصلاة، وقال ابن عباس: الصلاة المكتوبة، وقيل: عن ذكره بأسمائه الحسنى، أي: يوحدونه ويمجدونه. قوله: وإقام الصلاة. يدل على أن المراد بقوله: عن ذكر الله، غير الصلاة؛ لأنه يكون تكرارًا... قوله: (وإيتاء الزكاة). قيل: المفروضة، وقيل: الزكاة هنا طاعة الله تعالى والإخلاص؛ إذ ليس لكل مؤمنٍ مال. قوله: (يخافون يومًا). يعني يوم القيامة. قوله: (تتقلب فيه القلوب والأبصار). يعني من هول وحذر الهلاك، والتقلب هو التحول، والمراد: قلوب الكفار وأبصارهم. فتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر، فلا هي ترجع إلى أماكنها، ولا هي تخرج. وأما تقلب الأبصار، فالزرق بعد الكحل، والعمى بعد البصر. وقيل: تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة، والخوف من الهلاك، والأبصار تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم، وإلى أي ناحية يؤخذ بهم. وقيل: إن قلوب الشاكِّين تتحول عما كانت عليه من الشك، وكذلك أبصارهم لرؤيتهم اليقين"[(١)].

وقد جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "سبعةٌ يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل قلبه معلق في المساجد .... "[(٢)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٢/٢٧٩/٢٨٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة باليمين، حديث رقم: (١٣٦٨)؛ وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم: (١٠٣١)، كلاهما من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي- ﷺ- قال: "سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه".

وجه الدلالة: إن المساجد بيوت الله تعالى، ومكان أداء العبادة المفروضة، وأنواع من العبادات المستحبة، وميدان العلم والتعلم، والمذاكرة والمناصحة، وكلها أعمال جليلة عظيمة، يستحق الملازم لها ذلك الثواب العظيم، بالإضافة إلى أن المتعلق بالمسجد يكون بعيدًا عن رؤية المنكرات، قريبًا من الله- تبارك وتعالى-؛ فيصفو قلبه، وتنجلي همومه وأكداره، ويعيش في روضةٍ من رياض الجنة، وبذلك تكفر سيئاته، وتكثر حسناته.

والتعلق بالمساجد لا يعني الجلوس فيها جميع الأوقات؛ بل وقت دون وقت؛ لكن إذا خرج منها فإنه يحب الرجوع إليها، وإذا جلس فيها أنس واطمأن، وارتاحت نفسه.

ويصف ابن القيم الافتقار إلى الله تعالى، وتعلق القلب بالله تعالى، بقوله: "يتخلى بفقره أن يتأله غير مولاه الحق، وأن يُضيع أنفاسه في غير مرضاته، وأن يفرق همومه في غير محابه، وأن يؤثر عليه في حالٍ من الأحوال؛ فيوجب له هذا الخلق، وهذه المعاملة، صفاء العبودية، وعمارة السر بينه وبين الله تعالى، وخلوص الود؛ فيصبح ويمسي ولا هَمَّ له غير ربه، فقد قطع همه بربه عنه جميع الهموم، وعطلت إرادته جميع الإرادات، ونسخت محبته له من قلبه كل محبةٍ سواه"[(١)].

ويقول في موضعٍ آخر: "فأوامر المحبوب قرة العيون، وسرور القلوب، ونعيم الأرواح، ولذات النفوس، وبها كمال النعيم، فقرة عين المحب في الصلاة والحج، وفرح قلبه وسروره ونعيمه في ذلك، وفي الصيام والذكر والتلاوة، وأما الصدقة فعجب من العجب، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، والصبر على أعداء الله سبحانه، فاللذة بذلك أمرٌ آخر لا يناله الوصف، ولا يدركه مَن ليس له نصيب منه، وكل مَن كان به أقوم؛ كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم"[(٢)].

وعلى هذا، فإن كل من تعلق قلبه بالله؛ فاز وربح. وكل من تعلق قلبه بغير الله تعالى؛ خاب وخسر.

---

(١) طريق الهجرتين، لابن القيم (ص: ١٨).
(٢) المصدر السابق (ص: ٧٠).

قال تعالى: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوةً فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون} (سورة الجاثية: ٢٣).

فهذه الآية الكريمة توجه عقل واهتمام المتدبر لكلام الله- تبارك وتعالى- إلى وضعية وحال الإنسان بين اتباع الهوى، والتسليم للرغبات والشهوات، وبين المنهج السليم الحق الذي جبل عليه، والذي يؤمن للإنسان النجاة من العذاب والخسران، ويضمن له النجاة والسلامة والاطمئنان. حيث توضح الآية ذلك، وتفحص تلك الجدلية التي يعيشها الإنسان، وتكشف عن حقيقتها وتبينها تبيانًا واضحًا جليًا فريدًا، حيث إن مِن الناس من يتخذ إلهه هواه، فكأنه بذلك أسلم نفسه لشهواتها، ورغباتها وأهوائها، فهي- حينئذٍ- محركة له، ودافعة إلى الفعل حتى صارت إلهًا، يمتثل لأوامرها، ويسعى لتحقيق مطلوباتها دون امتثالٍ إلى صوت الحق فيه، وإلى أوامر المنهج السليم، والهُدى الذي جُبل عليه، فاتخاذ الإنسان الهوى إلهًا في حياته ومعاملاته: كان سببًا مباشرًا في ابتعاده عن المنهج الحق؛ بل وعدم فسح المجال لتلقيه واستيعابه، وجعله محركًا لفعل الإنسان أمام هواه.

إذًا هي الضلالة، وعكسها الهداية، وهذه الجدلية بين الضلالة والهداية التي يعيشها، ويواجهها كل إنسانٍ في كل أوقات حياته، إنما هي على علمٍ من الله- تبارك وتعالى-؛ حيث إن إرادة الإنسان بعلمٍ من الله تعالى تُحدد فعله من اتباعٍ للهوى، أو للمنهج الصحيح؛ فتكون بذلك ضلالة الإنسان أو هدايته.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض"[(١)].

فهذا تحذيرٌ جليٌ من المصطفى- صلى الله عليه وسلم- لنا من الإيغال في هذه الدنيا، وأن تكون أكبر همنا؛ لذا بيَّن لنا أن العبد الذي يجمع الدنانير والدراهم، ويرضى بذلك، ويصرف وقته

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث رقم: (٢٨٨٦). وأخرجه أيضًا في كتاب الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال، حديث رقم: (٦٠٧١).
وعند ابن ماجه، حيث رقم: (٤١٣٥): "تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش".

وطاقته وجهده وشبابه في جمع الدراهم والدنانير، أو جمع الخمائل والخمائص، أو ما يشبه ذلك من ضروب هذه الدنيا ومما فيها؛ فإنه قد تعس وانتكس، حيث إنه وإن لم يُصلِّ للدينار ويسجد؛ لكنه في واقع أمره قد عَبَّد قلبه ونفسه وجوارحه لهذا الدينار، فحياته مسخرة من أجل كسبه، والحلال عنده ما حلَّ باليد بغير نظر في طرق هذا الاكتساب. فالإنسان الذي يكون عبدًا لهذه الأمور؛ يكون رضاه وسخطه بها، ويكون مستعدًّا لأن يقارع ويصارع، ويعارك ويقاتل، ويقاطع من أجلها.

وفي تفسير هذا الحديث يقول ابن عثيمين: "الدينار هو النقد من الذهب، والدرهم هو النقد من الفضة، والخميصة هو الثياب الجميلة، والخميلة هي الفرش الجميلة، كيف يكون الإنسان عبدًا للدينار والدرهم والخميصة والخميلة؟. فسر ذلك النبي- صلى الله عليه وسلم- بقوله: "إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض، ثم دعى عليه- في رواية- وقال: "تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش". فدعى عليه بالانتكاسة وعدم تيسير الأمور له حتى في إخراج الشوكة من جسمه إذا شيك فلا انتقش. نعم هو جدير بذلك، جدير بمن عبد الدرهم والدينار والخميصة والخميلة أن لا تيسر له الأمور؛ لأنه مخالفٌ لتقوى الله عز وجل"[(١)].

فيجب على العبد المؤمن أن يجعل قلبه دائمًا مُعلقًا بالله تعالى، ويحذر من التعلق بغير الله؛ لما في ذلك من الخذلان والخسران، وفي هذا يقول ابن القيم: "أعظم الناس خذلانًا: من تعلق بغير الله، فإن من فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله؛ كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت"[(٢)].

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين (١٠١/١٠).
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٤٥٨/١).

"فكل محبةٍ فهي مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه؛ لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة، بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير؛ وأين رجاء المحب من رجاء الأجير وبينهما كما بين حالهما؟!"[1].

❄❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) المصدر السابق (٢/٤٣).

المبحث الثالث

ويتضمن الوسيلة الثالثة: مداومة الاستغفار:

بدايةً لا بد من تعريف الاستغفار لغةً وشرعًا، وبيان ذلك فيما يلي:

الاستغفار لغةً: أصل الكلمة: غفر (الغين والفاء والراء)، من باب: الستر. و (الألف والسين والتاء) للطلب. أي: طلب الغفران والستر. فالغفر: هو الستر والغفران والغفر. وقد غفره يغفره غفرًا: ستره، وكل شيء غفرته فقد سترته. والغفر والمغفرة: التغطية على الذنوب، والعفو عنها[(١)].

الاستغفار شرعًا: يُقصد به شرعًا: طلب المغفرة من الله- عز وجل- بالمقال والفعال، فلم يأمرنا الله- تبارك وتعالى بأن نسأله المغفرة باللسان فقط؛ بل باللسان والأفعال. قال تعالى: {وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه...} (سورة هود: ٣). أي: اطلبوا منه المغفرة، ثم توصلوا إلي بالتوبة والعمل الصالح.

والاستغفار: هو طلب محو الذنوب؛ حتى ينجو صاحبها من النار، ويدخل الجنة[(٢)].

هذا، وقد سُئل ابن تيمية: هل المراد ذكر الاستغفار باللفظ؟ أم أنه يُشترط أنه ينوي بقلبه أن لا يعود إلى الذنب؟ فأجاب قائلًا: "الحمد لله؛ بل المراد الاستغفار بالقلب مع اللسان، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له"[(٣)].

كما أمر الله تعالى نبيه بالاستغفار، فقال تعالى: {فاصبر إنَّ وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار} (سورة غافر: ٥٥).

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور (٢٥/٦)؛ ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٣٨٥/٤).
(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (٣٠/٩).
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١١/ ٦٩٩).

فالأمر بالاستغفار في الآية، أمرٌ بأن يطلب من الله تعالى المغفرة التي اقتضتها النبوة، أي: اسأل الله دوام العصمة لتدوم المغفرة، وهذا مقام التخلية عن الأكدار النفسية ، وفيه تعريض بأن أمته مطلوبون بذلك بالأحرى، كقوله تعالى: {ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك } (سورة الزمر: ٦٥). وأيضًا فالنبي- صلى الله عليه وسلم - مأمورٌ بالاستغفار تعبدًا وتأدبًا. وأمر بتسبيح الله تعالى وتنزيهه بالعشي والإبكار، أي: الأوقات كلها؛ فاقتصر على طرفي أوقات العمل.

والعشي : آخر النهار إلى ابتداء ظلمة الليل، ولذلك سمي طعام الليل عشاء، وسميت الصلاة الأخيرة بالليل عشاء. والإبكار: اسم لبكرة النهار، كالإصباح اسم للصباح، والبكرة أول النهار.

وهذا مقام التحلي بالكمالات النفسية، وبذلك يتم الشكر ظاهرًا وباطنًا. وجعل الأمرين معطوفين على الأمر بالصبر؛ لأن الصبر هنا لانتظار النصر الموعود، ولذلك لم يؤمر بالصبر لما حصل النصر في قوله تعالى: { إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا} (سورة النصر: ١-٣). فإن ذلك مقام محض الشكر دون الصبر. وقد أخبر الله نبيه- صلى الله عليه وسلم - بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كما في أول سورة الفتح ، فتعين أن أمره بالاستغفار في سورة غافر قبل أن يخبره بذلك؛ لطلب دوام المغفرة، وكان أمره به في سورة النصر بعد أن أخبره بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ للإرشاد إلى شكر نعمة النصر"[(١)].

وجديرٌ بالذكر أنَ مَن يطالع السنة النبوية المطهرة؛ يجد أن أوقات النبي- صلى الله عليه وسلم- كانت مليئةً بالعبادة والدعاء والاستغفار والرجاء، لدرجة العجب من كثرة ما كان يواظب عليه المصطفى- صلى الله عليه وسلم- من ذلك في خضم أعبائه الاجتماعية المتعددة، وقيادته الحكيمة للأمة الإسلامية، وتفكيره في رد أعدائه أو عقد المعاهدات معهم، واستقباله الوفود التي كانت تأتيه من بقاعٍ كثيرة لتعلن إسلامها، وقيامه الليل، وصيامه النهار، واستقباله الوحي الإلهي، وتعليمه للصحابة- رضوان الله عليهم- أمور دينهم؛ ليقودوا الأمة من بعده.

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج٢٥/ ١٧٠)

كما حثنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- على مداومة الاستغفار، ومن أمثلة ذلك قوله- صلى الله عليه وسلم-: "يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرةٍ"[(١)].

فالنبي- صلى الله عليه وسلم- يتوب ويستغفر في اليوم مائة مرةٍ، وقد غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، وعندما سئل عن ذلك؛ قال: "أفلا أكون عبدًا شكورًا". فعن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلتُ: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: "أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا"[(٢)].

فالعبد المؤمن يتعبد لله- عز وجل- ليس فقط من أجل تكفير الذنوب والسيئات؛ بل إن مَن عرف الله تعالى معرفةً صحيحة بأسمائه وصفاته؛ عظَّمه وانجذب قلبه إلى عبادته، فعندئذٍ لا يملك إلا أن ينقاد له، وأن يتعبد له، وأن يعظمه حق التعظيم؛ لأنه تعالى هو العظيم الأعظم. كذلك الإنسان المؤمن يتعبد لله- عز وجل-، ويكثر من الأعمال الطيبة من أجل أن يكفر الله تعالى عنه ذنوبه، ويمحو تقصيره وزلاته، ما ظهر منها وما بطن.

ويقول ابن القيم: "سألتُ شيخ الإسلام ابن تيمية، فقلتُ: يسأل بعض الناس: أيما أنفع للعبد: التسبيح أم الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيًّا فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنسًا فالصابون والماء أنفع له"[(٣)].

❄❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار والاستكثار منه، حديث رقم: (٢٧٠٢). من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" (سورة الفتح: ٢)، حديث رقم: (٤٨٣٧)؛ وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم: (٢٨٢٠).

(٣) الوابل الصيب، لابن القيم (ص١٢٤).

فضائل الاستغفار:

للاستغفار فضائل جمة، يمكن بيان أبرزها في النقاط التالية:

١- هناك عدد كبير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، تعرض لموضوع الاستغفار، حيث بلغ عدد الآيات القرآنية التي تعرضت لموضوع الاستغفار: أربعًا وثلاثين ومائتي آية، وروى الطبري عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أنه قال: "في كتاب الله- عز وجل- آيتان، ما أذنب عبد ذنبًا فقرأهما واستغفر الله- عز وجل-؛ إلا غفر الله تعالى له، وقرأ:

- قول **الله تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون} (سورة آل عمران: ١٣٥).**
- **وقوله تعالى: {ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد اللهَ غفورًا رحيمًا} (سورة النساء: ١١٠)."** [(١)].

٢- أن الله- تبارك وتعالى- دعا إلى المغفرة، ودعا إلى الجنة، وبهذا نجد أن الله تعالى قد ساوى بين الدعوتين، وبناءًا عليه فإن المغفرة هي الطريق إلى الجنة، وهي بمثابة العمل المؤدي بصاحبه إل الجنة، **قال تعالى: {والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون} (سورة البقرة: ٢٢١).**

٣- أن الاستغفار يُخرج العبد المسلم من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، ومن العمل الناقص إلى التام، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الدرجات العلا، لذا فإن العبد يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل، وأطراف النهار؛ بل إنه محتاج إليه دائمًا في الأقوال والأحوال، وفي كل وقتٍ ومكان.

٤- هناك الكثير من الآيات القرآنية الدالة على أن القرب والزلفى من الله- تبارك وتعالى-، والتنعم بنعيم الجنة، يتوقف على سبق المغفرة الإلهية، وإزالة رَيْنِ الشرك والذنوب،

---

(١) جامع البيان، للطبري (٣٧٠/٤).

بتوبةٍ نصوحٍ ونحوها، ومن هذه الآيات قوله تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين} (سورة آل عمران: ١٣٥- ١٣٦).

٥- إنارة الوجه وإضاءته، حيث إن كثرة الاستغفار تعمل على إلانة القلب وإحيائه، وتمحي القسوة والغلظة من القلب؛ مما يترتب إيجابيًّا على الوجه.

٦- الاستغفار سببٌ مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، قال تعالى: {ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا} (سورة النساء: ١١٠).

٧- تقليل تعلق قلب العبد بالدنيا وإغراءاتها، والاهتمام والعمل للآخرة، حيث إن الذكر والاستغفار يسدِّان حاجات القلب.

٨- إزالة الحزن والهمّ والغمّ، وإبدالها بالفرح والسعادة والسرور وراحة البال، ويؤيد هذا ما جاء عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "من لزم الاستغفار؛ جعل الله له من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب"[(١)].

٩- يُعد الاستغفار بمثابة الإغاظة للشيطان- عليه لعنة الله-، ويؤيد هذا ما جاء عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب- تبارك وتعالى-: "وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني"[(٢)].

١٠- إمداد المستغفر بالرزق الواسع، والذي قد يكون غيثًا من السماء لإنبات الأرض، أو قد يكون ذريةً صالحة، أو أموالًا، أو زوجًا صالحًا، أو زوجةً صالحةً، حيث قال تعالى- حكايةً

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: الاستغفار، حديث رقم: (٣٨١٩). وضعفه الألباني في: ضعيف سنن ابن ماجه، حديث رقم: (٨٣٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٩٠)؛ والبيهقي في الأسماء (ص١٣٤). وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".
والحديث صححه الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب، برقم: (١٦١٧)؛ وفي: صحيح الجامع، برقم: (١٦٥٠).

عن نوح عليه السلام-: {فقلتُ استغفروا ربكم إنه كان غفارًا. يرسل السماء عليكم مدرارًا. ويمددكم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهارًا} (سورة نوح: ١٠، ١١، ١٢).

١١- يكفي المغفرة شرفًا أنها دعوة الأنبياء والمرسلين- عليهم السلام-، ودعوة التوحيد، مثل قوله تعالى- حكايةً عن هود عليه السلام-: {ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوةً إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين} (سورة هود: ٥٢). وقوله تعالى- حكايةً عن صالح عليه السلام-: {قال يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم تُرحمون} (سورة النمل: ٤٦).

١٢- يقف الاستغفار بمثابة الحائل دون الذنوب، حيث إن العبد بين ذنبٍ ونعمةٍ، لا يصلحهما إلا الشكر والاستغفار.

١٣- التخلص من البلاء والكرب، وإكساب المستغفر القوة عند الشدائد، وحتى في حياته اليومية، ويؤيد هذا ما جاء عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: "لو نزلت صاعقة من السماء؛ ما أصابت مستغفر". وقال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-: "العجب ممن يهلك ومعه النجاة. قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار".

١٤- المستغفرون هم أقل الناس، وأخفهم أوزارًا، حيث قيل لبعض السلف: كيف أنت مع دينك؟ فقال: أمزقه بالمعاصي، وأرقعه بالاستغفار.

١٥- الأمن من العذاب في الدنيا والآخرة، ويعصم المسلم من عذاب الله تعالى، وعقابه العاجل، حيث قال تعالى: {وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} (سورة الأنفال: ٣٣).

١٦- الاستغفار سببٌ رئيسٌ من أسباب انشراح الصدر، ويؤيد هذا ما جاء عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "إنه ليُغان[(١)] على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"[(٢)].

---

(١) المراد: الذي يغشى القلب.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، حديث رقم: (٢٧٠١). من حديث الأغر المزني، وكانت له صحبة.

قال النَّووي في شرحه للحديث: "والمراد هنا ما يتغشى القلب، قال القاضي: قيل: المراد الفترات والغفلات عن الذِّكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه، أو غفل عَدّ ذلك ذنباً، واستغفر منه، قال: وقيل: هو همّه بسبب أمّته، وما اطلع عليه من أحوالها بعده فيستغفر لهم، وقيل: سببه اشتغاله بالنَّظر في مصالح أمته، وأمورهم، ومحاربة العدو، ومداراته، وتأليف المؤلَّفة، ونحو ذلك، فيشتغل بذلك من عظيم مقامه، فيراه ذنباً بالنسبة إلى عظيم منزلته...، وقد قال المحاشي: خوف الأنبياء، والملائكة خوف إعظام، وإن كانوا آمنين عذاب الله تعالى"[1].

١٧- الاستغفار يُنزل الرحمات الإلهية، والألطاف الربانية، وهو سببٌ للفلاح في الدنيا والآخرة، **قال تعالى: {لولا تستغفرون الله لعلكم تُرحمون} (سورة النمل: ٤٦).**

وتأمل معي- يا رعاك الله- ما جاء من البشارة النبوية العظيمة للمستغفرين، فعن عبد الله بن بسر- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا"[2]

ففي هذا الحديث الشريف بيان لبعض فضائل الاستغفار، ف "طوبى" معناها: أن لهم مزيد نعيمٍ، وفرح بالجنة. وقيل: هو اسم للجنة. وقيل: هو اسم شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مسيرة مائة عام. و "استغفارًا كثيرًا" أي: كثر استغفاره وملأ الصحيفة، والاستغفار- كما قلنا- هو طلب المغفرة من الله تعالى، وفيه تضرعٌ إليه سبحانه، واعترافٌ بأنه الإله الواحد الأحد القادر على المغفرة، ومحو الذنوب، وقبول التوبة. ومن عظم منافع الاستغفار: أن المرء المسلم يجده عند حاجته إليه وفاقته يوم القيامة، وهو اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. نسأل الله النجاة من النيران، والفوز بالجنان، فهو سبحانه ولي ذلك، والقادر عليه.

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، في شرحه للحديث رقم: (٢٧٠١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: الاستغفار، حديث رقم: (٣٨١٨)؛ وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٠/١) من حديث أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها-؛ والحديث صححه الألباني في صحيح ابن ماجه، برقم: (٣٠٧٨).

أفضل أوقات الاستغفار:

الاستغفار مشروعٌ في كل وقت؛ لكنه يجب عند فعل الذنوب، ويستحب بعد الأعمال الصالحة، ويُعد أفضل أوقات الاستغفار: هو وقت السحر، وذلك لما يلي:

قال تعالى: {الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار}

(سورة آل عمران: ١٧).

وقال تعالى- حكايةً عن المؤمنين-: {كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون} (سورة الذاريات: ١٧- ١٨).

وقت السَّحر: هو آخر الليل قبيل الصبح، والجمع: أسحار. وقيل: هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الشمس.

والمقصود ب: المستغفرين بالأسحار: هم الذين يقومون لله تعالى بالليل ويتهجدون، ويستغفرون، ويكثرون من الإنابة والخشية، فالاستغفار- كما قلنا- يكون بالقلب واللسان، وليس باللسان فقط. وخصَّ السحر بالذكر لأنه مظان القبول، ووقت إجابة الدعاء.

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "يتنزل ربنا- تبارك وتعالى- كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له"[(١)].

فوقت السحر وقتٌ شريف، خصه الله- عز وجل- بالتنزيل فيه، فيتفضل على عباده بإجابة دعائهم، وإعطاء سؤلهم، وغفران ذنوبهم، وهو وقت غفلة وخلوة، واستغراق في النوم، واستلذاذ له، ومفارقة اللذة والدعة صعب، لا سيما أهل الرفاهية، وفي زمن البرد، وكذا أهل التعب، ولا سيما في قصر الليل، فمن آثر القيام لمناجاة ربه، والتضرع إليه مع ذلك؛ دل على خلوص نيته، وصحة رغبته فيما عند ربه، فلذلك نبه الله عباده على الدعاء في هذا الوقت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب الدعاء نصف الليل، حديث رقم: (٥٩٦٢). وفي كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: "يريدون أن يبدلوا كلام الله". حديث رقم: (٧٠٥٦).

الذي تخلو فيه النفس من خواطر الدنيا، وعلقها؛ ليستشعر العبد الجد والإخلاص لربه.[1]

ومما يدل على أن وقت السحر مظنة الاستغفار، قول الله تعالى- حكايةً عن يعقوب عليه السلام-: **{قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم} (سورة يوسف: ٩٨).**

فأبناء يعقوب طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم بعد اعترافهم بذنبهم، وخطأهم في حق أخيهم، فقال لهم أبوهم: "سوف أستغفر لكم". ومعنى هذا أنه لم يستغفر لهم في الحال؛ بل إنه أخَّر الاستغفار لوقتٍ أفضل، ويقال: إنه أخره إلى وقت السحر، ومما يؤيد ذلك ما جاء عن عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: "أخرهم إلى السحر"[2].

كما جاء عن محارب بن دثار أنه قال: كان عم لي يأتي المسجد، فسمع إنسانًا يقول: "اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا سحر فاغفر لي". قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: "إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السحر بقوله: "سوف أستغفر لكم ربي""[3].

ومن الأسباب التي خُصَّ من أجلها السحر: أنه الوقت الذي يطيب فيه النوم، ويشق القيام، وتكون النفس فيه أصغى، والقلب أفرغ من الشواغل، بيد أن الاستغفار المطلوب ما يقترن بالتوبة النصوح، ولا يكفي الاستغفار باللسان مع الإدمان على فعل المنكر، ومن ثم أُثر القول: إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار[4].

---

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري، في شرحه للحديث السابق، حديث رقم: (٥٩٦٢)، نقلًا عن ابن بطال. انظر: فتح الباري (١١/١٣٣).
(٢) انظر: الدر المنثور، للسيوطي (٤/٣٦)؛ وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/٥٣٧).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، برقم: (١٩٨٧٠). ومحارب بن دثار: ثقة.
(٤) تفسير المراغي (٢/١١٦).

ولأنه يلقى ظلالًا ندية عميقة في الوقت الذي يصفو فيه الجو، ويسكن، وتترقرق فيه خواطر النفس وخوالجها الحبيسة، فإذا انضمت إليها صورة الاستغفار؛ تلاقت روح الإنسان، وروح الكون في الاتجاه لبارىء الكون، وبارىء الإنسان[1].

ومن الأسباب- أيضًا- أن الإنسان في هذا الوقت يكون أكثر استعدادًا للتوجه إلى الله تعالى، حتى إن بعض العلماء يستثمر وقت السحر لحل المسائل العلمية. ولما كانت روح العبادة والاستغفار هي التوجه وحضور القلب؛ فإن العبادة والاستغفار في هذا الوقت أسمى[2].

❄❄❄❄❄❄❄❄❄❄

كيفية الاستغفار، وأفضل صيغه:

قد يتساءل البعض عن كيفية الاستغفار، وصيغته؛ فنقول له: اعلم- رعاك الله- أنه لا واسطة بين العبد وربه، فاستغفر ربك كيفما تشاء، بالصيغة التي تعرفها، في الوقت الذي تريده، في المكان الذي توجد فيه، فربك- تبارك وتعالى- أقربُ إليك من حبل الوريد، ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور.

ولكن هناك بعض الصيغ التي جاءت في الكتاب والسنة، والتي ينبغي للعبد أن يأخذ بها، فهي أفصح لفظًا، وأبلغ معنىً، وإن كانت ألفاظها قليلةً؛ إلا أن معانيها كثيرةٌ، وبيان ذلك فيما يلي:

صيغ الاستغفار في القرآن الكريم:

هناك آياتٌ كثيرة تحدثت عن صيغ الاستغفار، ولعل من أبرزها ما يلي:

١- قوله تعالى: **{ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرنا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} (سورة البقرة: ٢٨٦).**

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣٧٦/١).
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، للشيرازي (٣١٠/٢).

٢- **قوله تعالى: {ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين" (سورة آل عمران: ١٤٧).**

٣- **قوله تعالى: {ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان أن ءامنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار} (سورة آل عمران: ١٩٣).**

٤- **قوله تعالى: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} (سورة الأعراف: ٢٣).**

٥- **قوله تعالى: {وقل رباغفر وارحم وخير الراحمين} (سورة المؤمنون: ١١٨).**

صيغ الاستغفار في السنة النبوية:

هناك عدة صيغ للاستغفار وردت في السنة النبوية، وبيانها فيما يلي:

١- عن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- أنه قال للنبي- صلى الله عليه وسلم-: علمني دعاءً أدعو به في صلاتي. فقال- صلى الله عليه وسلم-: "قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت؛ فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم"(١).

٢- عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه سمع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول: "من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاثًا؛ غفرت ذنوبه، وإن كان فارًّا من الزحف"(٢).

٣- عن خباب بن الأرت- رضي الله عنه- أنه قال: قلت: يا رسول الله، كيف أستغفر؟ قال: "قل: اللهم اغفر لنا وارحمنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم"(٣).

٤- عن ثوبان- رضي الله عنه- قال: "كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إذا أراد أن ينصرف من صلاته: استغفر الله ثلاث مرات، ثم قال: "اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: الدعاء في الصلاة، حديث رقم: (٥٩٦٧).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والحديث صححه الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب، برقم: (١٦٢٣).
(٣) أخرجه النسائي في سننه الكبرى. وهو حديث حسن.

ذا الجلال والإكرام". قال أبو الوليد: فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ فقال: أن تقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله". [(١)].

٥- دعاؤه- صلى الله عليه وسلم- بين التشهد والتسليم، فعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- كان يدعو بهذا الدعاء: "رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي، وجهلي وهزلي،وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيءٍ قدير"[(٢)].

٦- عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أنه قال: "إنَّا كنَّا لنعد لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- في المجلس الواحد مائة مرةٍ: ربِّ اغفر لي، وتب عليَّ، إنك أنت التواب الرحيم"[(٣)].

٧- سيد الاستغفار: عن شداد بن أوس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي؛ فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ومن قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي؛ فهو من أهل الجنة. ومن قالها من الليل وهو موقنٌ بها فمات قبل أن يصبح؛ فهو من أهل الجنة" [(٤)].

ولنا وقفةٌ مع هذا الحديث الشريف الجامع من حيث:

(سبب تسميته بهذا الاسم، ثم شرحه وأهم الفوائد المستنبطة منه)، وفيما يلي بيان ذلك:

سبب تسميته بهذا الاسم (سيد الاستغفار):

إنه لمَّا كان هذا الدعاء جامعًا لمعاني التوبة كلها؛ استُعير له اسم السيد، وهو في الأصل الرئيس

(١) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة، وبيان صفته، حديث رقم: (٥٩٧٤)؛ وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة الصلاة، باب: ما يقول إذا سلم من الصلاة، حديث رقم: (٣٠٠).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: قول النبي- ﷺ-: اللهم...، حديث رقم: (٥٩٤٦).
(٣) أخرجه أبو داود (١٥١٦)؛ والترمذي (٣٤٣٠)؛ وصححه الألباني في: صحيح أبي داود، برقم: (١٣٢٦).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: أفضل الاستغفار، حديث رقم: (٥٩٤٧).

الذي يُقصد منه الجوائح، ويُرجع إليه في الأمور. وقد جمع هذا الحديث من بديع المعاني، وحسن الألفاظ ما يحق له به أن يُسمى: سيد الاستغفار، ففيه الإقرار لله تعالى وحده بالألوهية والعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به[(١)].

كما أن فيه ذكرًا لله تعالى بأكمل الأوصاف، وذكرًا للعبد نفسه بأنقص الحالات، وهي أقصى غاية التضرع، ونهاية الاستكانة لمن لا يستحقها إلا هو. وفيه أيضًا الاعتراف بالذنوب، وأنه من اعترف بذنبه، وندم عليها، وتاب توبةً نصوحًا؛ غُفر له[(٢)].

شرح الحديث، والفوائد المستنبطة منه:

١- "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت".

لقد اشتمل الحديث من المعارف الجليلة ما استحق لأجلها أن يكون سيد الاستغفار، فإنه صدره باعتراف العبد بربوبية الله تعالى، ثم ثناها بتوحيد الألوهية. فالحديث فيه الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛ فالاعتراف بربوبية الله- عزوجل-، وقيامه على عباده، وهي إفراد الله بالخلق والملك والتدبير، كما أن للإقرار له سبحانه بالألوهية أثرًا كبيرًا في مغفرة الذنوب، فقد توسَّل به نبي الله يونس- عليه السلام- وهو في بطن الحوت، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}(سورة الأنبياء: ٨٧).

٢- "خلقتني وأنا عبدك".

أي: أوجدتني من العدم، وأنا عبدك الذي تَجري عليَّ أقدارك، ولا حيلة لي في دفع قضائك، فأشرف شيء للإنسان أن يكون عبدًا لله؛ فلا انفكاك للعبد عن العبودية، وعبوية العبد لربه-

(١) فتح الباري، لابن حجر (١٠٠/١١).
(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني (١٧٦/٩).

تبارك وتعالى- شرفٌ عظيم، يستحق الشكر والحمد. فلسان حال المؤمن يقول دائمًا: كفاني عزًّا أن أكون لك عبدًا، وكفاني فخرًا أن تكون لي ربًّا.

وما أحسن قول القاضي عياض في هذا، إذ يقول[1]:

ومِمَّا زَادنِي شَرفًا وتِيهًـا وكِدتُ بأخْمُصِي أطأُ الثُّرَيَا

دُخُولِي تَحتَ قَولِكَ يَا عِبَادِي وأنْ صَيَّرتَ أحمدَ لي نَبيًّا

٣- "وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت".

أي: على العهد الذي عَهِدت به إلينا من الطاعات، ووجوب الكف عن المحرمات، وهو تعهدٌ بالإقامة على الشرع والدين، والاستقامة على أمره سبحانه.

٤- "أعوذ بك من شر ما صنعت".

بعد الثناء على الله تعالى بما هو أهله؛ يعلمنا النبي- صلى الله عليه وسلم- الدخول في الدعاء، والاستعاذة بالله تعالى من شرِّ ما يصنع المرء؛ لأنه لا عاصم مما يسخط الله من الشر والفساد إلا الله عز وجل.

٥- "أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي".

اعترافٌ بالنعمة من شكر الله، فالشكر يكون بثلاثةٍ: بالاعتراف بها باطنًا، والتحدُّث بها ظاهرًا، وتسخيرها في مرضاة مسديها، وكل نعمة هي من الله تعالى، كما أن الاعتراف بالذنب سبب لتكفيره، فما هو معروف أن معرفة الداء؛ بداية الدواء.

فعندما اعترف آدم وزوجه- عليهما السلام- بالذنب، ولم يجدا ملجأ من الله تعالى إلا إليه سبحانه؛ استغفرا ربهما، وتابا إليه، قال تعالى- حكايةً عنهما-: {قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (سورة الأعراف: ٢٣).

٦- "فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".

---

(١) انظر: غذاء الألباب على شرح منظومة الآداب (٢/٤٧٥).

وهذه العبارة من المصطفى- صلى الله عليه وسلم-، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، تشتمل على شقين، وهما:

الشق الأول: دعاءٌ بالمغفرة:

قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا} (سورة النساء: ١١٠).

والشق الثاني: اعترافٌ بأنه لا يغفر الذنبَ أحدٌ سوى الله- تبارك وتعالى-، فهو القادر القدير المقتدر، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول إليه المصير.

٧- أثر هذا الدعاء العظيم:

أنَّ مَن قالها موقنًا بها في ليلٍ أو نهارٍ؛ دخل الجنة.

❄❄❄❄❄❄❄❄❄

□المبحث الرابع

ويتضمن الوسيلة الرابعة: مداومة ذكر الله تعالى:

بدايةً أوضح أن هذه الوسيلة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالوسيلة السابقة (كثرة الاستغفار)؛ حيث إن الاستغفار يُعد ذكرًا لله تعالى، ولكننا آثرنا أن نفرده بالحديث؛ نظرًا لأهميته في تحقيق الافتقار الحقيقي لله تبارك وتعالى.

ومما لا شك فيه أن ذكر الله- تبارك وتعالى- يُعد من أعظم القُربات، التي يرتقي بها العبد المسلم إلى أعلى الدرجات، التي يرضى بها عنا ربُّ الأرض والسماوات.

يقول الله تعالى: {الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب} (سورة الرعد: ٢٨). فاطمئنان القلب يرتبط بذكر الله تعالى؛ لأن الذكر مفتاح الراحة والاطمئنان، وهو سرٌّ بين العبد وربه، وفيه يستشعر العبد قربه من ربه تعالى، ويزيد من روحانيته، ورقة قلبه، وشغل العبد لسانه بذكر الله تعالى؛ خير له من أن يشغله في الكلام العادي، الذي قد يكون من الغيبة والنميمة؛ بل خير له من مسألة الله تعالى؛ لما جاء عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: يقول الرب- عز وجل-: "مَن شغله القرآن والذكر عن مسألتي؛ أعطيته أفضل مما أُعطي السائلين"[(١)].

وفي هذا يقول ابن القيم: "والذكر أفضل من الدعاء، فالذكر ثناءٌ على الله- عز وجل- بجميل أوصافه، وآلائه، وأسمائه. والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا؟! "[(٢)].

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء كيف كانت قراءة النبي- ﷺ-، حديث رقم: (٢٩٢٦). قال الترمذي: حديث حسن غريب. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، حديث رقم: (١٣٣٥).
(٢) الوابل الصيب، لابن القيم (ص١٢٠).

وللذكر معنيان، وهما:

١- معنى عام: يشمل كل أنواع العبادات من صلاةٍ وصيامٍ وحجٍ وعمرة، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

٢- معنى خاص: وهو ذكر الله تعالى بالألفاظ التي وردت عن الله تعالى من تلاوة كتابه العزيز، أو الألفاظ التي وردت على لسان المصطفى- صلى الله عليه وسلم-، وفيها التوحيد، والتمجيد، والتنزيه، والتقديس لله رب العالمين.

وأعظم الذكر هو قراءة القرآن الكريم، وتلاوته، وترتيله، وجعل اللسان رطبًا به دائمًا، وهذا بالإجماع بين العلماء والفقهاء؛ لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى. قال سفيان الثوري: "سمعنا أن قراءة القراءة أفضلُ الذكر إذا عُمل به"(١).

ويؤيد هذا ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"(٢).

لقد جمع هذا الحديث أربعة فوائد من الاجتماع لقراءة القرآن الكريم، وتلاوته ومدارسته، وهي:

١- نزول السكينة عليهم، وهي الوقار والرحمة والطمأنينة.

٢- تشملهم الرحمة والمغفرة من الله تعالى.

٣- تحيط بهم ملائكة الرحمة.

٤- يُثني عليهم الله- تبارك وتعالى- في الملأ الأعلى فيمن عنده من الأنبياء، وكرام الملائكة.

فانظر- رعاك الله-، مَن منَّا لا يحرص على واحدةٍ من هذه الفوائد السابقة، فضلًا عن مجموعها، كيف وقد اجتمعت في علمٍ واحدٍ ميسرٍ، ومباركٍ؟!. وهو: القرآن الكريم، كتاب

---

(١) فقه الأدعية والأذكار، (٥٠/١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث رقم: (٤٨٧٣).

الله العزيز، المتعبَد بتلاوته.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

فِتلاوتِي روحٌ وَريحانٌ بِهَـا تَسمُو القلوبُ بعزَّةِ الرَّحْمنِ
وَتِلاوتِي تدعُ الفُؤادَ مُطمئنـًا رَحبَ البَسيطةِ ثابتَ الأَرْكَانِ
والحرفُ ينزلُ مِن سُلاسةِ لفظِه بَردًا سلامًا فِي الفُؤادِ العَانِي
يَمحُو الكَآبةَ والأسَى بجَمالِـه ويُعيدُ رُشدَ التَائهِ الحَيـرَانِ
يُعطِيكَ مِن أملِ الحَياةِ تفـَاؤُلًا ويُمدُ قَلبكَ طَاقةً وتَفانـِي

لكن ليس معنى هذا أن يقتصر المرء المسلم في ذكره لله تعالى على القرآن الكريم فقط؛ بل الأفضل أن يجمع المسلم بين أفاضل الأعمال كلها، والتي هي قراءة القرآن الكريم، والأذكار الأخرى من التسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير، إذا تمكن المسلم من ذلك، ولكن الذكر إن كان في مكانه؛ فهو أفضل من قراءة القرآن، مثل: ترديد الأذان خلف المؤذن، والأذكار الواردة بعد الصلوات الخمس، وغير ذلك.

وهنا يوضح ابن تيمية تفصيلًا في هذه المسألة، فيقول: "الشيء إذا كان أفضل من حيث الجملة، لم يجب أفضل في كل حال، ولا لكل أحد؛ بل المقصود في موضعه الذي شُرع فيه أفضل من الفاضل المطلق، كما أن التسبيح في الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن، ومن التهليل والتكبير، والتشهد في آخر الصلاة والدعاء بعده أفضل من قراءة القرآن"[(١)].

ويقول ابن عثيمين: "قد يعرض للمفضول ما يجعله أفضل من الفاضل، مثاله: القرآن أفضل الذكر. فلو كان رجل يقرأ وسمع المؤذن يؤذن، فهل الأفضل أن يستمر في قراءته، أو أن يجيب المؤذن، وإن كان القرآن أفضل من الذكر؛ لكن الذكر في مكانه أفضل من قراءة القرآن؛ لأن قراءة القرآن غير مقيدة بوقت، متى شئت فاقرأ؛ لكن إجابة المؤذن مربوطة بسماع المؤذن"[(٢)].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٣٦/٢٤).
(٢) لقاءات الباب المفتوح، لابن عثيمين.

وذكر الله- عز وجل- له شأنٌ عظيم في حياة العبد، فهو بمثابة الروح الموجودة في الجسد، وبدونها يكون جيفة، ويؤيد هذا ما جاء عن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت"(١).

وفي هذا يقول ابن القيم: "ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: *منزلة* الذِّكر، وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائمًا يترددون، والذِّكر منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلَّما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا؛ ازداد المذكور محبةً إلى لقائه واشتياقًا، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته" (٢).

وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تحثنا على ذكر الله تعالى، ومنها:

- **قوله تعالى: {فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون} (سورة البقرة: ١٥٢).**
- **وقوله تعالى: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار} (سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١).**
- **وقوله تعالى: {يا أيها الذين ءامنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا. وسبحوه بكرةً وأصيلًا} (سورة الأحزاب: ٤١-٤٢).**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله- عز وجل-، حديث رقم: (٦٠٤٤).
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٤٢٣/٢).

كما حذرنا ربنا- تبارك وتعالى- من الانشغال بالمال والولد عن ذكر الله، فقال تعالى: {يا أيها الذين ءامنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون} (سورة المنافقون: ٩).

كما أن قلة ذكر الله تعالى، تُعد صفةً من صفات المنافقين، **قال تعالى: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلًا} (سورة النساء: ١٤٢).**

وقد بيَّن لنا ربنا- سبحانه وتعالى- أن الغافلين عن ذكره، المتبعين لهواهم؛ أمرهم ضائع، وهم في خسرانٍ وهلاك، فالغفلة عن ذكر الله تعالى، واتباع الهوى، يطمسان نور القلب، **قال تعالى: {ولا تُطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا} (سورة الكهف: ٢٨).**

ومن أعرض عن ذكر الله تعالى؛ خسر الدنيا والآخرة، فدنياه ضنكًا، وآخرته عذابٌ أليم، **قال تعالى: {ومَن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيرًا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى} (سورة طه: ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦).**

وعند البحث في السنة النبوية؛ نجد أن النبي- صلى الله عليه وسلم- كان دائم الذكر لله تعالى، فعن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: "كان النبي- صلى الله عليه وسلم- يذكر اللهَ على كل أحيانه"[(١)].

هذا، وقد بيَّن لنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أنواعًا من الذكر، سهلةً في ألفاظها، عظيمةً في معانيها، ثقيلةً في ثوابها، ومن تلك الأذكار ما يلي:

١- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"[(٢)].

٢- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "من قال حين يُصبح

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الحيض، باب: كر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، حديث رقم: (٣٧٣).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح، حديث رقم: (٦٤٠٦)؛ وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم: (٤٨٦٦).

وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده، مائة مرة؛ لم يأت أحدٌ يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه"[١].

٣- عن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال لي: "ألا أدلك على كلمةٍ هي كنزٌ من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله"[٢].

٤- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس"[٣].

٥- جاء رجل إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال: إن شرائع الإسلام قد كثرت، فباب نتمسك به جامع، فقال- صلى الله عليه وسلم-: "لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله عز وجل" [٤].

٦- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يومٍ مائة مرة؛ كانت له عِدل عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان، يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك"[٥].

٧- عن مصعب بن سعد قال: حدثني أبي قال: كنا عند رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقال: "أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟ فسأله سائل من جلسائه: كيف

(١ أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم: (٤٨٦٤).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: الدعاء إذا علا عقبه، حديث رقم: (٦٣٨٤).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم: (٤٨٦٧).
(٤) أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات، باب: ما جاء في فضل الذكر، حديث رقم: (٣٣٧٥). وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.
والحديث صححه الألباني في: صحيح ابن ماجه، حديث رقم: (٣٧٩٣).
(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التهليل، حديث رقم: (٦٠٦٦).

يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: "يسبح مائة تسبيحة، فيُكتب له ألف حسنة، أو يُحط عنه ألف خطيئة"[١].

٨- عن أبي أيوب الأنصاري- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، عشر مرات؛ كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل"[٢].

٩- عن أبي ذر- رضي الله عنه- أن ناسًا من أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم- قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. فقال- صلى الله عليه وسلم-: "أوليس قد جعل الله ما تصدقون. إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له أجر"[٣].

ويقول ابن دقيق معلقًا على هذا الحديث: "وفي هذا الحديث فضيلة التسبيح، وسائر الأذكار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحضار النية في المباحات، وإنما تصير المباحات طاعات بالنيات الصادقات"[٤].

❄❄❄❄❄❄❄

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم: (٤٨٧٢).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٤)؛ وأخرجه مسلم (٢٦٩٣)؛ والنسائي في سننه الكبرى (٩٩٤١)؛ وأحمد في مسنده (٤٢٢/٥)؛ والبيهقي في الشعب (٥٩٥).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم: (١٠٠٦).
(٤) شرح الأربعين النووية، لابن دقيق العيد (٧٧).

فوائد الذكر:

إنه من المتفق عليه أن للذكر فوائدَ جمةً، أكبر وأرقى من أن تُحصى ولا تُعد، فلا يحيط بها علمًا إلا ربنا- تبارك وتعالى-، ويؤيد هذا ما جاء في دعاء النبي- صلى الله عليه وسلم-: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"[(١)].

وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه: (الوابل الصيب من الكلم الطيب) ثلاثًا وسبعين فائدةً من فوائد الذكر، وهي- بحقٍّ- يقف العقل عندها، ويطمئن القلب إليها، ويطيب اللسان بذكرها، وفيما يلي أذكرها مختصرةً في النقاط التالية[(٢)]:

١- أنه يطرد الشيطان، ويُقمعه، ويكسره.

٢- أنه يُرضي الرحمن (عز وجل).

٣- أنه يُزيل الهم والغم عن القلب.

٤- أنه يُجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

٥- أنه يُقوي القلب والبدن.

٦- أنه يُنور الوجه والقلب.

٧- أنه يجلب الرزق.

٨- أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

٩- أنه يُورث الذاكر المحبة.

١٠- أنه يُورث الذاكر المراقبة؛ حتى يُدخله في باب الإحسان.

١١- أنه يُورث الذاكر الإنابة، وهي الرجوع إلى الله تعالى.

١٢- أنه يُورث الذاكر القُرب من الله تعالى.

١٣- أنه يفتح للذاكر بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم: (٤٨٦)، من حديث أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها).

(٢) انظر في تلك الفوائد مبسوطة مع شواهدها في كتاب: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم.

١٤- أنه يُورث الذاكر الهيبة لربه (عز وجل).

١٥- أنه يورث الذاكر ذكر الله تعالى له.

١٦- أنه يورث الذاكر حياة القلب.

١٧- أنه قُوت القلب والروح.

١٨- أنه يورث الذاكر جلاء القلب من صداه.

١٩- انه يَحط الخطايا، ويُذهبها.

٢٠- أنه يُزيل الوحشة بين العبد وبين ربه (تبارك وتعالى).

٢١- أن ما يَذكر به العبد ربه- عز وجل- من جلاله وتسبيحه، وتحميده، يُذكِّر بصاحبه عند الشدة.

٢٢- أن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره في الرخاء؛ عرفه في الشدة.

٢٣- أنه يُنجي من عذاب الله تعالى.

٢٤- أنه سبب تنزيل السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر.

٢٥- أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة، والكذب والفحش، والباطل.

٢٦- أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، وأن مجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين.

٢٧- أن الذاكر يسعد بذكره، ويسعد به جليسه، وهذا هو المبارك أين ما كان. والغافل واللاغي يشقى بلغوه وغفلته، ويشقى به مُجالسه.

٢٨- أنه يُؤمِّن العبدَ من الحسرة يوم القيامة، فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى؛ كان عليه حسرةً وتِرةً يوم القيامة.

٢٩- أنه مع البكاء في الخلوة، سبب لإظلال الله تعالى العبد يوم الحَرِّ الأكبر في ظل عرشه.

٣٠- أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يُعطي السائلين.

٣١- أنه أيسر العبادات، وهو من أجلها وأفضلها، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها.

٣٢- أنه غِراس الجنة.

٣٣- أن العطاء والفضل الذي رُتب عليه، لم يُرتب على غيره من الأعمال.

٣٤- أن دوام ذكر الرب- تبارك وتعالى- يوجب الأمان من نسيانه، الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده.

٣٥- أن الذكر يُسيِّرُ العبدَ وهو قاعد على فراشه، وفي سوقه، وفي حال صحته وسقمه، وفي حال نعيمه ولذته، وليس شيءٌ يعم الأوقات والأحوال مثله.

٣٦- أن الذكر نورٌ للذاكر في الدنيا، ونورٌ له في قبره، ونورٌ له في معاده، يسعى بين يديه على الصراط، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى.

٣٧- أن الذكر رأس الأصول، وطريق عامة الطائفة، ومنشور الولاية، فمن فُتح له فيه؛ فقد فُتح له باب الدخول على الله (عز وجل).

٣٨- في القلب خلة وفاقة لا يسدها البتة إلا ذكر الله (عز وجل).

٣٩- أن الذكر يجمع المتفرق، ويُفرق المُجتمِع، ويُقرب البعيد، ويُبعد القريب، فيجمع ما تفرق على العبد من قلبه وإرادته، وهمومه وعُزومه، والعذاب كل العذاب في تفرقتها وتشتتها عليه، وانفراطها له، والحياة كل الحياة، والنعيم في اجتماع قلبه وهمه، وعزمه وإرادته.

٤٠- أن الذكر يُنبه القلب من نومه، ويُوقظه من سِنته، والقلب إذا كان نائمًا؛ فاتته الأرباح والمتاجر، وكان الغالب عليه الخسران.

٤١- أن الذكر شجرة تُثمر المعارف والأحوال التي شمَّر إليها السالكون؛ فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر.

٤٢- أن الذكر قريبٌ من مذكوره، ومذكور معه، وهذه المعية معيةٌ خاصة، غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية، والمحبة والنصرة والتوفيق.

٤٣- أن الذكر يعدل عتق الرقاب، ونفقة الأموال، والحمل على الخيل في سبيل الله- عز وجل-، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل الله (عز وجل).

٤٤- أن الذكر رأسُ الشكر، فما شكر الله تعالى مَن لم يذكره.

٤٥- أن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين، مَن لا يزال لسانه رطبًا بذكره؛ فإنه اتقاه في أمره ونهيه، وجعل ذكره شعاره.

٤٦- أن في القلب قسوةً لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر

الله تعالى.

٤٧- أن الذكر شفاء القلب ودواؤه، والغفلة مرضه، فالقلوب مريضة، وشفاؤها ودواؤها في ذكر الله تعالى.

٤٨- أن الذكر أصل موالاة الله- عز وجل- ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها.

٤٩- أنه ما استُجلبت نعم الله- عز وجل-، وما استُدفعت نِقمه بمثل ذكر الله تعالى، فالذكر جلَّابٌ للنعم، دافعٌ للنِقم.

٥٠- أن الذكر يوجب صلاة الله- عز وجل- وملائكته على الذاكر، ومَن صلى الله تعالى عليه وملائكته؛ فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز.

٥١- أن مَن شاء أن يسكن رياض الجنة في الدنيا؛ فليستوطن مجالس الذكر؛ فإنها رياض الجنة.

٥٢- أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلسٌ يُذكر الله تعالى فيه.

٥٣- أن الله- عز وجل- يُباهي بالذاكرين ملائكته.

٥٤- أن مُدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك.

٥٥- أن جميع الأعمال إنما شُرعت إقامةً لذكر الله تعالى، والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى.

٥٦- أن أفضل أهل كل عملٍ، أكثرهم فيه ذكرًا لله- عز وجل-، فأفضل الصُّوام أكثرهم ذكرًا لله- عز وجل- في صومهم، وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكرًا لله- عز وجل-، وهكذا في الصلاة والحج وسائر الأحوال.

٥٧- أن إدامة الذكر تنوب عن التطوعات، وتقوم مقامها، سواء كانت بدنية أو مالية، كحج التطوع وغيره.

٥٨- أن ذكر الله- عز وجل- من أكبر العون على طاعته؛ فإنه يُحببُّها إلى العبد، ويُسهلها عليه، ويُلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكُلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك.

٥٩- أن ذكر الله- عز وجل- يُسهل الصعب، ويُيسر العسير، ويُخفف المشاق، فما ذُكر الله- عز

وجل- على صعبٍ إلا هان، ولا على عسيرٍ إلا تيسر، ولا على مشقةٍ إلا خفت، ولا على شدةٍ إلا زالت، ولا على كُربةٍ إلا انفرجت، فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الغم والهم.

٦٠- أن ذكر الله- عز وجل- يُذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله- عز وجل-، إذ بحسب ذكره يجد الأمن، ويزول خوفه؛ حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه؛ حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف.

٦١- أن الذكر يُعطي الذاكر قوة؛ حتى إنه لَيفعل مع الذكر ما لا يُطيق فعله بدونه.

٦٢- أن عُمَّال الآخرة كلهم في مضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار، ولكن القترة والغبار يمنع مِن رؤية سبقهم، فإذا انجلى الغبار، وانكشف؛ رآهم الناس، وقد حازوا قصب السبق.

٦٣- أن الذكر سببٌ لتصديق الرب- عز وجل- عبده، فإنه أخبر عن الله تعالى بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، فإذا أخبر بها العبد صدقَّه ربه، ومَن صدَّقه الله تعالى لم يُحشر مع الكاذبين، ورُجِي له أن يُحشر مع الصادقين.

٦٤- أن دور الجنة تُبنى بالذكر، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر؛ أمسكت الملائكة عن البناء.

٦٥- أن الذكر سدٌّ بين العبد وبين جهنم، فإذا كانت له إلى جهنم طريقٌ من عمل من الأعمال؛ كان الذكر سدًّا في تلك الطريق، فإذا كان ذكرًا دائمًا كاملًا؛ كان سدًّا مُحكمًا لا منفذ فيه، وإلا فبحسبه!.

٦٦- أن الملائكة تستغفر للذاكر، كما تستغفر للتائب.

٦٧- أن الجبال والقفار تتباهى وتستبشر بمن يذكر الله- عز وجل- عليها.

٦٨- أن كثرة ذكر الله- عز وجل- أمان من النفاق، فإن المنافقين قليلو الذكر لله (عز وجل).

٦٩- أن للذكر من بين الأعمال لذةً لا يُشبهها شيء، فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر، والنعيم الذي يحصل لقلبه لكفى به، ولهذا سُميت مجالس الذكر: رياض الجنة.

٧٠- أن الذكر يكسو الوجه نضرةً في الدنيا، ونورًا في الآخرة، فالذاكرون أنضر الناس وجوهًا في الدنيا، وأنورهم في الآخرة.

٧١- أن في دوام الذكر في الطريق والبيت، والحضر والسفر، والبقاع، تكثيرًا لشهود العبد يوم القيامة.

٧٢- أن في الاشتغال بالذكر اشتغالًا عن الكلام الباطل من الغيبة واللغو، ومدح الناس وذمهم، وغير ذلك؛ فإن اللسان لا يسكت البتة، فإما لسان ذاكرٌ، وإما لسان لاغٍ، ولا بد من أحدهما.

٧٣- وهي التي بدأنا بذكرها، وأشرنا إليها إشارةً، فنذكرها ها هنا مبسوطة؛ لعظيم الفائدة بها، وحاجة كل أحد؛ بل ضرورته إليها، وهي: أن الشياطين قد احتوشت العبد، وهم أعداؤه، فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظًا، وأحاطوا به، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله- عز وجل-.

❄❄❄❄❄❄❄❄

المبحث الخامس

ويتضمن الوسيلة الخامسة: الإخلاص في العبادة مع وجل القلب

الإخلاص في اللغة: مصدر أخلص، يُخلص إخلاصًا، فهو مخلِص. يقال: أخلص في العمل، أي: تفانى فيه. وأخلصه النصيحة: أصفاها، ونقاها من الغش. وأخلص لله دينه: ترك الرياء فيه. وأخلص فلانًا: اختاره واختصه[(١)].

الإخلاص اصطلاحًا: له تعريفاتٌ كثيرة، ملخصها: إتقان العمل لله تعالى كأنك تراه، وهو ما يسمى بالإحسان، ويؤيده ما جاءفي حديث أمين الوحي جبريل- عليه السلام- عندما سأل النبي- صلى الله عليه وسلم- ما الإحسان؟ فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك"[(٢)].

والإخلاص يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنية، فمزية النية صحة العبادة، وتمييزها عن العادة، حيث إن الشيء الواحد يكون بالنية عبادة، وبدونها عادة، كالجلوس في المسجد بنية الاعتكاف عبادة، وبدونها- كقصد الاستراحة- يكون عادة، وكالغسل بنية شرعية كالطهارة من الجنابة، يكون عبادة، وبقصد النظافة يكون عادة؛ بل بالنية الصالحة تصير العادات عبادات، كالأكل والشرب والنوم بنية التقوى على طاعة الله تعالى، واللبس بنية ستر العورة، والتجمل في طاعة الله تعالى، وكالنكاح بقصد الإعفاف والتناسل كما أمر الله تعالى.

ومزية الإخلاص لذة المناجاة، ومضاعفة الثواب، وصفاء الباطن، وتنوير القلوب؛ حتى تكون على استعدادٍ للتأثر بالعبر والمواعظ، قال تعالى: {الله نزَّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله...} (سورة الزمر: ٢٣). وكفاه

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، (مادة: خ ل ص).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، حديث رقم: (٥٠)، وفي كتاب تفسير القرآن، برقم: (٤٤٩٩)؛ وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، حديث رقم: (٩).

شرفًا أن الله تعالى لا يمنحه إلا لأحبابه من عباده المؤمنين [(١)].

وعلى هذا، فإنه يجب على العبد المسلم أن يخلص عبادته لله رب العالمين، ولا يُشرك بعبادة ربه أحدًا.

ولكن إذا أراد العبد بعبادته شيئًا آخر؛ ففيه تفصيلٌ حسب الأقسام التالية:

القسم الأول: أن يؤيد التقرب إلى غير الله تعالى في هذه العبادة، ونيل الثناء عليها من المخلوقين؛ فهذا يحبط العمل، وهو من الشرك، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: قال الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه"[(٢)].

القسم الثاني: أن يقصد بها الوصول إلى غرض دنيوي، كالرئاسة والجاه والمال، دون التقرب بها إلى الله تعالى؛ فهذا عمله حابط لا يقربه إلى الله تعالى، وذلك **لقول الله تعالى:{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون" (سورة هود: ١٥-١٦).**

والفرق بين هذا والذي قبله، أن الأول قصد أن يثنى عليه من قِبَلِ أنه عابد لله تعالى، وأما هذا الثاني فلم يقصد أن يثنى عليه من قِبَل أنه عابد لله تعالى، ولا يهمه أن يثني الناس عليه بذلك.

القسم الثالث: أن يقصد بها التقرب إلى الله تعالى، والغرض الدنيوي الحاصل بها، مثل: أن يقصد مع نية التعبد لله تعالى بالطهارة تنشيط الجسم وتنظيفه، وبالصلاة تمرين الجسم وتحريكه، وبالصيام تخفيف الجسم وإزالة الفضلات، وبالحج مشاهدة المشاعر والحجاج، فهذا ينقص أجر الإخلاص، ولكن إن كان الأغلب نية التعبد؛ فقد فاته كمال الأجر، ولكن لا يضره ذلك باقتراف إثم أو وزر؛ **لقوله تعالى: {ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم...} (سورة البقرة: ١٩٨).**

---

(١) انظر: التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول- ﷺ-، للشيخ/ منصور علي ناصف، (١/٤٠-٤١).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم: (٢٩٨٥).

وإن كان الأغلب عليه نية غير التعبد؛ فليس له ثواب في الآخرة، وإنما ثوابه ما حصله في الدنيا، وأخشى أن يأثم بذلك؛ لأنه جعل العبادة التي هي أعلى الغايات وسيلة للدنيا الحقيرة، فهو كمن قال الله تعالى فيهم: {ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أُعطوا منها رضوا وإن لم يُعطوا منها إذاهم يسخطون} (سورة التوبة: ٥٨). فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رجلًا قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد وهو يريد عرضًا من عرض الدنيا. فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: "لا أجر له". فأعاد ثلاثًا، والنبي- صلى الله عليه وسلم- يقول: "لا أجر له" [(١)].

وإن تساوى عنده الأمران، فلم تغلب نية التعبد، ولا نية غير التعبد؛ فمحل نظر، والأقرب أنه لا ثواب له، كمن عمل لله تعالى ولغيره.

والفرق بين هذا القسم والذي قبله: أن غرض غير التعبد في القسم السابق حاصلٌ بالضرورة، فإرادته إرادة حاصلة بعمله بالضرورة،وكأنه أراد ما يقتضيه العمل من أمر الدنيا. فإن قيل: ما هو الميزان لكون مقصوده في هذا القسم أغلبه التعبد أو غير التعبد؟ قلنا: الميزان أنه إذا كان لا يهتم بما سوى العبادة حصل أم لم يحصل، فقد دل على أن الأغلب نية التعبد، والعكس بالعكس.

وعلى كل حال، فإن النية التي هي قول القلب أمرها عظيم، وشأنها خطير، فقد ترتقي بالعبد إلى درجة الصديقين، وقد ترده إلى أسفل السافلين، قال بعض السلف: ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص. نسأل الله تعالى الإخلاص في النية، والصلاح في العمل [(٢)].

وبناءً على ما سبق؛ فإنه ينبغي على العبد المسلم أن يضع نُصب عينيه **قول الحق- تبارك وتعالى-: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون} (سورة المؤمنون: ٦٠-٦١).**

---

(١)أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في من يغزو ويلتمس الدنيا، حديث رقم: (٢٥١٦)؛ وأخرجه أحمد في: باقي مسند المكثرين (٢/ ٣٦٦).

(٢) انظر: مجموع فتاوى محمد صالح العثيمين، المجلد الأول، باب العبادة.

فهذا مقام المشاهدة، وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله- عز وجل- بقلبه، وهو أن يتنور القلب بالإيمان، وتنفذ البصيرة في العرفان؛ حتى يصير الغيب كالعيان، فمن عبد الله- تبارك وتعالى- على استحضار قربه منه، وإقباله عليه، وأنه بين يديه كأنه يراه؛ أوجب له ذلك الخشية والخوف، والهيبة والتعظيم.

ويؤيد ذلك ما جاء عن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- أنها سألت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عن تفسير هذه الآية، فقالت: "يا رسول الله، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة. أهم الذين يسرقون ويشربون الخمر؟ فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات"[(١)].

فإذا اجتمع الإخلاص في العبادة مع وجل القلب عند العبد المسلم؛ فإنه حينئذٍ يكون قد وصل إلى معنى الافتقار الحقيقي، ومن أمثلة الافتقار في أداء العبادات: أن يطأطيء العبد رأسه بالركوع لله تعالى في الصلاة، ويؤكد ذلك ما جاء عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب- عز وجل-، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء؛ فقمن أن يستجاب لكم"[(٢)].

يقول النووي: "قوله- صلى الله عليه وسلم-: فأما الركوع فعظموا فيه الرب، أي: سبحوه ونزهوه ومجدوه، وقد ذكر مسلم بعد هذا الأذكار التي تقال في الركوع والسجود، واستحب الشافعي- رحمه الله تعالى- وغيره من العلماء أن يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، وفي سجوده: سبحان ربي الأعلى، ويكرر كل واحدة منهما ثلاث مرات"[(٣)].

كما جاء عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا قام إلى الصلاة قال: "وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، حديث رقم: (٣١٧٥).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، حديث رقم: (٤٧٩).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، حديث رقم: (٤٧٩).

اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمتُ نفسي واعترفت بذنبي؛ فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت. لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركتَ وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك. وإذا ركع قال: اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت. خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي. وإذا رفع قال: اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد. وإذا سجد قال: اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين. ثم يكون من آخرها ما يقول بين التشهد والتسليم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت" [1].

وتعليقًا على هذا الحديث: نلاحظ أن قوله: "لك ركعت" تأخير الفعل للاختصاص، والركوع: هو الميلان والخرور، وقد يُذكر ويُراد به الصلاة.

وقوله: "خشع لك سمعي" والمراد بالخشوع من هذه الأشياء هو الانقياد والطاعة؛ فيكون هذا من قبيل ذكر اللازم وإرادة الملزوم.

أما تخصيص السمع والبصر من بين الحواس؛ فلأنهما أعظم الحواس، وأكثرها فعلاً، وأقواها عملاً، وأمسها حاجة؛ ولأن أكثر الآفات بهما، فإذا خشعتا قَلَّت الوساوس.

وأما تخصيص المخ والعظم والعصب من بين سائر أجزاء البدن؛ فلأن ما في أقصى قعر البدن المخ، ثم العظم، ثم العصب؛ لأن المخ يمسكه العظم، والعظم يمسكه العصب، وسائر أجزاء البدن مركبة عليها، فإذا حصل الانقياد والطاعة، فهذه عمدة بنية الحيوان والإنسان، وأيضًا العصب خزانة الأرواح النفسانية، واللحم والشحم غادٍ ورائح، فإذا حصل الانقياد والطاعة من هذه؛ فمن الذي يتركب عليهما بطريق الأولى ومعنى انقياد السمع: قبول سماع الحق، والإعراض عن سماع الباطل، وأما انقياد البصر: النظر إلى كل ما ليس فيه حرمة، وأما

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل، حديث رقم: (٧٧١).

انقياد المخ والعظم والعصب: انقياد باطنه كانقياد ظاهره؛ لأن الباطن إذا لم يوافق الظاهر؛ لا يكون انقياد الظاهر مفيداً معتبراً، وانقياد الباطن عبارة عن تصفيته عن دنس الشرك والنفاق، وتزيينه بالإخلاص، والعلم والحكمة.

❄❄❄❄❄❄❄

وتتأكد حقيقة الوجل من عدم قبول العمل بعدة أمور، لعل من أبرزها ما يلي:

الأمر الأول:

أن الله- تبارك وتعالى- غنيٌّ عن الخلق أجمعين، حتى لو كفروا وأعرضوا عن الطاعة والعبادة، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، فلا ينفعه شكر الشاكرين، ولا حمد الحامدين، ولا صبر الصابرين، كما لا يضره كفر الكافرين، ولا حجود الجاحدين، ولا جزع الجازعين، فهو- تبارك وتعالى- كما قال في كتابه العزيز: {ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيًّا حميدًا} (سورة النساء: ١٣١).

وقال تعالى: {قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزامًا} (سورة الفرقان:٧٧).

أي: لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه، ويسبحوه بكرةً وأصيلًا... وأخبر الله- عز وجل- الكفار أنه لا حاجة له بهم، إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة؛ لحبب إليهم الإيمان، كما حببه إلى المؤمنين[١].

وهناك العديد من الآيات القرآنية التي توضح أن ربنا- تبارك وتعالى- غنيٌّ عن العالمين[٢].

وانظر معي في هذا الحديث القدسي العظيم: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا. يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته،

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الفرقان، الآية (٧٧).
(٢) ومنها: سورة إبراهيم (٨)، النمل (٤٠)، لقمان (١٢)، فاطر (١٥)، والزمر (٧).

فاستكسوني أكسكم. يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحد منكم؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد، فسألوني فأعطيتُ كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"[(١)].

يُعد هذا الحديث من الأحاديث عظيمة الشأن، حيث تضمن معاني جليلة، وقواعد عظيمة، تُربي في النفوس تعظيم الله- تبارك وتعالى-، ومراقبته، والخوف منه، ولذلك كان السلف يعظمون هذا الحديث غاية التعظيم، فقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول: "هو أشرف حديثٍ لأهل الشام". كما كان أبو إدريس الخولاني إذا حدَّث بهذا الحديث؛ جثى على ركبتيه تعظيمًا وإجلالًا.

ولعل من أبرز تلك المعاني التي تضمنها هذا الحديث ما يلي:

- تنزيه الله- عزوجل- عن الظلم، ونهي العباد أن يظلم بعضهم بعضًا.
- بيان افتقار العباد إلى الله تعالى في هدايتهم من الضلالة، وإطعامهم من الجوع، وكسوتهم من العري، ومغفرة الذنوب، وقد أمرهم ربهم- تبارك وتعالى- بطلب هذه الأمور منه وحده، ووعدهم بالإجابة، أي: ادعوني واطلبوا مني كما أمرتكم؛ فأستجيبُ لكم كما وعدتكم.
- أن العباد لا يقدرون أن ينفعوا الله تعالى أو يضروه، فالله- سبحانه وتعالى- هو الغني الحميد، فلا تزيده طاعة المطيع، ولا تنقصه معصية العاصي، وخزائنه سبحانه مملوءة لا تنفد أبدًا مع كثرة الإنفاق، فلو أن الخلق كانوا أتقياء ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، ولو سألوه فأعطى كل سائل منهم حاجته؛ ما نقص ذلك ما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، من حديث أبي ذر الغفاري- رضي الله عنه-، حديث رقم: (٢٥٧٧).

أُدخل البحر.

- أن الله- تبارك وتعالى- لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فمن عمل خيرًا فلنفسه، ومن أساء فعليها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ويندم على ما فرَّط، ولكنه- للأسف- يندم حين لا ينفع الندم.
- أن اليوم عملٌ بلا حساب، وغدًا حسابٌ بلا عمل، فعلينا الاستعداد ليومٍ تشخص فيه القلوب والأبصار.

الأمر الثاني:

أن الله- تبارك وتعالى- يتقبل أعمالنا، ويُثيبا عليها بكرمه وجوده وتفضله تعالى:

فلا بد للمرء المسلم من الاعتراف بأن فضل الله- تبارك وتعالى- عليه لا يُعد ولا يُحصى، وأن ما نقوم به من فعل الخيرات، هو من فضل الله علينا، حتى قيل في تفسير قوله تعالى:{اعملوا آل داود شكرًا وقليلٌ من عبادي الشكور} (سورة سبأ: ١٣) فقال داود: يا رب، كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني"[(١)].

يقول ابن القيم: "كلما شهدت حقيقة الربوبية، وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين؛ خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله"[(٢)].

لذا فلا يُغر أحد بعمله مهما كثر، ولا يعتقد أنه يدخل الجنة بعمله، ويؤيد ذلك ما جاء عن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل الجنة أحدًا عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة"[(٣)].

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٠١/٦).
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (١٧٦/١).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله، حديث رقم: (٢٨١٨).

وفي رواية عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "لن يُنجي أحدًا منكم عملُه. قال رجل: ولا إياك يا رسول الله؟ قال: ولا إياي إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، ولكن سددوا"[(١)].

ومعنى "سددوا": اقصدوا السداد واطلبوه، واعملوا به في الأمور كلها، وهو القصد فيها، فلا تفريط ولا إفراط.

قال ابن رجب: "السداد هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد، كالذي يرمي إلى غرضٍ فيصيبه" [(٢)].

ومعنى هذا أن المراد ب "سددوا " في الحديث هو: الأمر بتصحيح العقيدة، والنهي عن الشرك؛ لأن السداد ليس في القول والفعل فحسب؛ بل- أيضًا- في الاعتقاد، والأمر باستقامة المعتقد يستلزم النهي عن الشرك، وفي النهي عن الشرك يقول تعالى: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا...} (سورة النساء: ٣٦).

وفي "سددوا" نهي عن التشدد في الدين؛ لأن التشدد غلو، وديننا الحنيف أمرنا بالقصد، ونهانا عن المغالاة.

كما أن في "سددوا" أمر بالإخلاص في العمل، ونهي عن الرياء؛ لأن العمل كي يكون سديدًا صوابًا، فلا بد من إخلاص النية، وذلك بأن يقصد العبد المسلم بعبادته التقرب إلى ربه- تبارك وتعالى-، حيث قال تعالى: {وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين...} (سورة البينة: ٥).

أي: وما أُمروا في سائر الشرائع إلا ليعبدوا الله وحده، قاصدين بعبادتهم وجهه تعالى، مائلين عن الشرك إلى الإيمان. والأمر بإخلاص النية نهي عن الرياء؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار،عن أبي هريرة- رضي الله عنه-، حديث رقم: (٥١٦٥).
(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص٥١٢).
(٣) انظر: العدة في أصول الفقه، للقاضي أبي يعلى، (٣٦٨/٢).

وعن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- أنه قال: علَّمني رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: دعاءً أدعو به في صلاتي، قال: قل: "اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت؛ فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم"[(١)].

فهذا حديثٌ رفيع القدر، عظيم الشأن، فيه اعترافٌ من العبد إلى ربه تعالى بالتقصير بملابسته ما يستوجب العقوبة أو النقص، وأن الإنسان لا يعري عن التقصير ولو كان صِدِّيقًا. وفي قوله: "ظلمًا كثيرًا" تأكيد بالمصدر، ووصفه زيادة في التذلل والخضوع لله تبارك وتعالى[(٢)].

وفي الحديث دليلٌ على أن الواجب على العبد المسلم أن يكون على حذر من ربه تعالى في كل أحواله، حتى وإن كان من أهل الفضل والاجتهاد في العبادة، إذ كان الصدِّيق- رضي الله عنه- مع موضعه من الدين لم يسلم مما يحتاج إلى الاستغفار إلى ربه تعالى، فمن باب أولى مَن كان دونه[(٣)].

ومما يُستفاد من هذا الحديث الشريف ما يلي:

- حسن ترتيب الحديث، حيث قدَّم الاعتراف بالذنب، ثم الوحدانية، ثم سؤال المغفرة، فالاعتراف بذلك يكون أقرب إلى العفو والثناء على السيد بما هو أهله، وأرجى لقبول سؤاله.
- أن التوسل بظلم النفس بتقصيرها وضعفها، يُعد من التوسلات الجليلة التي ينبغي للعبد المؤمن الحرص عليها؛ لأن ربنا- تبارك وتعالى- يُحب ذلك.
- كما يجب على العبد المسلم أن يتوسل إلى ربه تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ولا يخفى بحسن الختام مقابلةً في السؤال، ف: "اغفر لي" مناسب "للغفور"، و"الرحيم" مناسب ل "وارحمني"، وهو مناسب لما أمرنا الله تعالى به في الدعاء بأسمائه الحسنى، حيث

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب: الدعاء قبل السلام، حديث رقم: (٨٣٤)؛ وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث رقم: (٢٧٠٥).
(٢) شرح الأدب المفرد (٣٨٥/٢).
(٣) الفتوحات الربانية (٦٠٩/١).

قال تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها...} (سورة الأعراف: ١٨١).

- أن هذا الحديث يُعد من جوامع الدعاء؛ لأن فيه الاعتراف بغاية التقصير، وطلب غاية الإنعام، فالمغفرة بستر الذنوب ومحوها، والرحمة إيصال الخيرات ، ففي الأول طلب الزحزحة عن النيران، وفي الثاني طلب دخول الجنان، وهذا بالطبع هو الفوز العظيم من عند الرحيم المنان، سبحانه وتعالى.

قال ابن حجر: "يقول ابن مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم- كلهم يخاف النفاق على نفسه. والصحابة الذين أدركهم ابن مليكة من أجلهم: عائشة، وأختها أسماء، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة، وعقبة بن الحارث، والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم. وقد أدرك جماعة من هؤلاء، كعلي بن طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك، فكأنه إجماعٌ، وذلك أن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم؛ بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى- رضي الله عنهم-"[(١)].

ويقول ابن رجب: "كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة؛ فيخرجه إلى النفاق الأكبر، كما تقدم أن دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة"[(٢)].

الأمر الثالث:

أن العبد لا يأمن على نفسه الفتنة مهما أخلص في العمل، وابتعد عن الرياء:

ينبغي على العبد المسلم أن يحرص دومًا على الإخلاص في العمل، وتنقيته من الرياء والنفاق، ثم يحذر الفتنة، وسوء الخاتمة، حيث إن العِبرة- كما هو معلوم- بالخواتيم.

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (١١٠/١).
(٢) فتح الباري، لابن رجب (١١٧/١).

فعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- أنه سمع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد، يصرفه حيث يشاء". ثم قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك"[(١)].

يقول النووي في شرحه لهذا الحديث: "فمعنى هذا الحديث أن الله- سبحانه وتعالى- متصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء، لا يمتنع عليه منها شيء، ولا يفوته ما أراده، كما لا يمتنع على الإنسان ما كان بين إصبعيه. فخاطب العرب بما يفهمونه، ومثله بالمعاني الحسية؛ تأكيدًا له في نفوسهم. فإن قيل: فقدرة الله تعالى واحدة، والإصبعان للتثنية. فالجواب: أن هذا مجاز واستعارة، فوقع التمثيل بحسب ما اعتادوا غير مقصود به التثنية والجمع"[(٢)].

وجديرٌ بالذكر أن الله- تبارك وتعالى- يعامل عباده بفضله تعالى لا بعدله، فيثبت الصالحين منهم على أعمالهم.

قال ابن القيم: "إنك إن تبيت نائمًا، وتصبح نادمًا، خيرٌ من أن يبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مدل، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءًا قاتلًا هو فيك لا تشعر"[(٣)].

وقال في وصف مشهد الذل والافتقار: "يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورةً تامة، وافتقارًا تامًّا إلى ربه ووليه، ومَن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها، وإنما تدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذي لا شيء فيه ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يُرغب في مثله.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، حديث رقم: (٢٦٥٤).
(٢) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم، حديث رقم: (٢٦٥٤).
(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (١٧٧/١).

وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبرٍ جديدٍ من صانعه وقيّمه، فحينئذٍ يستكثر في هذا المشهد ما منَّ ربه إليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلًا منه ولا كثيرًا، فأي خير ناله من الله استكثره على نفسه، وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها- ولو ساوت طاعات الثقلين- من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه، فإن الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله"[1].

ويكمل قائلًا: "فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور، وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه!. وما أنفع هذا المشهد، وأجداه عليه!. وذرة من هذا، ونَفَس منه أحب إلى الله من طاعاتٍ أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلبٌ قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلًا من الله"[2].

❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) المصدر السابق (٤٢٨/١- ٤٢٩).
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٤٢٩/١).

المبحث السادس

ويتضمن الوسيلة السادسة: خشية الله تعالى سرًا وعلانيةً:

بدايةً أوضح أن الخشية ليست بمعنى الخوف؛ حيث إن بينها وبين الخوف درجات، فهي أعلى من الخوف درجةً، وأخص منه.

فالخشية من الله تعالى هي بمثابة تألم القلب واحتراقه، وخوفه الشديد من ربه- تبارك وتعالى- بسبب توقع العذاب يوم القيامة. وإنما يخشى الله- عز وجل- مَن طالع حقيقة نفسه، وما انطوت عليه من النقائص والعيوب، ثم عرف قدر ربه- تبارك وتعالى-، وما يستحقه من الطاعة والعبادة والإجلال.

ولنا في رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أسوةٌ حسنة، حيث كان- صلى الله عليه وسلم- أعرفنا بالله تعالى، وأشدنا له خشية، فعن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: "ما رأيت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قط مستجمعًا ضاحكًا، حتى أرى لهواته، إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيمًا ريحًا عُرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك! فقال: "يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عُذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا"[(١)].

وكل مؤمن بالله تعالى، مستقر في قلبه خشية الله في الأصل، ولا يمكن خلو قلبه من ذلك، ولكن أهل الإيمان يتفاوتون في درجات الخوف والخشية، وهم على ثلاثة أقسام:

١- كامل الخوف: وهو من حمله الخوف على فعل الفرائض والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، واجتناب الشبهات. وهذه أعلى المراتب وأرفعها.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح والغيم، حديث رقم: (١٥٠٣).

٢- مقتصد الخوف: وهو من حمله على المحافظة على فعل الفرائض، وترك المحرمات، ولم يجتنب الشبهات والمكروهات.

٣- ناقص الخوف: وهو من قصر في فعل الفرائض، وارتكب المحرمات، وأسرف في الموبقات، والعياذ بالله. وهذه أقل المراتب.

ولخشية الله تعالى أسبابٌ توجبها، لعل من أبرزها ما يلي:

١- مداومة ذكر الله تعالى، حيث **قال تعالى: {إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم ءاياته زادتهم إيمانًا...} (سورة الأنفال: ٢).**

٢- التفكر في شدة غضب الله- تبارك وتعالى- وقوة انتقامه، **قال تعالى: {وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} (سورة هود: ١٠٢).**

٣- التفكر في الملكين اللذين وكلهما الله تعالى بكتابة الحسنات والسيئات، قال تعالى: **{إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} (سورة ق: ١٧-١٨).**

٤- التفكر في الموت وسكراته، **قال تعالى: {وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد} (سورة ق: ١٩).**

٥- التفكر في هول الموقف، وشدة الحساب يوم القيامة، **قال تعالى: {يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد} (سورة الحج: ١-٢).**

٦- التفكر في خطر الجوارح يوم القيامة، حيث تشهد على صاحبها في ارتكاب المعاصي، وتفضحه على رؤوس الخلائق، **قال تعالى: {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون} (سورة النور: ٢٤).**

وقال تعالى: {وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة...} (سورة فصلت: ٢١).

٧- التفكر في خطر سوء الخاتمة، حيث قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "فوالله إن أحدكم- أو الرجل- ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة؛ فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعما أهل النار؛ فيدخلها"[(١)].

وتدبر معي قول الحق- تبارك وتعالى-: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} (سورة الرحمن:٤٦).

اعلم أن "اللام في: لمن خاف، لام الملك، أي: يعطى من خاف ربه ويملك جنتين، ولا شبهة في أن من خاف مقام ربه جنس الخائفين لا خائف معين، فهو من صيغ العموم البدلي، بمنزلة قولك: وللخائف مقام ربه. وعليه فيجيء النظر في تأويل تثنية جنتان، فيجوز أن يكون المراد: جنسين من الجنات. وقد ذُكرت الجنات في القرآن الكريم بصيغة الجمع غير مرة. ويجوز أن تكون التثنية مستعملة كناية عن العدد، وهو استعمال موجود في الكلام الفصيح. وقيل: أريد جنتان لكل متَّقٍ تحفان بقصره في الجنة.

والمقام: أصله محل القيام، ومصدر ميمي للقيام، وعلى الوجهين يستعمل مجازًا في الحالة والتلبس، كقولك لمن تستجيره: هذا مقام العائذ بك. ويطلق على الشأن والعظمة، فإضافة مقام إلى ربه هنا إن كانت على اعتبار المقام للخائف فهو بمعنى الحال، وإضافته إلى ربه تشبه إضافة المصدر إلى المفعول، أي: مقامه من ربه، أي: بين يديه.

وإن كانت على اعتبار المقام لله تعالى، فهو بمعنى الشأن والعظمة، وإضافته كالإضافة إلى الفاعل، ويحتمل الوجهين **قوله تعالى" ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد" (سورة إبراهيم: ١٤)، وقوله تعالى: {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى} (سورة النازعات: ٤٠-٤١).** "[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: القدر، باب: في القدر، حديث رقم: (٦٢٢١)؛ وأخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، حديث رقم: (٤٧٨٧)، كلاهما عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-، واللفظ للبخاري.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ج٢٨/ ٢٦٥-٢٦٧) بتصرف.

وعلى هذا، فالخوف من الله تعالى هو السبيل للفوز بالنعيم في الدنيا، والفوز بالجنان في الآخرة.

ولكي يصل العبد المسلم إلى هذه الدرجة- الافتقار إلى الله تعالى- بصدق؛ لا بد أن يدرك قدرة الله عليه، فقد **قال تعالى: "وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون " (سورة الزمر: ٦٧).**

يقول صاحب التحرير والتنوير: "لما جرى الكلام على أن الله تعالى خلق كل شيء، وأن له مقاليد السماوات والأرض، وهو ملك عوالم الدنيا؛ ذيل ذلك بأن الذين كفروا بدليل وحدانيته هم الخاسرون، وانتقل الكلام هنا إلى عظمة ملك الله تعالى في العالم الأخروي الأبدي، وأن الذين كفروا بآيات الله الدالة على ملكوت الدنيا، قد خسوا بترك النظر، فلو اطلعوا على عظيم ملك الله في الآخرة؛ لقدروه حق قدره، فتكون الواو عاطفة في جملة (والأرض....) على جملة (له مقاليد...)، ويكون قوله: "وما قدرو الله..." معترضًا بين الجملتين، اقتضاها التناسب مع جملة (والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون"[(١)].

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "يطوي الله- عز وجل- السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟"[(٢)].

وهنا لا بد من بيان أن إطلاق اليدين لله تعالى، فمتأول على القدرة، وكنَّى عن ذلك باليدين؛ لأن أفعالنا تقع باليدين، فخوطبنا بما نفهمه؛ ليكون أوكد وأوضح في النفوس، وذكر اليمين والشمال حتى يتم المثال؛ لأنا نتاول باليمين ما نكرمه، وبالشمال ما دونه، ولأن اليمين في حقنا يقوى لما لا يقوى له الشمال، ومعلوم أن السماوات أعظم من الأرض؛ فأضافها إلى اليمين، والأرضين إلى الشمال؛ ليظهر التقريب في الاستعارة، وإن كان الله- سبحانه وتعالى- لا يوصف

(١) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (ج٢٥/٦١- ٦٢).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، حديث رقم: (٦٩٧٧)؛ وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، حديث رقم: (٢٧٨٨).

بأن شيئًا أخف عليه من شيء، ولا أثقل من شيء [(١)].

ويقول الفضيل بن عياض: "إن رهبة العبد من الله، تكون على قدر علمه بالله"[(٢)].

وعلى هذا، فإن العلماء هم أكثر العباد خشيةً لله تعالى، **مصداقًا لقوله تعالى: {إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ} (سورة فاطر: ٢٨).**

وعند النظر في هذه الآية الكريمة؛ نجد أن الفاعل في الآية: العلماء، فهم أهل الخشية والخوف من الله تعالى، ولفظ الجلالة "الله": مفعول به مقدم، وفائدته: حصر الفاعلية، أي: إن الله- عز وجل- لا يخشاه حق الخشية إلا العلماء الذين علموا، وعملوا بما علموا، فأولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب، وإلا فكل مؤمن يخشى الله تعالى، ولكن العلماء أشد خشيةً لما حصل في قلوبهم من الخير العظيم، والخشية التي حملتهم على أن علموا الناس الخير، وعملوا به، وصدقوا أقوالهم بأعمالهم، وحملتهم خشيتهم لله تعالى على فعل الخيرات على اختلاف أنواعها، وترك المنكرات بجميع صنوفها.

وهنا لا بد من بيان أن هناك من العلماء من يخشون غير الله، فالمقصود من الآية هم العلماء الربانيون، العالمون العاملون.

ولذا يقول ابن تيمية عن هذه الآية: "وهذا يدل على أن كل من خشي اللهَ فهو عالم. وهو حق، ولا يدل على أن كل عالم يخشاه"[(٣)].

ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: "إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم، والعلم به أكمل؛ كانت الخشية له أعظم وأكثر. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}. قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية

---

(١) فتح المنعم بشرح صحيح مسلم، موسى لاشين، في شرحه للحديث رقم: (٢٧٨٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤٢٦/٨).
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٥٣٩/٧).

الله- عز وجل-. وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه. وقال سفيان الثوري عن أبي حيان التيمي عن رجل قال: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله، عالم بأمر الله. وعالم بالله، ليس بعالم بأمر الله. وعالم بأمر الله، ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله تعالى، ويعلم الحدود والفرائض. والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله، ولا يعلم الحدود ولا الفرائض. والعالم بأمر الله ليس العالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله عز وجل"[(١)].

وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تحدثنا عن قدرة الله- تبارك وتعالى-، فعلى العبد المسلم أن يعرفها ويقرأها؛ بل إن استطاع أن يحفظها؛ فلا يتردد ولا يتأخر، فهي تساعد العبد في الإقبال على الله تعالى، خاصةً عندما يعلم العبد أن ربه- تبارك وتعالى- ذو الملك والملكوت، والقدرة والجبروت، وأمره بين الكاف والنون، فإذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، ورغم هذا فإنه تعالى ربٌّ رحيم، ودودٌ مجيد، يعامل عباده بفضله لا بعدله، فرحمته- تبارك وتعالى- سبقت غضبه.

ولعل من أبرز الآيات القرآنية التي تحدثنا عن قدرة الله تعالى، **قوله تعالى: { اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } (سورة البقرة ٢٥٥).**

وقوله تعالى: {**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**}(سورة الأنعام ٥٩: ٦٢).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/٧٢٩).

وقوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون} (سورة يس: ٨٢-٨٣).

والعلاقة بين الخوف من الله- تبارك وتعالى-، والخشوع له سبحانه، علاقة طردية، فكلما زاد الخوف؛ زاد الخشوع، والعكس صحيح.

لذا ينبغي للعبد المؤمن أن يكون دائم الخشوع لله تعالى، ولكن ما المراد بالخشوع؟

والإجابة نجدها عند ابن القيم، حيث إنه يعرف الخشوع بأنه: "خشوع القلب لله تعالى بالتعظيم، والإجلال، والوقار، والمهابة، والحياء، فينكسر القلب لله كسرةً ملتئمةً من الوجل، والخجل، والحب، والحياء، وشهود نعم الله، وجناياته هو؛ فيخشع القلب لا محالة؛ فيتبعه خشوع الجوارح"[(١)].

ويقول في موضعٍ آخر: "ومن كملت عظمة الحق تعالى في قلبه؛ عظمت عنده مخالفته؛ لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه، ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونفس، وشدة حاجتها إليه؛ عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونفس، فإذا عرف حقارتها- مع عظم قدر من خالفه-؛ عظمت الجناية عنده، فشمر في التخلص منها، وبحسب تصديقه بالوعيد، ويقينه به؛ يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به"[(٢)].

❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) الروح، لابن القيم (ص:٢٣٢).
(٢) مدارج السالكين (١/١٤٤- ١٤٥).

ولخشية الله- تبارك وتعالى- مظاهر كثيرة، يمكننا إيجازها فيما يلي:

١- تقوى الله تعالى في السر والعلن:

فالتقوى كما يفسرها ابن المعتز بقوله:

خَلِّ الذُّنوبَ كَبِيرهـَا وصَغِيرهَا ذَاكَ التُّقـَى

واصْنعْ كَمَاشٍ فَـوقَ أر ضِ الشَّـوكِ يَحْذَرُ مَا يرَى

لَا تَحقِرنَّ صَغِيـرةً إنَّ الجِبالَ مِن الحَصـَى

وأصل التقوى هي أن تجعل بينك وبين عذاب ربك- تبارك وتعالى- وقايةً، وهذا لا يكون إلا باستحضار عظمته تعالى، والخوف منه، ومن عقابه، واجتناب محارمه ونواهيه، وفعل أوامره، والاجتهاد في العبادات والقربات، **قال تعالى: {يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} (سورة آل عمران: ١٠٢).**

وعندما سئل الإمام علي- رضي الله عنه- عن التقوى؛ قال: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

فالتقوى هي الخوف من الله تعالى، والعمل بكتاب الله تعالى، والرضا بقضاء الله تعالى في السراء والضراء، وفي العسر واليسر، والاستعداد ليومٍ آتٍ لا ريب فيه، يوم تصعد فيه الروح إلى بارئها، يوم فيه حساب بلا عمل، يوم توفى فيه كل نفس ما كسبت، يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئًا والأمر يومئذٍ لله.

وما أجمل ما قاله عمر بن عبد العزيز: "ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رُزق بعد ذلك خيرًا؛ فهو خيرٌ إلى خيرٍ".

٢- محاسبة النفس في كل صغيرةٍ وكبيرة:

فمن حاسب نفسه؛ أدرك خطأه، ومن أدرك خطأه، واستشعر عظمة ربه؛ أقبل على التوبة والندم على فعله، وعزم على ألا يعود إلى خطئه مرةً أخرى، وبهذا فيكون قد هُدي إلى صراط مستقيم.

ولا بد للعبد أن يضع نصب عينيه **قول ربه تعالى: {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} (سورة ق: ١٦).**

وتأمل معي ما جاء عن أبي برزة نضلة بن عبيد الأسلمي- رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه فيم فعل؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه"[(١)].

فهذا الحديث يرشدنا إلى أن حساب يوم القيامة يدعونا إلى حساب أنفسنا؛ للإجابة عن هذه الأسئلة، فإنه مَن حاسب نفسه اليوم؛ هان عليه الحساب غدًا.

ويؤيد هذا ما جاء عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تُحاسبوا أنفسكم، وتزينوا للعرض الأكبر {يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية} (سورة الحاقة: ١٨)"[(٢)].

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص، حديث رقم: (٢٤١٧). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (٩٤٦)؛ وفي صحيح الجامع، برقم: (٧٣٠٠).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٢٠)؛ وابن أبي شيبة في المصنف (٩٦/٧) برقم: (٣٤٤٥٩)؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥٢/١).
وعلقه الترمذي، فقال: يُروى عن عمر (٦٣٨/٤).

ويقول الحسن البصري: "إن المؤمن قوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله- عز وجل-، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قومٍ أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة"[(١)].

فلا بد للعبد المؤمن أن يحاسب نفسه على كل صغيرةٍ وكبيرةٍ، وأن يغتنم يومه قبل غده، وغناه قبل فقره، وصحته قبل مرضه، وشبابه قبل هرمه، وفراغه قبل شغله، وحياته قبل موته. فقد **قال تعالى: {واتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفى كل نفس ما كسبت وهو لا يُظلمون} (سورة البقرة: ٢٨١).**

٣- البكاء من خشية الله تعالى:

ليس معنى البكاء هو الحزن والغم، فديننا لم يأمرنا بالبكاء والحزن؛ بل أمرنا بالسعادة والفرح في ظل طاعة الله تعالى، فمن ذاق حلاوة الإيمان؛ وجد في قلبه سعادة لو وُزعت على الدنيا لكفتها وزادت.

ولكن المقصود هنا هو بكاء الخشية، الذي هو بين الخوف والرجاء، بين الحب للمعبود وشعور العبد بالتقصير تجاه معبوده، هو بكاء الفرح بالجلوس في حضرة الله تعالى، وخاصةً إذا جلس العبد وحده بعيدًا عن الناس، وذكر ربه- تبارك وتعالى-؛ ففاضت عيناه، فهو عندئذ يكون من السبعة الذين يُظلهم الله تعالى في ظله، يوم لا ظل إلا ظله.

فالعبد المسلم إذا نقَّى قلبه من النفاق والرياء، والحقد والحسد، وملأه بحب الله تعالى وخشيته، والخوف من عقابه وغضبه؛ ارتقى لدرجةٍ عالية، ألا وهي ذوق حلاوة الإيمان، وما أحلى مذاقتها! فعندئذٍ يجد نفسه رقيقًا خاشعًا، لا يقرأ آيةً من كتاب الله- أو يسمعها- إلا أثرت فيه تأثيرًا جليًا، مصداقًا **لقول الله تعالى: {الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء...} (سورة الزمر: ٢٣).**

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (ص١٠٣)؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٥٧/٢).

وما يكون من هؤلاء الذين هداهم الله إلا أن يخروا لربهم سجدًا، باكين من خشية ربهم، فرحين بما اصطفاهم به ربهم من فضلٍ وهداية، متساءلين: كيف نشكرك ربنا وشكرنا لك فضلٌ منك علينا؟! فما يكون منهم إلا السجود بخشوع، مصداقًا **لقوله تعالى: {ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا} (سورة الإسراء: ١٠٩).**

وعند النظر في سيرة المصطفى- صلى الله عليه وسلم- نجده أتقانا لله تعالى، وأكثرنا خشية، وأشدنا بكاءً، فكان- صلى الله عليه وسلم- يقول عن نفسه: "أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له"[(١)].

ورغم ذلك كان النبي- صلى الله عليه وسلم- يصلي حتى تتورم قدماه، وكان يُسمع له بكاءٌ في صلاته من خشيته لربه تعالى، مع أن ربه- تبارك وتعالى- غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فعن عبد الله بن الخير- رضي الله عنه- أنه قال: أتيت رسولَ الله- صلى الله عليه وسلم- وهو يصلي ولجوفه أزير كأزير المرجل من البكاء"[(٢)].

(أي: صوت كأزير المرجل، وهو القدر إذا على وارتفع. وأزير المرجل: صوت غليانه. وقيل: المرجل: القدر من الحديد).

فهذا رسول الله- صلى الله صلى الله عليه وسلم-، وهو الأسوة الحسنة، يبكي في صلاته، بصوتٍ كأزير المرجل من خشية الله تعالى.

فما آن لنا- معشر المسلمين- أن تخشع قلوبنا لذكر ربنا- تبارك وتعالى-؟! فقد قال تعالى: {ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق...} (سورة الحديد: ١٦).

❄❄❄❄❄❄❄

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، من حديث أنس- رضي الله عنه-، حديث رقم: (٤٧٧٦).
(٢) أخرجه أبو داود، في سننه، برقم: (٩٠٤) بإسنادٍ صحيح.

وللخشية من الله- تبارك وتعالى- ثمارٌ كثيرةٌ، لعل من أبرزها ما يلي:

١- إن من خشي الله تعالى، وخاف من عقابه، وحرص على طاعته؛ وصل إلى درجة الصدق في العبادة، وذاق طعم الإيمان وحلاوته، وفاز بنعيم الدنيا وثواب الآخرة، فيكون في حياته شريفًا عفيفًا، محبوبًا بين الناس، رفيع القدر، طيب السمعة، فاعلًا للخيرات، مجتنبًا الموبقات والشبهات.

ولنضرب هنا مثالًا لحفظ الله- تبارك وتعالى- لمن خشيه بالغيب، واستحى أن يراه الله تعالى على معصية: قيل لأبي بكر المسكي: يا أبا بكر، إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام، فما سببها؟

فقال: والله، لي سنين عديدة لم أستعمل المسك، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليَّ حتى أدخلتني دارها، وأغلقت دوني الأبواب، وراودتني عن نفسي، فتحيرت في أمري، فضاقت بي الحيل، فقلتُ لها: إن لي حاجة إلى الطهارة؛ فأمرتْ جارية لها أن تمضي بي إلى بيت الراحة ففعلت، فلما دخلتُ بيت الراحة أخذتُ العذرة وألقيتُها على جسمي، ثم رجعتُ إليها وأنا على تلك الحال، فلما رأتني دهشت، ثم أمرتْ بإخراجي، فمضيتُ واغتسلتُ، فلما كانت تلك الليلة رأيتُ في المنام قائلًا يقول لي: فعلتَ ما لم يفعله أحد غيرك؛ لأطيبنَّ رحيلك في الدنيا والآخرة، فأصبحتُ والمسك يفوح مني، واستمر ذلك إلى الآن"[(١)].

٢- أن من خشي الله تعالى في الدنيا، وخاف من عقابه؛ أمَّنه الله تعالى يوم القيامة، وأظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ويؤيد هذا ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه"[(٢)].

---

(١) انظر: الجزاء من جنس العمل، لسيد بن حسين العفاني، (١٢٨/٢).
(٢) سبق تخريجه.

٣- أن من خشي الله تعالى في الدنيا؛ نجاه الله تعالى من عذاب النار يوم القيامة، ويؤيد هذا ما جاء أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "لا يلج النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم"[(١)].

وأختمُ بما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة" [(٢)].

ومعنى هذا الحديث يتلخص في الآتي:

خاف: أي: خاف البيات والإغارة من العدو وقت السحر.

أدلج: بالتخفيف من سار أول الليل، وبالتشديد من آخره.

ومن أدلج بلغ المنزل: لأنه إذا سار في أول الليل فهذا يدل على اهتمامه في المسير، وأنه جاد فيه، ومن كان كذلك بلغ المنزل لا محالة.

المنزل: المطلب.

والسلعة: هي التي يعرضها الإنسان للبيع، والجنة قد عرضها ربنا- تبارك وتعالى- لعباده المؤمنين ليشتروها، مصداقًا لقوله تعالى: {إن اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم} (سورة التوبة: ١١١).

فهذا مَثل ضربه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لسالك الآخرة، فإن الشيطان على طريقه، والنفس وأمانيه الكاذبة أعوانه، فإن تيقظ في مسيره، وأخلص النية في عمله؛ أمن من

---

(١) أخرجه الترمذي، برقم: (١٦٣٣)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله- ﷺ-، باب: ما جاء في صفة أواني الحوض، حديث رقم: (٢٤٥٠). وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

الشيطان وكيده. ومن قطع الطريق بأعوانه، ثم أرشد إلى أن سلوك طريق الآخرة صعب، وتحصيل الآخرة متعسر، لا يحصل بأدنى سعي، فقال: "ألا" بالتخفيف للتنبيه. "إن سلعة الله غالية" أي: من متاعه من نعيم الجنة، غالية: رفيعة القدر، أي: ثمنها الافتقار إلى الله تعالى بصدق، والمحافظة على الأعمال الباقية الصالحة المشار إليها بقول الحق- **تبارك وتعالى-: {والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ أملًا} (سورة الكهف: ٤٦).**

فمن خاف النار، وخاف غضب الله تعالى؛ جدَّ في الطلب، واستقام واستمر في استقامته حتى يلقى ربه تعالى. ثم إن سلعة الله غالية، وهي جديرة بأن يعمل العبد المؤمن ويجتهد ويصبر ويواصل السير حتى يدرك هذه السلعة العظيمة، ألا وهي الجنة، فالجنة هي الثمن العظيم لمن جدَّ واجتهد، وصابر وصبر، واتقى واعتبر، فالعبد الذي يكون هذه حاله؛ يكون عبدًا قد باع نفسه على الله تعالى، وسلمها لله تعالى في جهادها في طاعته، واستعمالها في مرضاته، وكفَّها عن محارمه، فهو عبد يرجو رحمة ربه تعالى، يريد اجتياز الاختبار، وعبور الجسر؛ للانتقال من دار المفر إلى دار المقر، في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، أعدها الله تعالى لعباده المتقين الخاشعين.

يقول ابن القيم:

يَا سِلعةَ الرَّحمنِ لستِ رَخيصةً ... بَلْ أنتِ غاليةٌ عَلى الكَسلانِ

يَا سِلعةَ الرَّحمنِ ليسَ يَنالُها ... بالألفِ إلَّا وَاحدٌ لا اثنَـــانِ

يَا سِلعةَ الرَّحمنِ مَاذا كفوهَا ... إلَّا أولُوا التَّقوَى مَع الإيمـــانِ

❄❄❄❄❄❄❄

المبحث السابع

ويتضمن الوسيلة السابعة: تعظيم حرمات الله تعالى، وشعائره:

قال تعالى: {ذلك ومن يُعظم حرمات اللهِ فهو خيرٌ له عند ربه.....} (سورة الحج: ٣٠).

إن المقصود بحرمات الله: هي كل ما حرمه الله تعالى من الصغائر والكبائر، كالنظر والاختلاط، والتبرج المحرم، ومثله: الزنا، والربا، والرشوة، والظلم، والسرقة، والغيبة، والنميمة، ونقض ما أمر الله تعالى بالوفاء به، وقطع ما أمر الله تعالى به أن يوصل، فهو لفظٌ عام، تدخل فيه المعاصي على اختلاف أنواعها وأشكالها.

وقال تعالى: {ذلك ومن يُعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب} (سورة الحج: ٣٢).

إن المقصود بشعائر الله: هي أوامره ونواهيه، وتعظيمها يكون بفعل ما أمر الله تعالى به، وترك ما نهى عنه، وبإجلالها بالقلب ومحبتها، وتكميل العبودية فيها غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متثاقل. وشعائر الله هي أعلام دينه الظاهرة التي أمر بتعظيمها، ومن أخصها: بيت الله الحرام، ومناسك الحج.

وبهذا يكون معنى الآية: ذلك ما أمر الله- عز وجل- به من توحيده وإخلاص العبادة له. ومن يمتثل أمر الله تعالى، ويُعظم معالم الدين- ومنها أعمال الحج وأماكنه والذبائح التي تُذبح فيه وذلك باستحسانها واستسمانها-، فهذا التعظيم من أفعال أصحاب القلوب المتصفة بتقوى الله تعالى وخشيته. والمقصود من "فإنها من تقوى القلوب". أي: فإنها من وجل القلوب من خشية الله تعالى، وحقيقة معرفتها بعظمته تعالى، وإخلاص توحيده.

وهنا لنا وقفة مع ما جاء عن النعمان بن بشير- رضي الله عنهما- أنه قال: سمعت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول: "إن الحلال بيّنٌ، وإن الحرام بيّنٌ، وبينهما أمورٌ مشتبهات، لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات؛ استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات؛ وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حمى، ألا وإن حمى

الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[(١)].

يُعد هذا الحديث من الأحاديث الجامعة، عظيمة القدر، رفيعة الشأن، حيث يقول الكرماني: "أجمع العلماء على عِظَم موقع هذا الحديث، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام"[(٢)].

ويقول النووي في شرحه لهذا الحديث: "الأشياء ثلاثة أقسام: حلال بيّن واضح لا يخفى حله، كالخبز والفواكه والزيت والعسل. وحرام بيّن، كالخمر والخنزير والميتة والبول والدم المسفوح، والمشتبهات غير الواضحة الحل والحرمة، فلهذا قال: "لا يعلمهن" أي: لا يعلم حكمها كثيرٌ من الناس، أما العلماء فيعرفون حكمها بنصٍّ، أو قياسٍ، أو استصحابٍ، أو غير ذلك"[(٣)].

وهذا الحديث- بالطبع- له فوائد جمة، لعل من أبرزها ما يلي:

١- أن ديننا الإسلامي حلاله بيّن، وحرامه بيّن، وهناك المشتبه الذي لا يعلمه إلا أولو العلم؛ لما فيه من عدم الوضوح للعامة.
٢- أنه ينبغي على العبد المسلم أن يبتعد عن الشبهات ما ظهر منها وما بطن- قدر المستطاع-؛ سلامةً لدينه من الإثم، وعرضه من الذم.
٣- أن الحديث فيه حثٌّ على سد الذرائع إلى المحرمات.
٤- الإشارة إلى عِظَم قدر القلب، والحث على إصلاحه؛ فهو قائد البدن ومرشده، فبصلاحه يصلح البدن، وبفساد يفسد البدن.
٥- إن الحديث فيه التنبيه على صلاح المطعم والمشرب والملبس، وغيرها، وأنه ينبغي أن يكون حلالًا.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم: (٥٢)؛ وأخرجه مسلم في كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم: (١٥٩٩). كلاهما من حديث النعمان بن بشير، واللفظ للبخاري.
(٢) شرح الكرماني على صحيح البخاري، (٢٠٣/١).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، (٢٣/١١)، حديث رقم: (١٥٩٩).

يقول ابن تيمية: "فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد فيه من شيئين، وهما:

الأول: تصديق بالقلب، وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا: قول القلب. قال الجنيد بن محمد: التوحيد: قول القلب، والتوكل: عمل القلب، فلا بد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، ولا بد فيه من عمل القلب، مثل: حب الله ورسوله، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله، وجعلها من الإيمان.

الثاني: ثم القلب، هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة؛ سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[(١)].

فينبغي على العبد المسلم أن يُعظم حرمات الله تعالى، وهذا لا يتحقق إلا باستقامة القلب، واستقامة القلب لا تتحقق- كما يقول ابن القيم- إلا بشيئين اثنين، حيث يقول[(٢)]:

"إن استقامة القلب تكون بشيئين، هما:

الأول: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب.

الثاني: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشيء عن تعظيم الآمر والناهي، فإن الله تعالى ذمَّ من لا يُعظمه، ولا يُعظم أمره ونهيه، قال تعالى: {ما لكم لا ترجون لله وقارًا} (سورة نوح: ١٣). قالوا في تفسيرها: ما لكم لا ترجون لله تعالى عظمةً... ثم قال ابن القيم: فعلامة التعظيم للأوامر:

١- رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها، وواجباتها، وكمالها،.
٢- والحرص على تحسينها وفعلها في أوقاتها، والمساعدة إليها عند وجوبها.
٣- والحزن والكآبة والأسف من فوت حقٍّ من حقوقها...

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٨٦/٧).
(٢) انظر: الوابل الصيب (ص ٢٤: ٣٩) بتصرف.

وعلامة تعظيم المناهي:

١- الحرص على التباعد عن مظانها وأسبابها، وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب إليها.

٢- أن يغضب لله- عز وجل- إذا انتُهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزنًا وكسرًا إذا عُصي الله تعالى في أرضه، ولم يُطع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك.

٣- أن لا يسترسل مع الرخصة إلى حدٍّ يكون فيه جافيًا غير مستقيم على المنهج.

٤- أن لا يحمل الأمر على علة تُضعف الانقياد والتسليم لأمر الله- عز وجل-؛ بل يسلم لأمر الله تعالى، وحكمه، ممتثلًا ما أمر به، سواء ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه، أو لم تظهر[١].

5- ❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) انظر: الوابل الصيب (ص ٢٤: ٣٩) بتصرف.

المبحث الثامن

ويتضمن الوسيلة الثامنة: الالتزام بخُلق التواضع:

بدايةً أوضح أن أصل التواضع في اللغة: من الضعة، وهي الذل والهوان، والمراد هنا: الامتثال والخضوع والخشوع لله تعالى، ولين الجانب للعباد، وقبول الحق ممن قاله أيًّا كان.

والتواضع خُلقٌ من الأخلاق المثالية، وصفةٌ من الصفات العالية، فالمرء المسلم متواضعٌ في غير ذلةٍ ولا مهانةٍ.

والتواضع صفة العبد الطائع، الذي يعرف أن الكبر من صفات الله تعالى وحده، فهو- سبحانه الجبار المتكبر، ويؤيد ذلك ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: يقول الله تعالى: "العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته"[(١)].

وجه الدلالة: إن العز والكبرياء مما يختص بالله- تبارك وتعالى-، والرداء والإزار كل ذلك مما يختص بصاحبه، وليس لأحد أن يشاركه فيه كما هو معلوم؛ فيفهم من ذلك أن العز والكبرياء مما يختص به الله- سبحانه وتعالى-. أما الكبرياء فلا يكون لأحدٍ من المخلوقين، لا قليله ولا كثيره، فهو لا يصلح للمخلوق؛ لأن المخلوق إنما يصلح له العبودية، والتذلل لله تعالى.

وجديرٌ بالذكر أن القرآن الكريم لم يذكر لفظة (التواضع) صراحةً، إنما صورها بصورةٍ بلاغيةٍ رائعةٍ، **فقال تعالى: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة... } (سورة الإسراء: ٢٤).**

أي: كنْ لهما- أي: لوالديك- ذليلًا، رحمةً منك بهما، تطيعهما فيما أمراك به ما لم يكن لله تعالى معصية، ولا تخالفهما فيما أحبًا. وقيل معناه: أن تلين لهما حتى لا تمتنع من شيءٍ أحبَّاه[(٢)].

وقال تعالى: {واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين} (سورة الشعراء: ٢١٥).

---

(١) أخرجه مسلم، في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر، حديث رقم: (٢٦٢٠).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٧/٤١٩-٤٢٠) بتصرف.

اعلم أن الجناح في الآية مستعملٌ على حقيقته؛ لأن الجناح يطلق في اللغة على يد الإنسان وعضده وإبطه، كما قال تعالى: {واضمم إليك جناحك من الرهب...} (سورة القصص: ٣٢). والخفض مستعملٌ في معناه الحقيقي الذي هو ضد الرفع؛ لأن مريد البطش يرفع جناحيه. والشاهد في الآية: أن الطائر يرفرف بجناحيه إذا اقترب من عشه، الذي فيه فراخه وصغاره، ومعه الطعام والشراب لفراخه، فانظر كيف يخفض جناحيه حبًّا لهم، وحنانًا ورحمةً بهم؟!.

وعلى هذا، فإن مقام العبودية يفرض لين الجانب، وسهولة الطبع، والتواضع. فالتواضع خُلقٌ رفيعٌ، ويُعد سُلمًا للفخر والشرف والعزة، حيث يقول الشاعر:

تَواضَعْ إذَا مَا نِلتَ مِن النَّاسِ رِفعَةً فإنَّ رَفيع القَومِ مَن يَتواضَعُ[1].

ولقد أثنى الله- تبارك وتعالى- على عباده المتواضعين، **فقال عنهم: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (سورة الفرقان: ٦٣).**

يقول صاحب التحرير والتنوير في تفسير هذه الآية: "والمراد ب (عباد الرحمن): بادىء ذي بدء أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، وقد شرفهم الله تعالى بأن جعل عنوانهم: عباده، واختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسم الرحمن؛ لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الذين قيل لهم: اسجدوا للرحمن. قالوا: وما الرحمن؟ فإذا جعل المراد من (عباد الرحمن) أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم-؛ كان الخبر في قوله: "الذين يمشون على الأرض هونًا) إلى آخر المعطوفات، وكان قوله الآتي: (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) استئنافًا لبيان كونهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة. وإذا كان المراد من (عباد الرحمن) جميع المؤمنين المتصفين بمضمون تلك الصلات؛ كانت تلك الموصولات وصلاتها نعوتًا ل (عباد الرحمن)، وكان الخبر اسم الإشارة في قوله: (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا). وظاهر قوله: "يمشون على الأرض هونًا" أنه مدح لمشيةٍ بالأرجل، وهو الذي حمل عليه جمهور المفسرين. وجوَّز الزجاج أن يكون قوله: "يمشون" عبارة عن تصرفاتهم في معاشرة الناس، فعبر عن ذلك بالانتقال في الأرض. فعلى الوجه الأول: يكون تقييد

(١) انظر: المستطرف من كل فنٍ مستظرف، للأبشيهي، (١٩٦/١).

المشي بأنه على الأرض؛ ليكون في وصفه بالهون ما يقتضي أنهم يمشون كذلك اختيارًا، وليس ذلك عند المشي في الصعدات، أو على الجنادل.

والهون: اللين والرفق، ووقع هنا صفةً لمصدر المشي، محذوف تقديره (مشيًا)، فهو منصوب على النيابة عن المفعول المطلق. والمشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام، وخفق بالنعال، فهو مخالف لمشي المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوتهم. وهذا المشي ناشيء عن التواضع لله تعالى، والتخلق بآداب النفس العالية، وزوال بطر أهل الجاهلية، فكانت هذه المشية من خلال الذين ءامنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية. والتخلق بهذا الخلق مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمن؛ لأن الرحمة ضد الشدة، فالهون يناسب ماهيتها، وفيه سلامة من صدم المارّين. وعن زيد بن أسلم، قال: كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى: "الذين يمشون على الأرض هونًا". فما وجدت في ذلك شفاء، فرأيت في المنان من جاءني فقال لي: هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض. فهذا رأي لزيد بن أسلم ألهمه، يجعل معنى (يمشون على الأرض) أنه استعارة للعمل في الأرض، وأن الهون مستعار لفعل الخير؛ لأنه هون على الناس كما يسمى بالمعروف. وقرن وصفهم بالتواضع في سمتهم، وهو المشي على الأرض هونًا بوصف آخر يناسب التواضع، وكراهية التطاول، وهو متاركة الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم، وهؤلاء الجاهلون يومئذ هم المشركون، إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم؛ فعلمهم الله متاركة السفهاء، فالجهل هنا ضد الحلم. وانتصب (سلامًا) على المفعولية المطلقة، وذكرهم بصفة الجاهلين دون غيرها مما هو أشد مذمة مثل الكافرين؛ لأن هذا الوصف يشعر بأن الخطاب الصادر منهم خطاب الجهالة والجفوة. و (السلام): يجوز أن يكون مصدرًا بمعنى السلامة، أي: لا خير بيننا ولا شر فنحن مسلمون منكم. ويجوز أن يكون مرادًا به لفظ التحية؛ فيكون مستعملًا في لازمه، وهو المتاركة؛ لأن أصل استعمال لفظ السلام في التحية أنه يؤذن بالتأمين، أي: عدم الإهاجة، والتأمين: أول ما يلقى به المرء من يريد إكرامه؛ فتكون الآية في

معنى **قوله تعالى: {وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين} (سورة القصص: ٥٥) "**[١].

والمتتبع لسيرة المصطفى- صلى الله عليه وسلم-؛ يجد التواضع خُلقًا لازمًا له، ومن ذلك ما ذكره الإمام ابن القيّم- رحمه الله- من نماذج تحكي اتصاف النبيّ- صلى الله عليه وسلم- بهذه الصفة.

حيث يقول: "وكان النبي- صلى الله عليه وسلم- يمر على الصبيان فيسلم عليهم، وكانت الأمَة تأخذ بيده- صلى الله عليه وسلم- فتنطلق به حيث شاءت، وكان- صلى الله عليه وسلم- إذا أكل لعق أصابعه الثلاث، وكان- صلى الله عليه وسلم- يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط.

وكان- صلى الله عليه وسلم- يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه، ولو إلى أيسر شيء.

وكان- صلى الله عليه وسلم- هيّن المؤنة، ليّن الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بسامًا، متواضعًا من غير ذلة، جوادًا من غير سرف، رقيق القلب، رحيمًا بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، ليّن الجانب لهم" [٢].

ويؤيد هذا ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه، وحسن الخلق"[٣].

ذلك أنّ التواضع لله تعالى انقيادٌ وإذعانٌ، وللإمام ابن القيّم قولٌ نفيس في معنى ذلك، حيث يقول: "أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رقه، بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف المالك في مملوكه، فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع، ولهذا

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (ج٢٠/٦٧-٦٩) بتصرف.
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/٣٤١- ٣٤٢).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، (٥/٢١٢)، حديث رقم: (٢٥٣٣٣). وقال الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣/٩)، حديث رقم: (٢٦٦١): حديث حسن لغيره.

فسر النبي- صلى الله عليه وسلم- الكبر بضده، فقال: "الكبر بطر الحق، وغمط الناس"[١]. فبطر الحق: رده وجحده"[٢].

وعن عِياض بن حِمار- رضي الله عنه- عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا؛ حتى لا يبغي أحدٌ على أحدٍ، ولا يفخر أحدٌ على أحدٍ"[٣].

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "هلك المتنطعون. قالها ثلاثًا"[٤].

وللعلماء في تفسير التنطع المذكور في الحديث تعريفاتٌ كثيرةٌ، اختلفت ألفاظها؛ لكن اتحدت معانيها على أن التنطع هو: التعمق ومجاوزة الحد في القول والفعل، ومن أبرز تفسيراتهم للتنطع والمتنطعين ما يلي:

١- يقول النووي: "المتنطعون هم: المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"[٥].

٢- يقول ابن تيمية: "التنطع هو: الرهبانيات والعبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات، ومثل: التعمق والتنطع الذي ذمَّه النبي- صلى الله عليه وسلم-، حيث قال: "هلك المتنطعون". وقال: "لو مد لي الشهر لواصلت وصالًا يدع المتعمقون تعمقهم". مثل: الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم، ويمنع أداء واجبات، أو مستحبات أنفع منه، وكذلك الاحتفاء والعري، والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة"[٦].

---

(١) أخرجه مسلم، في كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم: (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه).
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣٤٦/٢).
(٣) أخرجه مسلم، في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم: (٢٨٦٥).
(٤) أخرجه مسلم، في كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون، حديث رقم: (٢٦٧٠).
(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (٢٢٠/١٦).
(٦) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٦٢٠/١٠).

٣- يقول ابن الأثير: "المتنطعون: هم المتعمقون المغالون في الكلام، المتكلمون بأقصى حلوقهم، مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استُعمل في كل تعمق قولًا وفعلًا"[١].

٤- يقول ابن رجب: "المتنطع: هو المتعمق، البحَّاث عما لا يعنيه، فإن كثرة البحث والسؤال عن حكم ما لم يذكر في الواجبات، ولا في المحرمات؛ قد يوجب اعتقاد تحريمه، أو إيجابه لمشابهته لبعض الواجبات أو المحرمات، فقبول العافية فيه، وترك البحث عنه خير"[٢].

٥- والتعريف المناسب لبحثنا عن التنطع: هو التعالى والتكبر، ومجاوزة الحدِّ في التكبر على الناس، سواء في الأقوال أو الأفعال، ويؤيد ذلك ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إن الله قد أذهب عنكم عُبيَّة[٣] الجاهلية، وفخرها بالآباء. مؤمنٌ تقيٌّ، وفاجرٌ فاسقٌ. أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجالٌ فخرهم بأقوامٍ، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجِعلان[٤]. التي تدفع بأنفها النتن"[٥].

❄❄❄❄❄❄❄

(١) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (١٦٤/٥).
(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص٢٨٥).
(٣) عبية: بضمٍ فكسرٍ مع التشديد، هي: الكبر والتعظم والاختيال.
(٤) الجعلان: بالكسر، جمع جعل، وهي: دويبة صغيرة سوداء توجد كثيرًا في مراح البقر والجواميس، وتجمع الروث وتدخره، وتموت بريح الورد وكل طيب. انظر: الجامع للأصول في أحاديث الرسول- ﷺ-، للشيخ/ منصور علي ناصف، (٦٠/٥).
(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب، حديث رقم: (٤٤٥٤).

وفي التحدث عن خُلق التواضع؛ يجدر بنا أن نتحدث عن نقطتين مهمتين، ترتبطان بالافتقار إلى الله تعالى، وبيان ذلك فيما يلي:

النقطة الأولى: وجوب التواضع للدليل الشرعي، عن طريق الانقياد له:

إن المرء المسلم مدعوٌّ إلى تكميل نفسه وإصلاحها، وتكميل النفس يكون من طريقين، هما: إصلاح القوة العلمية، والعملية؛ أمّا إصلاح القوة العلميّة فيكون بموافقة الدليل الشرعي، والخضوع له، والتواضع لسلطان الحق، وترك معارضة المنقول بالمعقول، أو نصب الخلاف وإحداث الوقيعة بينهما.

وإذا كان التواضع هو خفض الجناح، ولين الجانب؛ فإنّ أعظم ما يُخفَض له الجناح، ويُلاَن له الجانب ما كان لله- عز وجل-، ولأدلة الشرع التي جعلها الله- عز وجل- أعلامًا على دينه،كما جاء عن الفضيل بن عياض أنه سئل عن التواضع، فقال: "يَخضع للحق، ويَنقاد له، ويَقبله ممّن قاله"[1].

وهكذا يتبيَّن أنّ حقيقة التواضع المثلى تكمن في الخضوع للدليل، و"الانقياد لما جاء به الرسول- صلى الله عليه وسلم-، والاستسلام له، والإذعان"[2]، وهذا شعار أهل الدعوة إلى الله تعالى: الخضوع لأدلة الشرع، والانقياد لأوامره، وعدم تقديم المعقول على المنقول إذا تعارضا في الظاهر.

أمّا شعار أهل الكبر، ومسلك المنحرفين في القديم والحديث؛ فإنه غمط[3] الحق، والانقياد للأهواء، والإقبال على المعقولات الفاسدة، واستدبار منقول الشرع الصريح[4]، ورئيس هذه الجماعة وكبيرهم وشيخهم هو إبليس- عليه لعنة الله-، الذي قاده الكبر إلى معارضة الأمر الإلهي بالمعقول الفاسد؛ لذا كان "أهل الكبر والإصرار... مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس"[5].

---

(1) مدارج السالكين، لابن القيم (٣٤٢/٢).
(2) انظر: المصدر السابق (٣٤٧/٢).
(3) الغمط: هو الاستهانة والاستحقار، ومنه: غمط الحقّ، يعني الاستهانة به المؤدية إلى تركه، والإعراض عنه تكبُّرًا واستحقارًا. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، ت: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، بيروت- المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، (٣/ ٣٨٧).
(4) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣٤٧/٢).
(5) المصدر السابق (٣٤٥/٢).

وجديرٌ بالذكر أنه يكثر في كل عصر- ولا سيما العصر الحديث- التحاكم إلى العقل عند التعارض الظاهري بينه وبين النقل، والمسارعة إلى تقديم العقل على النقل دون التأمُّل، أو البحث الصادق عن وجه الجمع، والتأليف بينهما، وهذا سبيل أهل الهوى والردى الذين اتخذوا من معقولاتهم الفاسدة سُلّمًا يرتقون به إلى أدلّة الشرع؛ رجاء النيل منها بالتحريف تارةً، وبالتعطيل تارةً أخرى [١].

وتقديم العقل على النقل معدودٌ في جملة الطواغيت الأربعة التي سعى من خلالها بها أصحاب التأويل الباطل إلى هدم معاقلَ الدِّين، وانتهكوا بها حُرمة القرآن، ومحَوا بها رسوم الإيمان؛ لذا كان على الوعاظ والدعاة تبصير الناس بِحُرْمَة الدليل، وتعظيمه في قلوبهم، والتذكير بخطورة تقديم المعقول المناقض، أو المعارض له، والتحذير من أولئك الذي يستعملون الأقيسة الفاسدة، والآراء الباطلة، والصياح عليهم، والتنفير منهم؛ حياطةً للدليل من العدوان عليه، وصيانةً له من النَّيْل منه، وبيان أنّ العقل الصحيح لا يخالف النقل الصريح؛ وإنما الخلاف يقع بينهما بسبب قصور في الذهن، أو فساد في التصوُّر، وبهذا تتجلَّى حقيقة هامّة، وهي: العقل الصحيح موافِق للوحي، معاضِد له،لا معارِض مناقِض"[٢].

النقطة الثانية: التواضع لله تعالى على مقتضى أمره، لا على هواك ورأيك:

إنَّ أعظم أنواع التواضع أن تتواضع لله- عزَّ وجلَّ-؛ فـ"تعبده بما أمرك به، على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك"[٣]. وهذه منزلة الذي يفنى في متابعة مراد الله على مقتضى أمره، وأدلة شرعه، دون معارضة ذلك بهواه وعقله [٤].

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٧٣/٢)، و (٣٤٧/٢).
(٢) الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية، (٩٩٢/٣).
(٣): مدارج السالكين، لابن القيم (٣٥١/٢).
(٤) انظر: المصدر السابق(٣٥٢/٢).

والمسلم الحقّ هو الذي يوطِّن توطين نفسه، ويُرَبِّي مَن حوله على أنّ موافقة الدليل هي العبادة الحقّة، لا موافقة الهوى والعوائد؛ فإنّ "الرأي والمحبة والهوى والعوائد: منفذة تابعة، لا أنها مطاعَة باعثة، وتوطين النفس على ذلك يورث الطمأنينة؛ فإنّ الطمأنينة إلى الدليل أعظم من الطمأنينة إلى مجرَّد العقل"[1].

كما أنّ المتواضع الحقّ هو الذي لا يتَّهِم دليلًا مِن أدلة الدِّين؛ بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة،أو قاصرها، أو أنّ غيره كان أولى منه، ومتى عرض له شيء من ذلك؛ فليتَّهِم فهمَه، وليعلم أنّ الآفة منه، والبليّة فيه.

ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم، وهكذا الواقع في الواقع حقيقة: أنَّه ما اتهم أحد دليلًا للدِّين؛ إلا وكان المتَّهِم هو الفاسد الذهن، المأفون في عقله وذهنه؛ فالآفة من الذهن العليل لا في نفس الدليل"[2].

وأهل العلم عندما يحصل لبعضهم نوع تعارض بين النقل والعقل، ولا يستطيعون التوفيق بينهما بوجه من الوجوه؛ فإنهم لا يسارعون إلى اتهام النقل، وإنما يتّهمون عقولهم بالقصور عن إدراك دلالات النصوص، وهذه الثقة في الدليل ملازمة لأهل الاستقامة؛ فإنّ "الاستقامة إنما تكون بعد الثقة، أي: لا يُتصوَّر حصول الاستقامة في القول والعمل والحال، إلا بعد الثقة بصحّة ما معه من العلم، وأنّه مقتبَس مِن مشكاة النبوّة، ومَن لم يكن كذلك؛ فلا ثقة له ولا استقامة"[3].

وكما أنّ العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا عنهم العلم، واتّباع الدليل، وعدم الحيدة عنه، فإنّ الذين يقدّمون عقولهم على أدلة الشرع؛ بل يحاكمون أدلة الشرع إلى عقولهم، هم في حقيقة الأمر ورثة إبليس، الذي ورثوا عنه تقديم العقل على النقل؛ فإنّ إبليس هو أوّل من عارض السمع بالعقل، وقدَّمه عليه؛ فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم؛ عارض أمره بقياسٍ عقلي فاسد، ثم لمّا أُصِيب من معارضة الوحي بالعقل، وعلم أنه لا شيء أبلغ في مناقضة

(١) الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية (٢٢٤/١).
(٢) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية (٣٤٧/٢-٣٤٨).
(٣) المصدر السابق (٣٤٩/٢).

الوحي والشرع، وإبطاله من معارضته بالعقول، أوحى إلى تلامذته وإخوانه من الشبهات الخيالية ما يعارض به الوحي، وأوهم أصحابه وتلاميذه أنها قواطع عقلية، وقال: إنْ قدمتم الوحي عليها؛ فسدت عقولكم، قال تعالى: {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإنْ أطعتموهم إنكم لمشركون} (سورة الأنعام: ١٢١)"[١].

ومن أعظم أسباب تقديم العقل على النقل، هو ظنّ السوء في الدليل، واعتقاد الخلل فيه، ممّا أدّى إلى اختراع المعقولات الفاسدة، والأقيسة الإبليسية[٢]، واستحضار الداعية لشؤم هذا التقديم ممّا يحجبه عنه، ويخوّفه مِن الإقدام عليه، فيجعل بينه معارضة الدليل حاجز الاتّباع والموافقة، أمّا مَن عارض الوحي بعقله؛ فإنّ عادة الله فيه أنّه يُفسِد عليه عقله حتى يقول ما يَضحك منه العقلاء[٣].

❄❄❄❄❄❄❄❄

أنواع التواضع:

للتواضع نوعان:

- التواضع المحمود: وهو ترك التطاول على عباد الله، والإزراء بهم.
- التواضع المذموم: وهو تواضع المرء لذي الدنيا؛ رغبةً في دنياه.

فالمرء المسلم العاقل ينبغي عليه الالتزام بالتواضع المحمود، ومفارقة التواضع المذموم بجميع حالاته وأشكاله.

وللتواضع المحمود مظاهر كثيرة، لعل من أبرزها ما يلي:

١- البشاشة، وانبساط الوجه عند مقابلة الآخرين.

٢- توقير كبير السن، واللين والرفق مع صغير السن.

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية (٩٩٨/٣ - ١٠١).
(٢) القياس إذا صادم النص وقابله ؛ كان قياسًا باطلًا، ويسمى قياسًا إبليسيًّا. انظر: الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية (١٠٢/٣).
(٣) انظر: المصدر السابق (١٠٢/٣).

٣- مجالسة الفقراء والمساكين، دون التحقير من شأنهم، يقول بشر بن الحارث: "ما رأيت أحسن من غنيٍّ جالسٍ بين يدي فقير".

٤- مراعاة آداب الحوار، وخفض الصوت في الحديث بشكلٍ عام، وعدم رفع الصوت البتة ، سواء حال الرضا أو الغضب، قال تعالى: {واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير} (سورة لقمان: ١٩).

٥- إفشاء السلام على من عرفت، ومن لم تعرف.

٦- الاعتدال والرزانة والوقار في المشي، قال تعالى: {ولا تمش في الأرض مرحًا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولًا} (سورة الإسراء: ٣٧).

٧- اتهام النفس ولومها، والاجتهاد في علاج عيوبها، وكشف كروبها وزلاتها، قال تعالى: {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها} (سورة الشمس: ٩-١٠).

٨- مداومة استحضار الآخرة، واحتقار الدنيا، والحرص على الفوز بالجنة ونعيمها، والنجاة من النار وجحيمها، قال تعالى: {فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} (سورة آل عمران: ١٨٥).

٩- التواضع للمسلمين، والوفاء بحقوقهم، ولين الجانب لهم، والصبر عليهم، قال تعالى: {واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين} (سورة الشعراء: ٢١٥).

١٠- غلبة الخوف في قلب المؤمن على الرجاء، واليقين بما سيكون يوم القيامة، قال تعالى: {وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون} (سورة الزمر: ٤٧).

١١- الانقياد التام للدين، والامتثال لما جاء به الشرع، فلا يُعارض بمعقول، ولا رأي، ولا هوى.

١٢- الانقياد والامتثال التام لما جاء به المصطفى- صلى الله عليه وسلم-، وأن يعلم أنه يجب عليه أن يعبد الله- تبارك وتعالى- وفق ما أمر، وأن لا يكون الباعث على ذلك داعي العادة؛ بل الباعث هو داعي الامتثال والعبادة.

١٣- ترك الشهوات المباحة، والملذات الكمالية احتسابًا لله، وتواضعًا له مع القدرة عليه، والتمكن منها، ويؤيد ذلك ما جاء عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه أن رسول

الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "من ترك اللباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها"[1].

١٤- عيادة المرضى، والوقوف بجانبهم، والسعي في كشف كربتهم، وتذكيرهم بالاحتساب والرضا، والصبر على قضاء الله وقدره.

١٥- التواضع في جنب الوالدين، وذلك ببرهما وإكرامهما، وطاعتهما في غير معصية الله تعالى، والحنو عليهما، والبِشر وانبساط الوجه في وجههما، والتلطف واللين في الحديث معهما، وتوقيرهما، والإكثار من الدعاء لهما في حياتهما، وبعد مماتهما، قال تعالى: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا} (سورة الإسراء: ٢٤).

وأختم هذه الوسيلة بما رواه الطبراني عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "ما مِن آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملَك، فإذا تواضع قيل للملَك: ارفع حكمته. وإذا تكبر قيل للملَك: ضع حكمته" [2].

❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله- ﷺ-، حديث رقم: (٢٤٨١). وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢١/ ٨١٢)؛ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: (٨٣٥)؛ وفي صحيح الجامع الصغير، حديث رقم: (١٥٥٥).

المبحث التاسع

ويتضمن الوسيلة التاسعة: المبادرة بالتوبة، وعدم الإصرار على المعصية:

بدايةً لا بد من تعريف (التوبة) لغةً واصطلاحًا.

التوبة لغةً: أصلها (تاب)، ومعناها: رجع، فالتوبة معناها: الرجوع عن الذنب، وتاب إلى الله تعالى، يتوب توبًا وتوبةً ومتابًا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة. وتاب الله عليه: هداه ووفقه لها. ورجل توَّاب: كثير التوبة إلى الله تعالى. والله توَّاب: كثير التوبة على عباده. فالتوبة: هي الرجوع والإنابة إلى الله تعالى[1].

التوبة شرعًا: قال ابن قدامة: "التوبة: عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلًا بين الإنسان وبين محبوبه"[2].

وقد توسع الجرجاني في تعريفه للتوبة، فقال: "وتنقسم التوبة إلى قسمين:

الأول: التوبة: الرجوع إلى الله تعالى بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرَّب تعالى.

الثاني: التوبة النصوح: توثيق العزم على ألا يعود لمثله، قال ابن عباس- رضي الله عنهما-: "التوبة النصوح: الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والإصرار على أن لا يعود". والتوبة: هي الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى المحمودة، وهي واجبة على الفور عند عامة العلماء. وقيل: النصوح: أن لا يبقي على عمله أثرًا من المعصية سرًّا وجهرًا. وقيل: هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلًا وآجلًا. وقيل: هي الاعتراف والندم والإقلاع"[3].

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، (مادة: تاب)، (٢٣٣/١).
(٢) المغني، لابن قدامة (١٩٢/١٤).
(٣) التعريفات، للجرجاني (ص٨٣) بتصرف.

وتُعد التوبة من أعظم أسباب المغفرة، حيث إنها مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، قال تعالى: {يا أيها الذين ءامنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحًا عسى ربكم أن يُكفر عنكم سيئاتكم ويُدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين ءامنوا معه يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيءٍ قدير} (سورة التحريم: ٨). والنصح صفة للتائبين، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم؛ فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات، ماحية للسيئات، كأنه قيل: توبوا يوجب لكم تكفير سيئاتكم، ويُدخلكم جنات"[١].

وتبدأ التوبة بالندم على ما كان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، فهي عندئذٍ تخلص القلب من رواسب المعاصي وعكارها، فإذا كانت هذه التوبة؛ فهي مرجوة إذًا في تكفير السيئات[٢].

يقول ابن القيم: "حقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل"[٣].

ويؤيد هذا ما جاء عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "الندم توبة"[٤].

فمن تدبر حقيقة التوبة؛ علم أن الندم هو بمثابة العلامة التي تدل على صدق التوبة من كذبها، وهو الدليل الذي يستشعر به العاصي ثقل الذنب، وهو السبب في انكسار العبد قبل التوبة وبعدها، وفي حال انكسار القلب الدائم بين يدي الله تعالى.

يقول ابن حجر معلقًا على هذا الحديث: "يكفي في التوبة الندم، فإنه يستلزم الإقلاع عن الذنوب، والعزم على عدم العود، فهما ناشئان عن الندم. وقد قال القرطبي في المفهم: يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله، وسعة رحمته، وحلمه وكرمه؛ لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارنًا للسان؛ لينحل به عقد الإصرار،

---

(١) الكشاف، للزمخشري (٥٦٩/٤) بتصرف.
(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣٦١٨/٦) بتصرف.
(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (١٩٩/١).
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، حديث رقم: (٤٢٥٢). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، حديث رقم: (٣٤٢٩).

ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة. ويشهد له حديث: خياركم كل مفتن تواب. ومعناه: الذي يتكرر منه الذنب والتوبة، فكلما وقع في الذنب؛ عاد إلى التوبة، لا مَن استغفر اللهَ بلسانه، وقلبه مُصرٌّ على تلك المعصية، فذلك الذي استغفارُه يحتاج إلى استغفارٍ"[1].

يقول الشاعر:

يَا مَن عَدا ثمَّ اعتدَى ثمَّ اقترَفَ ثمَّ ارعَوى ثمَّ انتهَى ثمَّ اعترفَ

أبشرْ بقَولِ اللهِ فِي تنزِيلـــتـهِ: إنْ يَنتهُوا يُغفَرْ لَهمْ مَا قدْ سَلفَ

واعلم أن الناس ينقسمون في توبتهم إلى قسمين:

القسم الأول: صادق في توبته الأولى، ولم يُصر على ذنبه، وليس في نيته العودة إليه عند التوبة، ثم عرض له فيما بعد ذنب آخر دون إعدادٍ ولا ترتيب فارتكبه؛ فهذا يجب عليه أن يسارع بالتوبة، وهذا تصح توبته الأولى والثانية مهما يكن منه الذنب.

القسم الثاني: تائب من ذنبه الأول على حُبٍّ له وتمنٍّ لفعله مرةً أخرى، فهذا مستهزىء بربه، والعياذ بالله[2].

وهناك العديد من الآيات القرآنية الدالة على رحمة الله الواسعة، وقبوله التوبة من عباده، ومنها ما يلي:

(١) فتح الباري، لابن حجر (٤٧١/١٣).
(٢) انظر: التوبة، للمحاسبي (ص٥٩).

- قال تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين} (سورة آل عمران: ١٣٥-١٣٦).
- قال تعالى: {والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وءامنوا إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ} (سورة الأعراف: ١٥٣).
- قال تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون} (سورة الشورى: ٢٥).

ومن رحمة ربنا- تبارك وتعالى- الواسعة، وفضله العظيم، أن جعل الحسنات تمحو السيئات، وجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، وجعل السيئة بواحدة. قال تعالى: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يُجزى إلا مثلها وهم لا يُظلمون} (سورة الأنعام: ١٦٠).

فمن رحمة ربنا- سبحانه وتعالى- أن فتح لنا باب التوبة، فهو- سبحانه وتعالى- الذي خلقنا، ويعلم سرنا وجهرنا، ويعلم أننا نخطىء بالليل والنهار؛ لذا فقد فتح لنا التوبة بالليل والنهار، ويؤيد هذا ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: " لو لم تُذنبوا؛ لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون الله؛ فيغفر لهم"[١].

كما جاء عن أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوابون"[٢].

وهنا لا بد من بيان أنه لا تعارض بين الأمر بترك المعصية، والخبر بأن ابن آدم لا بد أن يذنب، ولكن ليس الشأن في أن يقع الذنب، بل الواجب على المسلمين أن يكفوا أنفسهم عن المعاصي والسيئات، وأن يجتهدوا في ذلك، فإذا غلبتهم أهواؤهم وشهواتهم، فوقعوا في شيءٍ من المعاصي؛ فالواجب أن يبادروا إلى التوبة، فالعبد إذا تاب محت توبته ما كان من الخطأ قبله، فقول

(١) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، حديث رقم: (٢٧٤٩).
(٢) أخرجه الترمذي برقم: (٢٤٩٩)؛ وابن ماجه برقم: (٤٢٥١)؛ والحاكم (٢٧٢/٤)؛ وأحمد (١٩٨/٣). وقال الترمذي: حديث غريب. وقال أحمد: منكر. ولكن قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يُخرجاه.

النبي- صلى الله عليه وسلم-: "والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم". ليس فيه الدعوة إلى مواقعه الذنوب، وإنما فيه الحث إلى المبادرة بالتوبة بعد وقوع الذنب، ومن تاب إلى الله تعالى صادقًا من قلبه، يرجى أن يفوز فوزًا عظيمًا، فالله تعالى يحب التوابين، **قال تعالى: {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} (سورة البقرة: ٢٢٢).**

والعبد الصالح إذا زلت به قدمه، وعصى الله تعالى؛ اتصف بصفتين:

الأولى: سرعة الندم، والرجوع إلى الله تعالى.

امتثالًا **لقول الله تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين} (سورة آل عمران: ١٣٥-١٣٦).**

وقوله تعالى: {ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر اللهَ يجد اللهَ غفورًا رحيمًا} (سورة النساء: ١١٠).

الثانية: عدم الاستهانة بالمعاصي:

فعن سهل بن سعد- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إياكم ومحقِّرات الذنوب، فإنما مثل مُحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن وادٍ، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبوتهم، وإن محقرات الذنوب متى يُؤخذ بها صاحبها تُهلكه"[(١)].

ومحقرات الذنوب في الحديث تحتمل عدة معانٍ، لعل من أبرزها ما يلي:

١- ما يفعله العبد من الذنوب، متوهمًا أنه من صغارها، وهو من كبار الذنوب عند الله تعالى.

٢- ما يفعله العبد من صغائر الذنوب دون مبالاة بها؛ فتجتمع عليه هذه الصغائر حتى تهلكه، وتقضي عليه.

(١) أخرجه أحمد (٣٣١/٥) بسند حسن.

٣- ما يفعله العبد من صغائر الذنوب، لا يبالي بها؛ فتكون سببًا لوقوعه في الكبائر المهلكة.

وفي هذا المعنى يقول أنس- رضي الله عنه-: "إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد النبي- صلى الله عليه وسلم- من الموبقات" [١].

ويقول عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل، يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به: هكذا" قال أبو شهاب- أحد الرواة: "بيده فوق أنفه"[٢].

قال ابن حجر في شرح قول ابن مسعود– رضي الله عنه-: "قال ابن أبي جمرة: السبب في ذلك أن قلب المؤمن منورٌ، فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه؛ عظم الأمر عليه، والحكمة في التمثيل بالجبل: أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه، بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادةً. وحاصله: أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان، فلا يأمن من العقوبة بسببها، وهذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة، يستصغر عمله الصالح، ويخشى من صغير عمله السيء"[٣].

ويقول بعض السلف: قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار.

ويشرح ذلك ابن القيم بقوله: "يعمل الذنب، فلا يزال نُصب عينيه إن قام، وإن قعد، وإن مشي ذكر ذنبه، فيُحدث له انكسارًا وتوبةً واستغفارًا وندمًا، فيكون ذلك سبب نجاته. ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه إن قام، وإن قعد، وإن مشي ذكرها، أو ورثته عجبًا وكبرًا ومةً؛ فتكون سبب هلاكه. فيكون الذنب موجبًا لترتب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية من خوف الله، والحياء منه، والإطراح بين يديه منكسًا رأسه خجلًا باكيًا، نادمًا مستقبلًا ربه، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة وكبرًا وازدراءً للناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار. ولا ريب أن هذا المذنب خير عند الله تعالى، وأقرب إلى النجاة، والفوز من هذا المعجب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما يتقى من محقرات الذنوب، حديث رقم: (٦١٢٧). وقال أبو عبد الله البخاري: الموبقات: يعني بذلك: المهلكات.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: التوبة، بعد حديث رقم: (٥٩٤٩).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٠٥/١١).

بطاعته الصائل بها، المانّ بها، وبحاله على الله، وعلى عباده، وإن قال بلسانه خلاف ذلك، فالله شهيدٌ على ما في قلبه، ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظموه ويخضعوا له، ويجد في قلبه بغضة لمن يفعل به ذلك"[(١)].

واعلم- رعاك الله- أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد دلَّ كلٌّ منهما على أن الذنوب التي يرتكبها المسلم تنقسم إلى: صغائر وكبائر، فقد **قال تعالى: {إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نُكفر عنكم سيئاتكم ونُدخلكم مُدخلًا كريمًا} (سورة النساء: ٣١). وقال تعالى: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة...} (سورة النجم: ٣٢).**

كما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفراتٌ ما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر"[(٢)].

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يقولها حتى قلتُ: لا يسكت"[(٣)].

وجديرٌ بالذكر أنه وردت أحاديث صحيحة كثيرة تدل على أن الكبائر عددها أكثر من ذلك؛ لكن المشهور أن الكبائر عددها سبع، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هُن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف الحصنات المؤمنات الغافلات"[(٤)].

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (١/٣٠٧-٣٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتُنبت الكبائر، حديث رقم: (٢٣٣).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ، الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب: الأدب، باب: عقوق الوالدين من الكبائر، حديث رقم: (٥٦٣١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الوصايا، باب: قوله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا} (سورة النساء: ١٠)، حديث رقم: (٢٦٤١).

ومن أجمل ما قرأتُ في هذا الموضوع، قول أبي طالب المكي، إذ يقول: "الكبائر سبع عشرة، جمعتُها من جملة الأخبار: أربعة في القلب: الشرك، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وأربعة في اللسان: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر. وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الربا. واثنتان في الفرج: الزنا، واللواطة. واثنتان في اليدين: القتل، والسرقة. وواحدة في الرجلين: الفرار من الزحف. وواحدة في جميع البدن: وهي عقوق الوالدين"[1].

❄❄❄❄❄❄❄❄

وهنا لا بد من طرح سؤال، ومحاولة الإجابة عليه، والسؤال هو: هل الأعمال الصالحة تُكفر الذنوب صغيرها وكبيرها؟ أي: تُكفر الصغائر والكبائر أم لا؟

وللإجابة على هذا السؤال، لا بد من البحث في الكتاب والسنة؛ حتى نصل إلى مرادنا بما يتوافق مع كتاب ربنا، وسنة نبينا– صلى الله عليه وسلم-.

قال تعالى: {يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون. إلا من ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوءٍ فإني غفورٌ رحيمٌ} (سورة النمل: ١٠- ١١).

ففي هذه الآية الكريمة، نجد أن الله تعالى نادى كليمه موسى- عليه السلام-، قائلًا له: لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون، إلا من ظلم. والصواب من القول هو أن قوله: إلا من ظلم: استثناء صحيح من قوله: لا يخاف لدي المرسلون؛ فيكون المعنى: من أتى منهم ذنبًا فإنه خائف لديه من عقوبته، ثم بدل حسنًا بعد سوء، فإن الله تعالى غفور رحيم، أي: ساتر على ذنبه وظلمه[2].

ولنا وقفةٌ مع **قول الله تعالى: {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل إن الحسنات يُذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين} (سورة هود: ١١٤).**

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي (ص٢٤٥).
(٢) جامع البيان، للطبري (١٦٨/١١).

فعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رجلًا أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبيَ- صلى الله عليه وسلم- فذكر ذلك له. قال: **فنزلت الآية { وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل إن الحسنان يُذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين} (سورة هود: ١١٤).** فقال الرجل: ألي هذه يا رسول الله؟ فقال- صلى الله عليه وسلم-: "لمن عمل بها من أمتي"[١].

قال النووي: "فهذا تصريحٌ جلي بأن الحسنات تكفر السيئات... والحد الوارد في الحديث معناه: معصية من المعاصي الموجبة للتعزير، وهي هنا الصغائر؛ لأنها كفرتها الصلاة، ولو كانت كبيرة موجبة لحد أو غير موجبة له؛ لم تسقط بالصلاة، فقد أجمع العلماء على أن المعاصي الموجبة للحدود لا تسقط حدودها بالصلاة"[٢].

كما جاء عن أبي ذر- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "اتق اللهَ حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلق حسن"[٣].

إنه لما كان العبد قد يقع منه أحيانًا تفريط في التقوى، وتقصير في طاعة الله، أو انتهاك ما حرم الله؛ لطبعه وغفلته، وغلبة الشيطان؛ شرع الله له، وأمره فعل ما يمحو هذه السيئات، بفعل الحسنات.

وجه الدلالة: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها): يُستفاد منه أمورٌ كثيرة، ومن أبرزها ما يلي:

١- الحسنة المذكورة في الحديث لها معنيان، وهما:

الأول: يراد بالحسنة هنا التوبة، وقد ورد ذلك صريحًا في حديث مرسل. وقد ورد هذا المعنى كثيرًا في كتاب الله. وظاهر هذه النصوص تدل على أن من تاب إلى الله توبةً نصوحًا، واجتمعت شروط التوبة في حقه؛ فإنه يقطع بقبول توبته كما يقطع بقبول إسلام الكافر وهذا قول جمهور العلماء وهو الصحيح.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قوله تعالى: {إن الحسنات يذهبن السيئات}، حديث رقم: (٥٠٩٢).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٧٩/١٧).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة عن رسول الله- ﷺ-، باب: ما جاء في معاشرة الناس، حديث رقم: (١٩٨٧). وقال الترمذي: حسن صحيح. والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع، (١/ ٨١).

الثاني: يراد بالحسنة مطلق العمل الصالح ما هو أعم من التوبة. وقد دلت على ذلك الآيات والأحاديث المتظافرة. والصحيح أن الحسنة في الحديث تشمل كلا القولين فهي تعم كل عمل صالح يكفر الخطايا والتوبة داخلة في ذلك.

٢- يُستفاد من الحديث أيضًا أن الحسنات يُذهبن السيئات، وأن للخطايا مكفرات، وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

٣- يقول ابن عثيمين معلقًا على هذا الحديث: "إن المريض متى تناول شيئًا مُضرًّا؛ أمره الطبيب بما يصلحه، والدين للعبد كأنه أمرٌ حتمٌ، فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات، وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات، فإنه أبلغ في المحو [١].

وبناءً على ما سبق؛ فإن العمل الصالح له علاقة بمحو السيئات، وتكفير الذنوب، ويؤيد هذا قول الله تعالى: {والذين ءامنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون} (سورة العنكبوت: ٧).

الشاهد في هذه الآية: العطف بالواو بين (ءامنوا)، و (عملوا الصالحات). وهذا يُفيد أن الأعمال مغايرة للإيمان؛ لأن العطف يوجب التغاير، وأنها تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان؛ لأن تكفير السيئات والجزاء بالأحسن معلق عليها، وهي ثمرة الإيمان.

والعمل الصالح هو كل ما أمر الله- عز وجل- به أن يُفعل، ولو نهى الله تعالى عنه لما كان صالحًا؛ بل طالحًا وفاسدًا. والعمل الصالح باقٍ؛ لأن الصالح في مقابلة الفاسد، والفاسد هو الهالك، فبقاؤه لا بد من أن يكون بشيء باق، ولكن الباقي هو وجه الله تعالى، حيث قال تعالى: {كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه تُرجعون} (سورة القصص: ٨٨). فينبغي أن يكون العمل لوجه الله تعالى؛ حتى يبقى ويكون صالحًا. والعمل الصالح هو الذي أتى به المكلف مخلصًا لله تعالى. وقد ذكر الله تعالى من أعمال العبد نوعين: الإيمان، والعمل الصالح. وذكر في مقابلهما من

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين (١٠/٦٥٥) بتصرف.

أفعال الله تعالى أمرين: تكفير السيئات، والجزاء بالأحسن[١].

ومعنى هذا أن الإيمان بدون عمل، لا يكفي لتحقيق النجاة؛ بل لا بد من اقتران الإيمان بالعمل الصالح.

والذنوب- وكما سبق أن قلنا- تنقسم إلى: صغائر، وكبائر. والصغائر: هي التي تذهب مع عدم الإصرار عليها، ومعنى إذهابها: تكفيرها. والصغائر موجودة في صحيفة كلٍّ منَّا بلا شك. والدليل على تكفيرها ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "الصلاة الخمس، والجمعة إلى الجمعة، مكفراتٌ لما بينهن ما لم تُغش الكبائر"[٢]. فكل ما تكفره الصلاة- مثلًا- فهو من الصغائر، وكل ما يكفره الإسلام أو الهجرة فهو من الكبائر[٣].

ويتضح هذا المعنى في **قوله تعالى: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة...} (سورة النجم: ٣٢).**

يقول ابن كثير: "ففي الآية استثناء منقطع؛ لأن اللمم: صغائر الذنوب، ومحقرات الأعمال. وقد قال أبو هريرة- رضي الله عنه- عن تفسير اللمم المذكور في هذه الآية: "اللمم: القُبلة، والغمرة، والنظرة". والجمهور على أن اللمم ما دون الكبائر"[٤].

وبناءً عليه، فإن الكبيائر لا يُكفرها إلا التوبة النصوح، خاصةً أن الله- تبارك وتعالى- أمر العباد بالتوبة، وجعل من لم يتب ظالمًا، هذا بالإضافة إلى أن الشارع رتَّب كفارات وحدود لبعض الكبائر، ولو كانت مجرد الأعمال الصالحة تكفرها؛ لما شرع ذلك، ويُؤيد ذلك **قوله تعالى: {إنْ تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نُكفر عنكم سيئاتكم ونُدخلكم مُدخلًا كريمًا} (سورة النساء: ٣١).**

---

(١) انظر: التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي (ج٢٥/ ٣٢) بتصرف.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر، حديث رقم: (٢٣٣).
(٣) فتح الباري، لابن حجر (٤٢٤/١).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢٥٦/٤).

أما الصغائر فلا مكفرات كثيرة، كالوضوء، والصلوات الخمس، والمشي إلى الصلاة وانتظارها، والجمعة، والصدقة، والعمرة، وصيام رمضان إيمانًا واحتسابًا، والحج، غير ذلك من أفعال الخيرات.

ولا يفوتني هنا أن أنوه إلى أن هناك من النصوص الشرعية ما يوهم أن الأعمال الصالحة تكون سببًا في تكفير الكبائر، مثل ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "من حج فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه"[١].

فهذا الحديث أفاد أن الحج المبرور طريقٌ موصل إلى مرضاة الله، وثمرة ذلك أن يكون العبد من أصحاب الجنة والرضوان، ويكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

لكننا نجد أن الحديث ليس فيه دلالةٌ صريحة على تكفير الكبائر، كما لا تخفى على أصحاب البصائر؛ لأنه مشروطٌ بعدم الفسق سابقًا ولاحقًا، لاسيما إذا جعلت الجملة حالية، ولا شك أن المُصر على المعصية فاسق، وصاحب كبيرة؛ لذا فإنه لا يكون داخلًا في الجزاء[٢].

ويخطىء كثيرٌ من الناس في أن الحج يكفرجميع الخطايا، والحق أن الحج يكفر حقوق الله تعالى، ويبقى على الحاج أن يقضي ما فاته من حقوق الله، كالزكاة والصلاة، ويرد مظالم العباد[٣].

وجديرٌ بالذكر أن الكبائر لو كانت تُكفر بفعل الفرائض؛ لم يبق لأحد ذنب يدخل به النار إذا أتى بالفرائض، فعلى المسلم المقترف للكبائر أن لا يغتر بعمله الصالح، ويوقن أن هذه الكبائر تتقحم به النار في الآخرة، ما لم يتب منها ويقلع عنها في الدنيا، وليعلم أن الموقف عظيم، بين يدي رب كريم، سبقت رحمته غضبه، إلا أن أخبرنا بأنه- سبحانه وتعالى- هو الغفور الرحيم، وأنه عذابه هو العذاب الأليم، فليحذر كل منَّا غضب ربنا في يومٍ تذهل فيه كل مرضعةٍ عما أرضعت، وتضع كل ذات حملٍ حملها، يومٍ ترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكنَّ عذاب الله شديد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: فضل الحج المبرور، حديث رقم: (١٤٤٩).
(٢) انظر: الذخيرة في رجاء المغفرة الكبيرة، لعلي سلطان محمد القاري، تعليق: مشهور حسن سليمان، المكتب الإسلامي، دار عمار، ط١، ١٩٨٩م، (ص٣٢) بتصرف.
(٣) انظر: التوبة، للمحاسبي (ص٥٨).

المبحث العاشر

ويتضمن الوسيلة العاشرة: ملازمة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى:

بدايةً لا بد من تعريف الدعاء لغةً واصطلاحًا، وبيان ذلك فيما يلي:

الدعاء لغة: أصله (دَعَوْ) الدال والعين والحرف المعتل: أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك. تقول: دعوت أدعو دعاء. وداعية اللبن: أي: ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده، وتداعت الحيطان: إذا سقط واحد وآخر بعده، فكأنما الأول دعا الثاني[١].

والدعوى: تصلح أن تكون في معنى الدعاء، لو قلت: اللهم أشركنا في صالح دعاء المسلمين، أو دعوى المسلمين، يجوز ذلك[٢].

الدعاء اصطلاحًا: له تعريفات كثيرة، ومن أبرزها ما يلي:

قال التهانوي: "الدعاء: هو كلام إنشائي دال على الطلب مع خضوع، ويسمى سؤالًا" [٣].

قال ابن الجوزي: "الدعاء: طلب الأدنى من الأعلى تحصيل شيء"[٤].

ويُلاحظ- بناءً على ما سبق- أن الدعاء اصطلاحًا لا يختلف مدلوله عن التعريف اللغوي للدعاء، إذ إن المعنى في اللغة: الرغبة والطلب والنداء والعبادة، وهذا المعنى نفسه متحقق في التعريف الاصطلاحي للدعاء، حيث إن الداعي يرغب فيما عند الله- تبارك وتعالى- من الخير والفضل؛ فيقوم مبتهلًا إلى ربه تعالى، مجتهدًا في الدعاء والسؤال، طالبًا ما ينفعه، مستعيذًا مما يخاف منه ويضره.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٢٧٩/٢).
(٢) لسان العرب، لابن منظور (٢٥٧/١٤).
(٣) كشاف اصطلاح الفنون، للتهانوي (١٤٢/٢).
(٤) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي (ص٢٩٢).

وبعد تعريف الدعاء لغةً واصطلاحًا، وبيان العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، أقول: اعلم- رعاك الله- أن ربنا- تبارك وتعالى- هو الخلاق العليم، ذو الفضل العظيم، هو الرحيم بعباده، خلق الإنسان وعلمه، وسخر له الكون ليعمره، وجعل له من الأسباب ما يعينه على أن يعيش حياته مطمئنًا في طاعة ربه تعالى، ومن رحمته تعالى بعباده أن هداهم للدعاء، الذي يقوم به الإنسان بالتوجه إلى الله تعالى؛ ليطلب منه الرحمة والغفران، أو يطلب منه أن يعينه على الدنيا ومغرياتها الكثيرة.

والدعاء عبادةٌ سهلة ميسورة، مطلقة غير مقيدة أصلًا بمكانٍ ولا زمانٍ ولا حال، فهي في الليل والنهار، وفي البر والبحر، والسفر والحضر، وحال الغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية، وهي مع المسلم في أول منازل العبودية وأوسطها وآخرها؛ ليعيش العبد دائمًا في حال الالتجاء والافتقار إلى خالقه تعالى.

إنه فضلٌ من الله تعالى أن يطلب الله- عز وجل- منا أن ندعوه، ويستجيب لنا إذا ما دعوناه؛ فنستمتع بمناجاته، ونسعد بحلاوة القرب منه، وربنا- سبحانه وتعالى- ودود رحيم بعباده، قريب لا يغيب، كريم لا يبخل، غني لا تنقص خزائنه مهما أعطى منها، مقتدر لا يعجزه شيء، سميع بصير، فمن استجاب لله؛ استجاب الله له بكرمه وفضله ورحمته.

فالمؤمن في هذه الحياة الدنيا مخلوقٌ ضعيف، إلا إذا اتصل بخالقه- سبجانه وتعالى-، واستمد منه القوة واليقين، فمن كان الله معه؛ لا يضره أي مخلوق، ولن تخيفه الأهواء والصعاب، ولن تضعفه المشكلات والمحن، فعندما تشتد الآلام، وتضعف القوى، ويعصف البلاء، وتغلق الأبواب؛ فلا ملجأ ولا منجى إلا بالالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء الخالص، والتضرع الكامل، والانقطاع عن كل الأسباب إلا ما كان متصلًا به- جل وعلا-، فبالدعاء تفتح الأبواب، ويذهب البلاء، وتحل الرحمة.

وفي هذه الوسيلة أتناول: أقسام الدعاء، آداب الدعاء، وموانع الدعاء. وفيما يلي بيان ذلك:

أولًا: أقسام الدعاء:

ينقسم الدعاء إلى قسمين، وهما كالتالي:

١- دعاء المسألة: هو أن يطلب الداعي ما ينفعه، وما يكشف ضره، وذلك بأن يسأل الله تعالى ما ينفعه في الدنيا والآخرة، وأن يدفع عنه ما يضره في الدنيا والآخرة.

ومن أمثلة هذا النوع من الدعاء: الدعاء بالمغفرة والرحمة والعفو، والدعاء بالهداية والتوفيق، والدعاء بالفوز بنعيم الدنيا وثواب الآخرة، وغير ذلك.

٢- دعاء العبادة: هو شامل لجميع القربات الظاهرة والباطنة؛ لأن المتعبد لله تعالى، طالب وداع بلسان مقاله، وليس حاله، يرجو من ربه تعالى قبول تلك العبادة، والإثابة عليها، فهذا هو العبادة بمعناها الشامل. وفي هذا النوع من الدعاء يكون الداعي عابدًا لله- تبارك وتعالى- بأي نوعٍ من أنواع العبادات، القلبية منها أو البدنية أو المالية، كالخوف من الله تعالى، ومحبة رجائه، والتوكل عليه، وكذلك الصلاة والصيام، والحج والعمرة، والزكاة والصدقات، وقراءة القرآن الكريم، وتسبيح الله وتحميده وتمجيده وتكبيره، والتهليل، والجهاد في سبيل الله تعالى، هذا بالإضافة إلى الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فكل قائم بعبادةٍ من هذه العبادات؛ فهو بمثابة الداعي إلى ربه تعالى.

وجديرٌ بالذكر أن دعاء العبادة، ودعاء المسألة، متلازمان، حيث إن كل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وبناءً على ما سبق؛ فإنه ينبغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب، أو دفع مرهوب؛ أن لا يقتصر في قصده، ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله؛ بل يقصد بدعائه التقرب إلى الله بالدعاء، وعبادته التي هي أعلى الغايات، ومن كان هذا قصده في دعائه- التقرب إلى الله-؛ فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس، فهذ نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم.

ولنا وقفة مع **قول الله تعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون} (سورة البقرة: ١٨٦).**

١- لقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: **{شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضًا أو على سفر فعدةٌ من أيامٍ أُخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون} (سورة البقرة: ١٨٥).**

وعلى هذا فالآية لها علاقة وطيدة بالآية السابقة لها، وفي هذا يقول ابن عاشور: "وفي هذه الآية إيماء أن الصائم مرجو الإجابة، وإلى أن شهر رمضان مرجوة دعواته، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان"[(١)].

٢- {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب...}. في هذا إيماء إلى أن أمر الإجابة متحققٌ موعود لا ريب فيه، شطر الدعاء جزاؤه الإجابة القريبة، فكأنه لم يقع عنه سؤال؛ بل ابتدئوا به، فالآية فيها إكرام ووعد ثابت سابق بالإجابة.

٣- وإذا نظرنا في "يسألونك" في القرآن الكريم؛ وجدنا أن عددها نحوًا من ستة عشر موضعًا، منها في هذه السورة- البقرة- ثمانية مواضع، تكون الإجابة في كل منها: {قل....}. إلا هذه الآية التي اختلفت عن سائر السؤالات، حيث إن ربنا- تبارك وتعالى- تولى الإجابة فيها بنفسه بدون واسطة؛ إيماءً إلى قربه وسرعة إجابته دعاء عباده. معنى هذا أن الله تعالى في استجابته لدعوة عباده لم يجعل أحدًا- مهما بلغ قدره وشرفه- واسطةً بينه وبين عبده، حتى لو كان محمدًا- صلى الله عليه وسلم-، وهذا يدل على أن قرب الله- تبارك وتعالى- المذكور في هذه الآية قربٌ خاصٌ من داعيه وسائليه.

٤- {وإذا سألك عبادي}: لم يقل: المؤمنون، أو: المسلمون؛ بل قال: عبادي، ذكرهم بوصف العبودية إلى نفسه تعالى؛ تشريفًا لهم بذلك المقام الرفيع، وهو مقام العبودية لله تعالى،

---

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (ج١٧٩/٢).

وهو أرفع المقامات، وأعلى الرتب، حيث وصف به الله تعالى نبيه المصطفى- صلى الله عليه وسلم- في أكثر من آية قرآنية، منها قوله تعالى: {سبحان الذي أسرى بعده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير} (سورة الإسراء: ١). ومعنى هذ أن الدعاء يُعد من أشرف العبادات التي يندرج بها الداعي في سلك العبودية.

٥- يقول الحسن البصري معلقًا على هذه الآية: "مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدعاء"[(١)].

٦- {فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي}.

تقديم الاستجابة على الإيمان؛ لأن الاستجابة: عبارة عن الاستسلام والانقياد لله، أما الإيمان: فهو من صفات القلوب وأعمالها من تحقيق حب الله ورسوله وتعظيمهما، والعبد لا يصل إلى نور الإيمان حتى يستعذب طاعة الله وعبادته، ويأنس بها، والأعمال وحدها لا تجدي بدون إيمانٍ يجعل صاحبه يحب الله ورسوله فوق كل شيء؛ بل يجعلها أحب من نفسه وولده ووالده، والناس أجمعين.

٧- {لعلهم يرشدون} أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة، ولأن الإيمان بالله تعالى، والاستجابة لأمره، سببٌ لحصول العلم. فالمقصود ب: (يرشدن) تحقيق الرشد بالجمع بين الإيمان والإذعان لأوامر الله ونواهيه؛ لأنها جامعة لكل أسباب الخير والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، فمن حققها حصل على الرشد، ومن لم يحققها كان محرومًا من الرشد بقدر ما أضاعه منها، والرشد هنا ضد الغي والفساد، كما قال تعالى في شأن الفراعنة الكافرين ومن قلدهم من بعدهم أبد الآبدين: **{وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سبيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا}** (سورة الأعراف: ١٤٦).

---

(١) ذكره القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن"، في تفسيره لسورة غافر (١٤/١٧٨).

ثانيًا: أهمية الدعاء:

إن الدعاء له مكانةٌ رفيعة، وأهميةٌ عظيمة في الإسلام، حيث يجد الداعي لروحه غذاء، ولنفسه دواء، يدعم كيانها، ويقوي بنيانها، ويجعلها تتغلب على كل ما يؤثر عليها، فلا يتسرب إليها يأس يأس، ولا يتملكها ضعف.

ويمكن بيان أهمية الدعاء، وعظيم قدره في النقاط التالية:

١- يُعد الدعاء طاعةً لله تعالى، وامتثالًا لأمره- تبارك وتعالى-:

فقد قال تعالى: {وادعوه مخلصين له الدين...} (سورة الأعراف: ٢٩). فمن يدعو الله؛ فهو مطيع لله، مستجيب لأمره تعالى.

٢- الدعاء عبادة:

حيث قال تعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} (سورة غافر: ٦٠).

لقد دلت الآية على أن الدعاء من العبادة، فإن الله تعالى أمر عباده أن يدعوه، وسمى الدعاء عبادة، وتركه استكبار، ثم توعَّد مَن تركه واستكبر عنه بالعذاب الأليم في جهنم. وعلى هذا فالدعاء من أعظم العبادات وأجلّها؛ لأن فيه إظهارًا لذل العبودية لله تعالى بالافتقار إليه سبحانه، ونفي الكبرياء عن عبادته.

كما جاء عن النعمان بن بشير- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "الدعاء عبادة" ثم قرأ: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} (سورة غافر: ٦٠). "[1].

---

(١) أخرجه الترمذي بهذا اللفظ عن النعمان بن بشير، في: أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمن، حديث رقم: (٣٢٤٧). وقال الترمذي: حسن صحيح.

فالدعاء أساس العبادة، وسر قوتها، وروح قوامها؛ لأن الداعي إنما يدعو الله وهو عالم يقينًا أنه لا أحد يستطيع أن يجلب له خيرًا أو يدفع عنه ضرًّا إلا الله جل وعلا، وهذه هي حقيقة التوحيد والإخلاص، ولا عبادة أعظم منهما.

ولا شك أن الدعاء عبادة من الناحية النظرية، حيث إن الإنسان إذا دعى ربه تعالى؛ فقد بنى دعاءه على أمرين، الأمر الأول: شدة حاجته إلى الله- عز وجل- وافتقاره إليه، وأنه لا ملجأ له إلا ربه- تبارك وتعالى-. والأمر الثاني: تعظيمه لله- عز وجل-، وإيمانه بأنه تعالى قادرٌ على استجابته، وأنه- سبحانه وتعالى- عالمٌ بدعائه، وأنه سامعٌ لدعائه، مجيبٌ له بفضله تعالى.

٣- الدعاء محبوبٌ لله- تبارك وتعالى-:

فقد قال تعالى: "واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيءٍ عليمًا} (سورة النساء: ٣٢).

كما جاء عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "سلوا الله من فضله، فإن الله يُحب أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج"[١]. الدعاء سبب لدفع غضب الله تعالى:

ويؤيد هذا ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "من لم يسأل الله؛ يغضب عليه"[٢].

ففي هذا الحديث دليل على أن الدعاء من العبد لربه تعالى يُعد من أهم الواجبات، وأعظم المفروضات؛ لأن تجنب ما يغضب الله تعالى منه لا خلاف في وجوبه.

٤- الدعاء سبب لدفع البلاء قبل نزوله، وبعد نزوله:

ويؤيد هذا ما جاء عن سلمان الفارسي- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "لا يرد القدر إلا الدعاء"[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: انتظار الفرج، حديث رقم: (٣٥٧١). وضعفه، كما ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، حديث رقم: (٤٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، حديث رقم: (٣٣٧٣)،وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والحديث حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه، حديث رقم: (٣٨٢٧).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: لا يرد القدر إلا الدعاء، حديث رقم: (٢١٣٩)؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٧٦٨٧).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "من فُتح له منكم باب الدعاء؛ فُتحت له أبواب الرحمة، وما سُئل الله شيئًا يعني أحب إليه من أن يُسأل العافية. إن الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء"[١].

٥- ثمرة الدعاء مضمونة إن شاء الله:

فعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم؛ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها". قالوا: إذًا نكثر. قال: الله أكبر"[٢].

٦- الدعاء يفتح للعبد باب المناجاة:

وفي هذا يقول ابن القيم: "فقد يقوم العبد لمناجاة ربه تعالى، وإنزال حاجاته ببابه؛ فيُفتح على قلبه حال السؤال والدعاء من محبة الله، ومعرفته، والذل والخضوع له، والتملق بين يديه ما ينسيه حاجته، ويكون ما فُتح له من ذلك أحب إليه من حاجته، بحيث يحب أن تدوم له تلك الحال، وتكون آثر عنده من حاجته، ويكون فرحه بها أعظم من فرحه لو عجلت له وفاته تلك الحال"[٣].

٧- الدعاء دليل على الإيمان بالله تعالى:

حيث إن العبد إذا أراد أن يدعو، فهذا اعتراف منه لله تعالى بالربوبية والألوهية، والأسماء والصفات، فالدعاء يتضمن إيمان العبد بوجود ربه تعالى، وأنه هو الغني الحميد، السميع البصير، القادر القدير المقتدر، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

٨- الدعاء من صفات المؤمنين:

حيث قال تعالى: {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين} (سورة الأنبياء: ٩٠).

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في دعاء النبي- ﷺ-، حديث رقم: (٣٥٤٨)؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: (٣٤٠٩).
(٢) أخرجه أحمد (٢١٨/٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠)، والحاكم في المستدرك (٦٧٠/١)، وقال الألباني في "صحيح الأدب المفرد" (٥٤٧): حديث صحيح.
(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٢٢٩/٢).

لقد استجاب الله- عز وجل- لأنبيائه- عليهم السلام- وآتى كل واحدٍ منهم سؤاله، واستجاب دعاءه، ولنا أن نتساءل: ما سر تلك الاستجابات؟!. ولعلنا عند قراءتنا لسورة الأنبياء نجد الإجابة الشافية؛ حيث قال تعالى- بعد ذكره دعاء أنبيائه واستجابته لهم-: {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين}. ذلكم هو السر الحقيقي لاستجابة الله تعالى لهم، وتلكم هي الصفات الرفيعة التي استحقوا بها الإجابة، وهي: مسارعة في الخيرات، وخوف ورجاء، وخشوع وخضوع.

كما **قال تعالى: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين ءامنوا ربنا إنك رءوفٌ رحيم} (سورة الحشر: ١٠).** والذين جاؤوا من المؤمنين من بعد الأنصار والمهاجرين الأولين يقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا حسدًا وحقدًا لأحد من أهل الإيمان، ربنا إنك رؤوف بعبادك، رحيم بهم. وفي الآية دلالة على أنه ينبغي للمسلم أن يذكر سلفه بخير، ويدعو لهم، وأن يحب صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويذكرهم بخير، ويترضى عنهم.

❄❄❄❄❄❄❄❄

ثالثًا: آداب الدعاء:

بدايةً أستأنس بقول الفاروق عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: "إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل هم الدعاء، فإذا أُلهمت الدعاء؛ فإن الإجابة معه"[1].

ومعنى هذا أن السلف الصالح- رضوان الله تعالى عليهم- كانوا لا يحملون هم إجابة الدعاء؛ بل يحملون هم الدعاء نفسه؛ لأنهم يعلمون أنهم إذا قاموا بالدعاء على النحو الصحيح والمطلوب؛ فالإجابة محققة لا شك فيها.

(١) الفوائد، لابن القيم (ص١١٠).

ومن هنا يتبين لنا أن للدعاء آدابًا كثيرة لا بد من معرفتها ودراستها؛ حتى نستفيد بها في الدعاء لما فيه الخير في الدنيا والآخرة، ومن أبرزها ما يلي:

١- أن يتخير العبد الأوقات الشريفة والفضيلة:

مثل: شهر رمضان، ويوم عرفة، ويوم الجمعة وليلتها، ووقت السحر من كل ليلة، فقد قال تعالى: {وبالأسحار هم يستغفرون} (سورة الذاريات: ٨).

٢- أن يغتنم العبد الأحوال الفضيلة:

مثل: عند نزول الغيث، وحالة السجود، وعند فطره إن كان صائمًا، وحال سفره، وبين الأذان والإقامة، فعن أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "لا يُرد الدعاء بين الأذان والإقامة" [(١)].

٣- أن يستجيب لله تعالى:

فالله- تبارك وتعالى- اشترط لإجابة الدعاء طلب الاستجابة له سبحانه، وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، فمن لم يستجب لربه تعالى بأن فرَّط في فعل الواجبات، وارتكاب المحرمات؛ فقد حرم نفسه من إجابة الدعاء. **قال تعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون} (سورة البقرة: ١٨٦).**

٤- أن يدعو وهو على طهارة:

ويؤيد حديث أبي موسى- رضي الله عنه- في الصحيحين، وقصته مع عَمِّه أبي عامر- رضي الله عنه-، حين بعثه النَّبيُّ- صلى الله عليه وسلم- على جيش أوطاس، وفي الحديث: قُتل أبو عامر- رضي الله عنه-، وأوصى أبا موسى- رضي الله عنه- أن يُقرئ النَّبيَّ- صلى الله عليه وسلم- السلام، ويدعو له، قال أبو موسى: "فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ، وَقُلْتُ لَهُ: قَالَ: قُلْ لَهُ: يَسْتَغْفِرْ لِي، فَدَعَا رَسُولُ اللّهِ بِمَاءٍ، فَتَوَضَّأَ مِنْهُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "اللّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ، أَبِي

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في أن الدعاء لا يُرد بين الأذان والإقامة، حديث رقم: (٢١٢). وقال الترمذي: حسن صحيح.
وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في الدعاء بين الأذان والإقامة، حديث رقم: (٥٢١). وصححه الألباني في صحيح أبي داود، حديث رقم: (٤٨٩).

عَامِرٍ"، حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ مِنَ النَّاسِ"[١].

٥- أن يستقبل القبلة حال الدعاء:

فعن عبد الله بن زيد أنه قال: خرج النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى هذا المصلى يستسقي؛ فدعا واستسقى، ثم استقبل القبلة، وقلب رداءه"[٢].

وعن عبد اللّه بن عَبَّاس- رضي الله عنهما- قال: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ- رضي الله عنه- قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رَسُولُ اللّهِ- صلى الله عليه وسلم- إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشر رَجُلاً، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللّهِ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: "اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ". فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادّاً يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتَكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سيـنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ"[٣].

٦- رفع اليدين في الدعاء:

هناك أحاديث تثبت مشروعية رفع اليدين في الدعاء، ومنها ما يلي:

- عن أبي مسعود البدري- رضي الله عنه- أنه قال: "إن النبي- صلى الله عليه وسلم رفع يديه حتى رئي بياض إبطيه، يدعو لعثمان"[٤].
- عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- "أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- رفع يديه، وقال: اللهم إني أبرأ مما فعل خالد"[٥].
- عن سلمان الفارسي- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إن ربكم-

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري برقم: (٤٣٢٣)؛ وأخرجه مسلم برقم (٢٤٩٨).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: الدعاء مستقبل القبلة، حديث رقم: (٥٩٨٣).
(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٣).
(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٩٥/٧)، وحسنه الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٩/ ٩٦).
(٥) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: بعث النبي- ﷺ- خالد بن الوليد إلى بني خذيمة، حديث رقم: (٤٣٣٩).

تبارك وتعالى- حييٌّ كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه لله، أن يردهما صفرًا خائبتين"[١].

واعلم- رعاك الله- أن رفع اليدين يكون في الدعاء العام، وما ورد الدليل على مشروعية رفع اليدين فيه، كرفع اليدين في الدعاء عند الصفا والمروة، وفي الاستسقاء يوم الجمعة، ونحو ذلك؛ لأن هناك أدعية لا تُرفع فيها اليدان، مثل: دعاء دخول المنزل، والخروج منه، ودعاء دخول الخلاء والخروج منه.

٧- خفض الصوت والإسرار بالدعاء:

قال تعالى: {ادعوا ربكم تضرعًا وخفيةً إنه لا يحب المعتدين}(سورة الأعراف: ٥٥).

وقال تعالى: {ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلًا} (سورة الإسراء: ١١٠).

قال ابن تيمية: "ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، أي: ما كانت إلا همسًا بينهم وبين ربهم- عزَّ وجل-، وذلك أنَّ **الله– عزَّ وجلّ- يقول: { ادعوا ربكم تضرعًا وخفيةً } (سورة الأعراف: ٥٥)** "[٢].

وعن أبي موسى- رضي الله عنه- قال: كنا مع النبي- صلى الله عليه وسلم- فجعل الناس يجهرون في التكبير، فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: "أيها الناس، اربعوا على أنفسكم؛ إنكم لا تَدْعِون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم"[٣].

هذا ولخفض الصوت والإسرار بالدعاء فوائد عديدة، وأسرار بديعة، وقد أشار ابن القيم إلى شيء منها، فمن ذلك ما يلي: [٤].

أولاً: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفي، وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: حدثنا محمد بن بشار، حديث رقم: ، (٣٥٥٦)؛ وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: رفع اليدين في الدعاء، حديث رقم: (٣٨٦٥).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥/ ١٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث رقم: (٢٧٠٤).

(٤) بدائع الفوائد، لابن القيم (٦/ ٣: ١٠) بتصرف.

ثانيًا: أنه أعظم في الأدب والتعظيم: ولهذا فإن الملوك لا تُخاطَبُ، ولا تُسْأَل برفع الصوت، وإنما تخفض عندهم الأصوات بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته عندهم مقتوه، ولله المثل الأعلى؛ فإذا كان يسمع الكلام الخفي؛ فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت.

ثالثًا: أنه أبلغ في التضرع والخشوع: الذي هو روح الدعاء، ولبه، ومقصوده؛ فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، ولا يتأتى ذلك مع رفع الصوت، بل مع خفضه.

رابعًا: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسًا: أنه أبلغ في جمعية القلب على الله في الدعاء؛ فإن رفع الصوت يفرقه، ويشتته.

سادسًا: أنه دال على قرب صاحبه من الله: وأنه لاقترابه منه، وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد. وهذا من النكت السرية البديعة جدًا.

سابعًا: أنه أدعى لدوام الطلب والسؤال؛ فإن اللسان _ والحالة هذه _ لا يمل، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته؛ فإنه قد يكل لسانه، وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ أو يكرر رافعًا صوته؛ فإنه لا يطول له ذلك، بخلاف من يخفض صوته.

ثامنًا: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع، والمشوشات، والمضعفات؛ فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يَدْر به أحد، فلا يحصل هناك تشويش، ولا غيره.

وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة، والخبيثة من الجن والإنس، فشوشت عليه ولا بد،

ومانعته، وعارضته، ولو لم يكن إلا أنَّ تعلقها به يفرق عليه همته، فيضعف أثر الدعاء؛ لكفى.

ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

تاسعًا: الأمن من شر الحاسدين؛ ذلك أن أعظمَ النعم نعمةُ الإقبالِ على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دَقَّتْ أو جَلَّتْ.

ولا نعمة أعظم من هذه النعمة؛ فأنْفُسُ الحاسدِينَ المنقطعين متعلقةٌ بها، وليس للمحسود أسلمُ من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له، وكم من صاحب قلب وجَمْعِيَّةٍ وحال مع الله قد تحدث بها، فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه [1].

٨- التضرع والخشوع والرهبة:

قال تعالى: {إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين} (سورة الأنبياء: ٩٠).

فهم يُسارعون في عمل القربات، وفعل الطاعات، ويدعون ربهم رغبًا فيما عنده من النعيم المقيم، ورهبًا مما عنده من العذاب الأليم، وهم في دعائهم يكون حالهم الخشوع والتواضع والتذلل لله تعالى. ومن أقوال الصديق أبي بكر- رضي الله عنه- في إحدى خطبه أنه قال: "أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وتُثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله- عز وجل- أثنى على زكريا وأهل بيته، **فقال: {إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين} (سورة الأنبياء: ٩٠).**

٩- الاعتراف بالذنب:

ولعل من أجمل ما يُقال في هذا المقام، هو دعاء ذو النون يونس- عليه السلام- عندما ابتلعه الحوت؛ **{وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين} (سورة الأنبياء: ٨٧- ٨٨).**

هذه الآية تشتمل على اعترافين عظيمين: الأول- وهو الاعظم-: الاعتراف بالوهية الله تعالى ووحدانيته. والثاني: الاعتراف بالذنب و التقصير و الخطأ ، فالاول يدل على تمام العبودية لله رب العالمين، والثاني يدل على قوة الايمان و الرغبة في تطبيق العبودية تطبيقا صحيحا بالتنازل عن الغرور، والتوقف عن التمادي في العصيان، والرغبة- بل العزم- في الطاعة، والاخلاص،

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (٣: ١٠) بتصرف.

والاستقامة لله تعالى. والنتيجة المترتبة على ذلك هي إجابة الدعاء، والنجاة من كل سوء. وهذا ليس خاصًا بيونس- عليه السلام- فقط؛ بل إنه شاملٌ للمؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، {وكذلك ننجي المؤمنين}.

١٠- البكاء حال الدعاء:

هو ليس شرطًا؛ لكنه من باب الافتقار والتذلل بين يدي الله تعالى، والاعتراف بضعف العبد وفقره، وغنى الرب وقدرته، ويؤيد هذا ما جاء عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ -رضي الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ- صلى الله عليه وسلم- تَلاَ قَوْلَ الله- عَزَّ وَجَلَّ- فِي إِبْرَاهِيمَ: **{رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} (سورة إبراهيم: ٣٦)**. وَقَالَ عِيسَى- عَلَيْهِ السَّلاَمُ -: **{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (سورة المائدة: ١١٨)**؛ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي" وَبَكَى. فَقَالَ الله- عَزَّ وَجَلَّ-: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ- عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- فَسَأَلَهُ. فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللّهِ بِمَا قَالَ. وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ الله: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ"[(١)].

ففي هذا الحديث بيان لكمال شفقة النبي- صلى الله عليه وسلم- على أمته، واعتنائه واهتمامه بأمرهم؛ حتى بكى- صلى الله عليه وسلم- بعدما تلا طلب أخويه إبراهيم وعيسى- عليهما السلام- لأقوامهما، قام داعيًا رافعًا يديه، باكيًا ملحًّا بطلب المغفرة لقومه، قائلًا: " اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي." قال النووي: "في الحديث بيان عظم منزلة النبي- صلى الله عليه وسلم- عند الله تعالى، وعظيم لطفه سبحانه به- صلى الله عليه وسلم-، حيث أرسل إليه جبريل- والله تعالى أعلم –؛ لينظر ما الذي يبكي محمد- صلى الله عليه وسلم-، والحكمة من إرسال جبريل- عليه السلام- مع علمه- جل وعلا- الذي وسع كل شيء علمًا بما يبكي محمد- صلى الله عليه وسلم-، هو إظهار شرف محمد- صلى الله عليه وسلم-، وأنه بالمحل الأعلى؛ فيُسترضى، ويكرم بما يرضى....

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: دعاء النبي- ﷺ- لأمته، وبكائه وشفقته، حديث رقم: (٣٣٣).

وأما قوله تعالى: " وَلاَ تَسُوءُكَ" فقال صاحب التحرير: هو تأكيد للمعنى أي لا نحزنك، لأن الإرضاء قد يحصل في حق البعض بالعفو عنهم، ويدخل الباقي النار، فقال تعالى: " نرضيك ولا ندخل عليك حزناً بل ننجي الجميع" والله أعلم"[1].

١١- أن لا يسأل إلا الله تعالى:

فينبغي للعبد المسلم أن لا يشرك مع الله تعالى أحدًا في دعائه ومناجاته، قال تعالى: {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا} (سورة الجن: ١٨). فينبغي للعبد أن لا يسأل إلا الله وحده، فهو وحده القادر على كشف الضر، وإصلاح الحال.

وقد جاء عن عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: كنت خلف رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يومًا، فقال: "يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينغفوك بسيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف"[2].

قال ابن رجب: "وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة، وقواعد كلية من أهم أمور الدين وأجلها، حتى قال بعض العلماء- وهو ابن الجوزي-: تدبرت هذا الحديث؛ فأدهشني وكدت أطيش، فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث، وقلة التفهم لمعناه"[3].

وقال ابن حجر الهيتمي: "هذا الحديث باعتبار طريقته حديثٌ عظيم الموقع، وأصلٌ كبير في رعاية حقوق الله، والتفويض لأمره، والتوكل عليه"[4].

ويُستفاد من هذا الحديث أمورٌ كثيرة، لعل من أبرزها ما يلي:

- إن مَن امتثل لأوامر الله تعالى؛ أخرجه الله تعالى من كل ضيقٍ وشدة.
- وجوب الرضا بالقضاء والقدر، والإيمان بهما.
- إن بعد كل كرب فرجًا، وبعد كل عسر يسرًا.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٧٤/٣).
(٢) أخرجه الترمذي في أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع، حديث رقم: (٢٥١٦). وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح، حديث رقم: (٥٣٠٢).
(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٣٦١/١).
(٤) فتح المبين بشرح الأربعين، لابن حجر الهيتمي (ص١٥٥).

- لن يُصيب الإنسان إلا ما كتب اللهُ له.
- من أراد أن يسأل؛ فليسأل الله.
- الأعمال الصالحة تدفع البلاء.

وقد صدق الشاعر حين قال:

لا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ
اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

١٢- عدم تكلف السجع في الدعاء:

ويؤيد هذا ما جاء عن عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: "فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه؛ فإني عهدت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك" يعني: لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب[١].

١٣- أن يجزم الدعاء، ويوقن بالإجابة (حسن الظن بالله):

فعن أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكره له"[٢].

عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم اللهَ- أيها الناس - فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل"[٣].

موقنون: واثقون جازمون ملتجئون إلى كريمٍ يده ملأى سخاء الليل والنهار، لا تغيضه نفقة، وفيه الشعور بالحاجة وعظيم قدرة المجيب سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: ما يكره من السجع في الدعاء، حديث رقم: (٥٩٧٨).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له، حديث رقم: (٥٩٧٩).
(٣) أخرجه أحمد في المسنده، حديث رقم: (٦٦٥٥)؛ وإسناده: حسن، حيث حسنه الألباني في "الترغيب والترهيب" (٣٩٧/٢).

يقول المباركفوري: "وأنتم موقنون بالإجابة، أي: كونوا عند الدعاء على حالة تستحقون بها الإجابة؛ حتى تكون الإجابة على قلوبكم أغلب من الرد، أو أراد وأنتم معتقدون أن الله تعالى لا يخيبكم لسعة كرمه، وكمال قدرته، وإحاطة علمه؛ لتحقق صدق الرجاء، وخلوص الدعاء"[(١)].

١٤- أن يفتتح الدعاء، بالثناء على الله- عزوجل-:

قال تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون} (سورة الأعراف: ١٨٠).

١٥- إظهار الداعي الشكوى إلى الله تعالى:

وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة تدل على ذلك، منها ما يلي:

- قال تعالى- على لسان يعقوب عليه السلام-: {قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون} (سورة يوسف: ٨٦).
- قال تعالى: {وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين} (سورة الأنبياء: ٨٣- ٨٤).
- قال تعالى: {وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه...} (سورة الأنبياء: ٨٩- ٩٠).

فانظر- رعالك الله- إلى حال أنبياء الله في افتقارهم وإظهارهم الشكوى لله تعالى. فالعز كل العز في الافتقار إلى الله، والفخر كل الفخر في الذل لله تعالى.

١٦- أن يُلح في الدعاء، ويكرره ثلاثًا، مع صدق الرغبة فيما عند الله تعالى:

فعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أنه قال: "كان النبي- صلى الله عليه وسلم- إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا"[(٢)].

يقول النووي معلقًا على هذا الحديث: "فيه استحباب تكرار الدعاء ثلاثًا"[(٣)].

---

(١) تحفة الأحوذي، للمباركفوري (٣١٦/٩).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد، باب: ما لقى النبي- ﷺ- من أذى المشركين، حديث رقم: (١٧٩٤)
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥٢/١٢).

ويقول ابن عثيمين: "تكرار الدعاء أمر مطلوب، كلما كرر الإنسان الدعاء كان ذلك أفضل، وقد كان من هدي النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه إذا دعا دعا ثلاثًا، هذا في غالب الأحيان، وعلى هذا فتكرار الدعاء لا بأس به؛ لأن الدعاء عبادة لله- عز وجل-، وليعلم أن الداعي بصدق وإخلاص لا بد أن يغنم: إما أن يستجيب الله تعالى له ما أراد، وإما أن يدفع عنه من السوء ما هو أعظم، وإما أن يدخر له الأجر يوم القيامة؛ لأن الدعاء عبادة؛ فلا بد فيه من خير"[١].

فالغالب من هدي رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أنه كان يكرر الدعاء ثلاث مراتٍ، وإن كان قد ثبت عنه أنه دعا مرةً خمس مرات، وذلك حين دعا بالبركة لقبيلة أحمس، كما جاء عن جرير بن عبد الله- رضي الله عنه- أنه قال: "برَّك النبي- صلى الله عليه وسلم- على خيل أحمس ورجالها خمس مراتٍ"[٢].

قال ابن حجر معلقًا على هذا الحديث: "كان النبي- صلى الله عليه وسلم- يدعو وترًا، وقد يجاوز الثلاث مرات، وفيه تخصيص لحديث "كان إذا دعا دعا ثلاثًا"؛ فيحمل على الغالب، وكأن الزيادة لمعنى اقتضى ذلك، وهو ظاهر في أحمس؛ لما اعتمدوه من دحض الكفر ونصر الإسلام، ولا سيما مع القوم الذين هم منهم؛ بل جاء عن عائشة أنه- صلى الله عليه وسلم- كرر دعاءه"[٣].

وكذلك ورد تكرار الدعاء سبع مرات في أكثر من حديث، ومنها: ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "ما استجار عبدٌ من النار سبع مرات في يوم؛ إلا قالت النار: يا رب، إن عبدك فلانًا قد استجارك مني فأجره. ولا يسأل اللهَ عبدٌ الجنة في يوم سبع مرات؛ إلا قالت الجنة: يا رب، إن عبدك فلانًا سألني فأدخله"[٤].

---

(١) فتاوى نور على الدرب، لابن عثيمين (متفرقات/ الدعاء).
(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري برقم (٤٣٥٧)؛ وأخرجه مسلم برقم: (٢٤٧٦). واللفظ للبخاري.
(٣) فتح الباري، لابن حجر (٧٣/٨).
(٤) رواه أبو يعلى في المسند (٥٤/١١) بهذا اللفظ؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: (٢٥٠٦).

وعن عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "من عاد مريضًا لم يضر أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك؛ إلا شافاه الله من ذلك المرض"[١].

وبناءً عليه؛ فإن السنة في تكرار الدعاء أن يكون ثلاث مرات ومن زاد فلا حرج عليه، كما أن من اقتصر في دعائه على مرة واحدة فلا حرج أيضًا، حيث ثبت عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- جميع ذلك.

١٧- ألا يُضيق على نفسه في الدعاء، وألا يتحجر في دعائه:

فينبغي للعبد ألا يضيق على نفسه في الدعاء، وله أن يسأل حاجته كلها، وعليه أن لا يتحجر، ويبتعد عن كل ما يتنافى مع قدرة الله تعالى، وعظمته وجلاله، وفيض جوده وإحسانه.

كما ينبغي للعبد أن يلتمس من خالقه سبحانه ما يتناسب مع فضله وكرمه ورحمته. فلا يضيق على نفسه ما وسعه الله؛ بل عليه أن يسأل اللهَ تعالى حاجته كلها، وقد أرشدنا النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى هذا، فقال: "إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإنه لا يتعاظم على الله شئ"[٢].

ولقد أمرنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن نستعين بالله تعالى في أمورنا كلها صغيرها وكبيرها، حقيرها وعظيمها، فقال- صلى الله عليه وسلم-: "ليسأل أحدكم حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع" [٣].

وعليه ألا يتحجر في دعائه، حيث إنه مما يتنافى مع جلال الله تعالى، وعظيم كرمه، أن يتحجر العبد في دعائه، فقد ورد أن النبي- صلى الله عليه وسلم- لما سمع الأعرابي يقول: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا؛ فقال له: "لقد تحجرت واسعًا"[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، حديث رقم: (٣١٠٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: العزم بالدعاء ولا يقل: إن شئت، حديث رقم: (٢٦٧٨). من حديث أنس (رضي الله عنه).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: ما يكره من السجع في الدعاء، حديث رقم: (٥٩٧٨).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، حديث رقم: (٦٠١٠).

١٨- عدم اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى:

فإن كان العبد راضيًا بالأقدار، غير قنوط من فضل الله تعالى؛ فالغالب بتعجيل الإجابة عندئذٍ، ولأنه يصلح الإيمان، ويهزم الشيطان[١]. وقد **قال تعالى: {لا تقنطوا من رحمة الله} (سورة الزمر: ٥٣).**

١٩- إطابة المطعم والمشرب والملبس:

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "أيها الناس، إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إني بما تعملون عليم. وقال: يا أيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام؛ فأنى يُستجاب لذلك"[٢].

وهنا لابد من بيان أن الطيب في صفة الله تعالى بمعنى: المنزه عن النقائص، وهو بمعنى القدوس، وأصل الطيب الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث، ويُعد هذا الحديث أحد الأحاديث التي هي بمثابة قواعد الإسلام، ومباني الأحكام. وفيه الحث على الإنفاق من الحلال، والنهي عن الإنفاق من غيره. وفيه أيضًا أن المشروب والمأكول والملبوس، ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالًا خالصًا لا شبهة فيه، وأن من أراد الدعاء؛ كان أولى بالاعتبار بذلك من غيره[٣].

٢٠- عدم استعجال الإجابة:

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يُستجب لي"[٤].

٢١- الدعاء بصالح الأعمال:

ويؤيد هذا ما جاء عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أنه قال- قال: سمعتُ رسولَ الله - صلَّى الله عليْه وسلَّم - يقول: "انطلق ثلاثةُ رهْطٍ ممَّن كان قبلكم، حتَّى أوَوا المبيتَ إلى غارٍ

---

(١) انظر: صيد الخاطر، لابن الجوزي (١٥٨).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم: (١٠١٥).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، (٨٨/٧).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: يُستجاب للعبد ما لم يعجل، حديث رقم: (٥٩٨١).

فدخلوه، فانحدرتْ صخرةٌ من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنَّه لا يُنجيكم من هذه الصَّخرة إلاَّ أن تدعوا الله بصالِح أعمالكم، فقال رجُل منهم: اللَّهُمَّ كان لي أبَوانِ شيْخان كبيران، وكنت لا أغْبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي في طلب شيءٍ يومًا فلم أرُح عليهما حتَّى ناما، فحلبتُ لهُما غبوقَهما فوجدتُهما نائمَين، وكرهت أن أغبقَ قبلَهما أهلاً أو مالاً، فلبثْتُ والقدح على يدي أنتظِر استيقاظَهُما حتَّى برق الفجْر، فاستيْقَظا فشرِبَا غبوقَهما، اللَّهُمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتِغاء وجْهِك، ففرِّج عنَّا ما نحن فيه من هذه الصَّخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج". قال النَّبي- صلَّى الله عليْه وسلَّم -: "وقال الآخَر: اللَّهُمَّ كانتْ لي بنتُ عمّ، كانت أحبَّ النَّاس إليَّ، فأردتُها عن نفسِها، فامتنعتْ منِّي حتَّى ألمَّت بها سَنةٌ من السنين، فجاءتْني فأعطيتُها عشرين ومائة دينار على أن تُخلي بيْني وبين نفسِها، ففعلتْ، حتَّى إذا قدرتُ عليْها قالت: لا أحلّ لك أن تفضَّ الخاتم إلاَّ بحقِّه، فتحرَّجت من الوقوع عليْها، فانصرفتُ عنْها وهي أحبُّ النَّاس إليَّ، وتركت الذَّهَب الَّذي أعطيتُها، اللَّهُمَّ إن كنتُ فعلت ابتغاء وجهِك، فافْرُج عنَّا ما نحن فيه، فانفرجت الصَّخرة غير أنَّهم لا يستطيعون الخروج منها". قال النَّبيُّ- صلَّى الله عليْه وسلَّم-: "وقال الثَّالث: اللَّهُمَّ إنِّي استأجرتُ أُجراءَ فأعطيْتُهم أجرَهم غير رجُل واحدٍ ترَك الَّذي له وذهب، فثمَّرت أجْرَه حتَّى كثُرَت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله، أدِّ إليَّ أجْري، فقلتُ له: كلُّ ما ترى من أجرِك، من الإبل والبقر والغنم والرَّقيق، فقال: يا عبد الله، لا تستهزئْ بي، فقلت: إنِّي لا أستهزئُ بك، فأخَذه كلَّه فاستاقَه، فلم يترك منْه شيئًا، اللَّهُمَّ فإن كنت فعلتُ ذلك ابتِغاء وجْهِك، فافرجْ عنَّا ما نحن فيه، فانفرجتِ الصَّخرة، فخرجوا يَمشون"[1].

ومما يُستفاد من هذا الحديث: أن من أعظم الأسباب التي تُدفع بها المكاره: الدعاء، فإن الله تعالى سمع دعاء هؤلاء، واستجاب لهم. كما أن الإخلاص من أهم أسباب تفريج الكروب؛ لأن كل واحد من هؤلاء قال: اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك من أجلي فافرج عنا ما نحن فيه. كما أنه يجوز التوسل إلى الله تعالى بصالح الأعمال، حيث إن كل واحد من هؤلاء قد توسل إلى الله- عز

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، حديث رقم: (٣٢٧٨)؛ وأخرجه مسلم في كتاب: الرقاق، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة، والتوسل بصالح الأعمال، حديث رقم: (٢٧٤٣).

وجل- بعمله الصالح، وأن الله تعالى قد علم صدق نيتهم؛ فاستجاب لهم، وكشف عنهم ما هم فيه من الضيق والشدة.

٢٢- الصلاة على النبي- صلى الله عليه وسلم- بعد الانتهاء من الدعاء:

عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: "إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك صلى الله عليه وسلم"[١].

يُستفاد من الحديث استحباب الصلاة على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بعد الانتهاء من الدعاء.

ولكن هذا ليس شرطًا في الدعاء، بدليل أن النبي- صلى الله عليه وسلم- لم يلتزم هذا في جميع الأدعية، وإنما يؤخذ هذا- كما قلنا- على الاستحباب.

وقد ذكر ابن القيم في كتابه "جلاء الأفهام" أن الصلاة على النبي- صلى الله عليه وسلم- مع الدعاء على ثلاث مراتب، وهي:

- المرتبة الأولى: تُعد أكمل المراتب، وهي الصلاة على النبي- صلى الله عليه وسلم- في فاتحة الدعاء، ووسطه، وخاتمته، وإنها للدعاء كالجناح يصعد بخالصه إلى عنان السماء.
- المرتبة الثانية: في أوله وآخره.
- المرتبة الثالثة: في أوله[٢].

وقد أخرج الترمذي عن فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "إذا صلى أحدكم؛ فليبدأ بتحميد الله، والثناء عليه، ثم ليصل على النبي- صلى الله عليه وسلم- ، ثم ليدع بعد بما شاء"[٣].

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: "إذا أراد أحدكم أن يسأل؛ فليبدأ بالمدحة والثناء على الله بما هو أهله، ثم ليصل على النبي- صلى الله عليه وسلم-، ثم ليسأل بعدُ، فإنه أجدر أن ينجح"[١].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٨٦)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي. وقد أورده الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (٢٠٣٥) من قول النبي- ﷺ-، وذكر شواهده، ثم قال: "وخلاصة القول: إن الحديث بمجموع هذه الطرق والشواهد لا ينزل عن مرتبة الحسن إن شاء الله تعالى على أقل الأحوال.

(٢) انظر في تفصيل تلك المراتب: إجلاء الأفهام، لابن القيم (ص٥٣١-٥٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي برقم: (٣٤٧٧)؛ وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

٢٣- أن يبدأ الدعاء لنفسه، ثم يدعو لغيره من المسلمين:

ويؤيد هذا ما جاء عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إذا صلى أحدكم فليقل: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله"[٢].

قال ابن حجر: "قوله: السلام عليكم، استُدل به على استحباب البداءة بالنفس في الدعاء. وفي الترمذي مصححًا من حديث أبي بن كعب أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- كان إذا ذكر أحدًا فدعا له؛ بدأ بنفسه"[٣].

وفي الحديث دليلٌ على أنَّ الإنسان إذا دعا لأحد أو استغفر له يبدأ بالدعاء لنفسه والاستغفار لها ، وعليه وردت الأدعية القرآنية[٤].

ويُعد هذا الفعل من هدي الأنبياء- عليهم السلام-، والمؤمنين من بعدهم، حيث قال تعالى على لسان نبيه نوح- عليه السلام-: {رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارًا} (سورة نوح: ٢٨).

وقال تعالى على لسان خليله إبراهيم- عليه السلام-: {رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء. ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب} (سورة إبراهيم: ٤٠- ٤١). وهو فعل المؤمنين أيضًا، حيث قال تعالى: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين ءامنوا ربنا إنك رءوفٌ رحيم} (سورة الحشر: ١٠).

٢٤- أن يدعو بخير:

فلكي يكون الدعاء مقبولًا ومرجوًّا عند الله تعالى؛ لا بد أن يكون في الخير، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يدع بإثم"[١].

---

(١) رواه الطبراني بهذا اللفظ؛ وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (٣٢٠٤).
(٢) أخرجه البخاري، في أبواب صفة الصلاة، باب: التشهد في الآخرة، حديث رقم: (٧٩٧).
(٣) فتح الباري، لابن حجر (٣١٤/٢).
(٤) سبل السلام، للصنعاني (٢٤٣/٢).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم؛ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها". قالوا: إذًا نكثر. قال: الله أكبر"[٢].

٢٥- التأمين من المستمع:

وذلك بأن يختم الدعاء بقول "آمين"، أبي زهير النميري- رضي الله عنه- قال: "خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فأتينا على رجل قد ألح في المسألة: فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه، فقال: أوجب إن ختم. فقيل: بأي شئ يختم يا رسول الله؟ فقال: بآمين، وانصرف. فقيل للرجل يا فلان اختم بآمين وأبشر"[٣].

وقد ورد أن موسى- عليه السلام- كان يدعو، وكان أخوه هارون- عليه السلام- يؤمن على دعائه، لذلك استجاب الله تعالى لهما دعاءهما. **قال تعالى: {وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالًا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أُجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون} (سورة يونس: ٨٨- ٨٩)** [٤].

❄❄❄❄❄❄❄❄

رابعًا: موانع استجابة الدعاء:

اعلم- رعاك الله- أن الدعاء بمنزلة السلاح، والسلاح- كما هو معلوم- بضاربه لا بحدِّه فقط، فمتى كان السلاح تامًّا لا آفة به، والساعد ساعدًا قويًّا لا ضعف فيه، والمانع مفقودًا لا وجود له؛ حصلت به النكاية في العدو. ومتى تخلفت الثلاثة- السلاح والساعد والمانع- أو أحدها؛ تخلف الأثر.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، فيقول: دعوت فلم يستجب لي، حديث رقم: (٢٧٣٥).
(٢) رواه أحمد (٢١٨/٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠)، والحاكم في المستدرك (٦٧٠/١)، وقال الألباني في "صحيح الأدب المفرد" (٥٤٧): حديث صحيح.
(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: التأمين وراء الإمام، حديث رقم: (٩٣٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤١١/٢).

والدعاء يُعد بمثابة سلاح المؤمن، ينفع مما نزل ومما لم ينزل. وبقدر قوة اليقين بالله تعالى، والاستقامه على الصراط المستقيم، وبذل الجهد لإعلاء كلمة الله تعالى؛ تكون إجابة الدعاء بما هو أصلح للعبد، وإذا حصل الدعاء بشروطه، فإن الله- تبارك وتعالى- إما أن يعطي السائل ويستجيب له، وإما أن يؤخره ليُكثر السائل من البكاء والتضرع، وإما أن يعطيه شيئًا آخر أنفع له من سؤاله، أو يرفع به عنه بلاءً، أو يؤخره إلى يوم القيامة.

وجديرٌ بالذكر أنه لا شيء أقسى على نفس المسلم التقيّ من أن يكون دعاؤه لربّه تعالى غير مستجاب، ويؤيد ذلك ما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه قال: "كانَ مِن دعاءِ النَّبيِّ- صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِن عِلمٍ لا ينفعُ، ومِن دعاءٍ لا يُسمَعُ، ومِن قلبٍ لا يَخشعُ، ومِن نفسٍ لا تشبعُ"[1]. وفي محكم التنزيل على لسان الخليل إبراهيم- عليه السلام- قوله حين اعتزل ما يبعد قومه من الأصنام والكفر: {عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً}(سورة مريم:٤٨)، فعدم استجابة الدعاء هو من شقاء النفس بلا شك، ذلك أنّ النفس السعيدة المطمئنة بربّها وقربه هي النفس التي إذا دعت الرحمن أجابها، وإذا سألته أعطاها مسألتها.

وبناءً عليه، فإن هناك موانع تتسبب في عدم إجابة الدعاء، وهي كثيرة، ولكن يمكن تلخيصها في الرواية التي جاءت عن إبراهيم بن أدهم، أنه قيل له: ما لنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟

فكانت إجابته كالتالي:

١- لأنكم عرفتم الله تعالى؛ فلم تطيعوه.
٢- عرفتم الرسول- صلى الله عليه وسلم-؛ فلم تتبعوا سنته.
٣- عرفتم القرآن؛ فلم تعملوا به.
٤- أكلتم نعم الله تعالى؛ فلم تؤدوا شكرها.
٥- عرفتم الجنة؛ فلم تطلبوها.
٦- عرفتم النار؛ فلم تهربوا منها.
٧- عرفتم الشيطان؛ فلم تحاربوه؛ بل وافقتموه.
٨- عرفتم الموت؛ فلم تستعدوا له.
٩- دفنتم الأموات؛ فلم تعتبروا.
١٠- تركتم عيوبكم، وانشغلتم بعيوب الناس.

(١) أخرجه ابن ماجه، في المقدمة، باب: الانتفاع بالعلم والعمل به، حديث رقم: (٢٥٠).

الفصل الثاني

الافتقار إلى الله تعالى في حياة الأنبياء (عليهم السلام).

فيه ثلاثة عشر مبحثًا:

المبحث الأول: الافتقار إلى الله تعالى في حياة آدم (عليه السلام).

المبحث الثاني: الافتقار إلى الله تعالى في حياة نوح (عليه السلام).

المبحث الثالث: الافتقار إلى الله تعالى في حياة إبراهيم (عليه السلام).

المبحث الرابع: الافتقار إلى الله تعالى في حياة يعقوب (عليه السلام).

المبحث الخامس: الافتقار إلى الله تعالى في حياة يوسف (عليه السلام).

المبحث السادس: الافتقار إلى الله تعالى في حياة أيوب (عليه السلام).

المبحث السابع: الافتقار إلى الله تعالى في حياة يونس (عليه السلام).

المبحث الثامن: الافتقار إلى الله تعالى في حياة موسى(عليه السلام).

المبحث التاسع: الافتقار إلى الله تعالى في حياة داود (عليه السلام).

المبحث العاشر: الافتقار إلى الله تعالى في حياة سليمان (عليه السلام).

المبحث الحادي عشر الافتقار إلى الله تعالى في حياة زكريا (عليه السلام).

المبحث الثاني عشر: الافتقار إلى الله تعالى في حياة عيسى (عليه السلام).

المبحث الثالث عشر: الافتقار إلى الله تعالى في حياة رسول الله، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم).

تمهيد

لقد كان الافتقار لدى الأنبياء- عليهم السلام- بمثابة الشعور بالعجز، والفقر إلى الله تعالى، وفي المقابل شعورٌ بقدرة الله تعالى على تحقيق ما عجزوا عنه، وهذا- بلا شك- هو عين العبودية لله تعالى، والامتثال لطاعته سيحانه.

وجديرٌ بالذكر أن الأنبياء- عليهم السلام- لا بد لكلٍّ منهم من التحصن من أذى قومه، وذلك باللجوء إلى الله تعالى؛ ليعصمه. حيث كان للأنبياء- عليهم السلام- مع أقوامهم مواقف حرجة، لم ينقذهم منها إلا صدق الالتجاء، وقوة الاحتماء بالخالق القدير- تبارك وتعالى-، فكانت لهم فنون من الدعاء الجميل، والذكر الرفيع، والافتقار الحقيقي إلى الله تعالى؛ فرفعوا أكف الضراعة، منيبين إليه، ينشدون عونه، يرجون فضله، حيث كانت لهم في هذه المواقف أنبل كلمات الدعاء، وأجمل ألفاظ المناجاة والتوسل إلى الله تعالى[1].

وكما هو معلوم أن الأنبياء- عليهم السلام- هم خير مَن توجه إلى الله- عز وجل- بأكمل الصيغ من الدعاء والتضرع والافتقار، فكما أن لهم حاجات بشرية تُقضى بالدعاء، فإن هذه الأدعية تُعد من أهم وسائل تعبدهم، فلا بد لهم عند إنشاء السؤال أن يُظهر السؤال تعبدهم وفاقتهم، وأن تمتلىء قلوبهم بأكمل المعاني التي يتصف بها ربهم- تبارك وتعالى-؛ لذلك نجد بين أدعية الأنبياء- عليهم السلام- وافتقارهم: التلازم والتناوب بين المسألة والعبادة والثناء.

يقول ابن تيمية: "كل مخلوق فقير بذاته إلى الله تعالى، فقره من لوازم ذاته، يمتنع أن يكون فقيرًا إلا إلى خالقه، وليس لأحد غنى بنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه فقير إليه، ويكمن فقر المخلوق من جهتين: من جهة ربوبية الله، ومن جهة إلهيته.

---

(١) انظر: دعاء الأنبياء، للجاويش (ص٨).

بمعنى أنه فقير إلى الله من جهة عبادته له، ومن جهة الاستعانة به، والاستسلام إلى الخالق، والانقياد له؛ ليشمل حياته كلها... والأنبياء كذلك محتاجون مفتقرون إلى الله دائمًا بالتوكل عليه، فتراهم متوكلين عليه، مستعينين به، يشهد دعاؤهم على افتقارهم، فكانوا بذلك عُبَّادًا لله، ليس لهم حول ولا قوة إلا به، ولا ملجأ لهم من الله إلا إليه"[1].

وفي هذا الفصل نتناول الافتقار إلى الله- عز وجل- في حياةٍ عددٍ من الأنبياء- عليهم السلام-؛ لنأخذ العبرة والعظة، ولنقتدي بمَن اصفاهم الله تعالى لحمل رسالته.

قال تعالى: {أولئك الذين هدى اللهُ فبهداهم اقتده...} (سورة الأنعام: ٩٠).

وقال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو اللهَ واليوم الآخر وذكر اللهَ كثيرًا} (سورة الأحزاب: ٢١).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣١/١٤).

المبحث الأول

الافتقار إلى الله تعالى في حياة آدم (عليه السلام):

يُعد آدم- عليه السلام- أبو البشر، وأول الأنبياء، حيث خلقه الله تعالى بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وعلمه الأسماء كلها، قال تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشرًا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} (سورة ص: ٧١- ٧٢).

وبعد أن خلق الله تعالى آدم؛ لم يتركه وحده؛ بل خلق له زوجه حواء من ضلعه، وأسكنهما الجنة، وأنذرهما أن لا يقربا شجرةً معينة؛ لكن الشيطان وسوس لهما حتى أكلا منها؛ فبدت لهما سوءاتهما؛ فأنزلهما الله تعالى من الجنة إلى الأرض، ومكَّن لهما سبل العيش فيها، وأمرهما بعبادة الله وحده، وحضِّ أبناءهما على ذلك.

والافتقار في دعاء آدم- عليه السلام- يدور في أربعة محاور، وهي: ظلم النفس، وطلب المغفرة، والرحمة، والخوف من الخسران.

يقول تعالى: {فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} (سورة الأعراف: ٢٢-٢٣).

يقول الزمخشري: "دعاء آدم حين عصا ربه...فقد صوره ربه صورة العبد المذنب، وفي هذا عتاب من الله، وتوبيخ، وتنبيه على الخطأ، حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس"[(١)].

ونلاحظ في "ألم أنهكما" أنه استفهام غرضه التقرير والتوبيخ لمخالفة آدم وحواء أمر ربهما، واتباعها لعدوهما إبليس عليه لعنة الله.

---

(١) الكشاف، للزمخشري (٩٢/٢).

يقول ابن عاشور: "ظلمنا أنفسنا: اعتراف بالعصيان، وبأنهما علما أن ضرر المعصية عاد عليهما، فكانا ظالمين لأنفسهما، إذ جرا على أنفسهما الدخول في طور ظهور السوآت، ومشقة اتخاذ ما يستر عوراتهما، وبأنهما جرا على أنفسهما غضب الله تعالى، فهما في توقع حقوق العذاب، وقد جزما بأنهما يكونان من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما، إما بطريق الإلهام، أو نوع من الوحي، وإما بالاستدلال على العواقب بالمبادىء، فإنهما رأيا من العصيان بوادىء الضر والشر؛ فعلما أنه غضب من الله، ومن مخالفة وصايته، وقد أكدا حمله جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد (لنكونن)؛ إظهارًا لتحقيق الخسران استرحامًا واستغفارًا من الله تعالى"[1].

ونلاحظ هنا أن آدم- عليه السلام- حينما توجه لدعاء ربه- تبارك وتعالى- بدأ دعاءه وافتقاره أولًا بالاعتراف بالذنب، وسماه: ظلمًا لنفسه، وهذا هو أسلوب الأنبياء والصالحين في استعظامهم الصغيرة من السيئات، وكان من الممكن أن يستغفر مباشرةً، دون الاعتراف بالذنب؛ لكنه اجتهد في الافتقار والدعاء ما في وسعه؛ فبدأه باعترافه بذنبه، وظلمه لنفسه، ثم طلب المغفرة، ثم الرحمة، ثم الإقرار بأن عمله يؤدي- لا محالة- إلى الخسران إن لم يغفر له الرحمن، ويرحمه برحمته التي وسعت كل شيء.

❄❄❄❄❄❄❄

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (ج٩/ ٦٧).

المبحث الثاني

الافتقار إلى الله تعالى في حياة نوح (عليه السلام):

يُعد نوح- عليه السلام- أحد أولي العزم الخمسة، الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم الغليظ، والذي ذكره القرآن الكريم في **قول الله تعالى: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا} (سورة الأحزاب: ٧).**

وجديرٌ بالذكر أن الله- تبارك وتعالى- لمّا أراد أن يمتدح نبيّه نوحًا- عليه السلام- امتدحه بمزيّة الشكر التي كان يتخلّق بها **فقال عنه: "إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا" (سورة الإسراء: ٣).**

ففي الخطاب الإلهي تهييج وتنبيه إلى منّة الله- عز وجل - على عباده الذين اصطفاهم الله تعالى، واختارهم في سفينة نوحٍ- عليه السّلام -؛ ذلك أنّ منّة الهداية، ونعمة الاصطفاء للإسلام من أجلّ النّعم التي تستحق الشكر للحمل والثناء لله تعالى، فنوحٌ-عليه السّلام - قد سمّاه الله عبدًا شكورًا؛ نتيجة صبره على أذى قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، وعبادته لله تعالى وسط تلك الغربة من أهله وقومه، وكان مع ذلك يشكر الله تعالى في جميع أحواله وشأنه كله[1].

وكما هو معلوم للكثيرين منَّا أن نوحًا- عليه السلام- ظل يدعو قومه لعبادة الله وحده، ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، وعلى الرغم من طول هذه المدة؛ إلا أنه لم يؤمن بدعوته إلا نفر قليل، كان عددهم قرابة الثمانين رجلًا، **قال تعالى: {ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون} (سورة العنكبوت: ١٤).**

فانظر معي إلى هذا النبي الصابر، عاش قبل البعثة أربعين عامًا، وظل يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنةٍ، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا... لعل الهدف من ذكر هذه القصة في القرآن الكريم هو تسلية قلب المصطفى- صلى الله عليه وسلم-؛ ليصبر على ما يلاقيه من أذى قومه، وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير(٤٦/٥)؛ وانظر: لطائف الإشارات للقشيري، عبد الكريم بن هوازن بن الملك القشيري، ت: إبراهيم البسيوني، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط٣، (د.ت)، (٣٣٥/٢).

وعندما نتحدث عن الافتقار في حياة نوح- عليه السلام-؛ نجد أن هناك العديد من الآيات القرآنية التي تحدثت عن صبره وشكره، وافتقاره إلى ربه تعالى؛ حتى أنه من أولي العزم- كما سبق ذكره-، ومن الآيات القرآنية التي تحدثت عن ذلك ما يلي:

١- **قال تعالى: {ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسئلن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين. قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين} (سورة هود: ٤٥-٤٦-٤٧).**

إن موقع الآية يقتضي أن نداء نوح - عليه السلام - هذا كان بعد استواء السفينة على جبل الجودي، نداءً دعاه إليه داعي الشفقة، فأراد به نفع ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدنيا؛ لأن الله تعالى أعلمه أنه لا نجاة إلا للذين يركبون السفينة، ولأن نوحًا - عليه السلام - لما دعا ابنه إلى ركوب السفينة فأبى، وجرت السفينة؛ قد علم أنه لا وسيلة إلى نجاته، فكيف يسألها من الله؟ فتعين أنه سأل له المغفرة، ويدل لذلك قوله تعالى: { فلا تسألني ما ليس لك به علم}.

ويجوز أن يكون دعاء نوح- عليه السلام- هذا وقع قبل غرق الناس، أي: نادى ربه أن ينجي ابنه من الغرق. ويجوز أن يكون بعد غرق من غرقوا، أي: نادى ربه أن يغفر لابنه، وأن لا يعامله معاملة الكافرين في الآخرة .

والنداء هنا نداء دعاء، فكأنه قيل: ودعا نوح ربه؛ لأن الدعاء يصدر بالنداء غالبًا، والتعبير عن الجلالة بوصف الرب مضافًا إلى نوح- عليه السلام- تشريفٌ لنوح، وإيماء إلى رأفة الله به، وأن نهيه الوارد بعده نهي عتاب.

وجملة: { فقال رب إن ابني من أهلي } بيان للنداء، ومقتضى الظاهر أن لا تعطف بفاء التفريع، يريد أن ذلك إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر، فإن وجود الفاء في الجملة التي هي بيان للنداء قرينة على أن فعل "نادى" مستعار لمعنى إرادة النداء، أي: أراد نداء ربه؛ فأعقب إرادته بإصدار النداء، وهذا إشارة إلى أنه أراد النداء فتردد في الإقدام عليه؛ لما علم من قوله

تعالى: { إلا من سبق عليه القول منهم...}. فلم يطل تردده لما غلبته الشفقة على ابنه؛ فأقدم على نداء ربه، ولذلك قدم الاعتذار بقوله: {إن ابني من أهلي}. فقوله: {إن ابني من أهلي}. خبر مستعمل في الاعتذار والتمهيد؛ لأنه يريد أن يسأل سؤالًا لا يدري قبوله، ولكنه اقتحمه؛ لأن المسؤول له من أهله؛ فله عذر الشفقة عليه. وتأكيد الخبر بـ (إن) للاهتمام به .

وكذلك جملة: { وإن وعدك الحق} خبر مستعمل في لازم الفائدة، وهو أنه يعلم أن وعد الله حق.

والمراد بالوعد في قوله تعالى: { إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون}. إذ أفاد ذلك أن بعض أهله قد سبق من الله تقدير بأنه لا يركب السفينة. وهذا الموصول متعين لكونه صادقًا على ابنه، إذ ليس غيره من أهله طلب منه ركوب السفينة وأبى، وأن من سبق علم الله بأنه لا يركب السفينة من الناس فهو ظالم، أي: كافر، وأنه مغرق، فكان عدم ركوبه السفينة وغرقه أمارة أنه كافر. فالمعنى: أن نوحًا- عليه السلام- لا يجهل أن ابنه كافر، ولذلك فسؤال المغفرة له عن علمٍ بأنه كافر، ولكنه يطمع لعل الله أن يعفو عنه لأجل قرابته به، فسؤاله له المغفرة بمنزلة الشفاعة له عندً الله تعالى، وذلك أخذ بأقصى دواعي الشفقة والرحمة بابنه، والافتقار إلى ربه تبارك وتعالى.

وقرينة ذلك كله قوله: {وأنت أحكم الحاكمين}. المفيد أنه لا راد لما حكم به وقضاه، وأنه لا دالة عليه لأحد من خلقه، ولكنه مقام تضرع وسؤال ما ليس بمحالٍ.

وقد كان نوح- عليه السلام - غير منهي عن ذلك، ولم يكن تقرر في شرعه العلم بعدم المغفرة للكافرين، فكان حال نوح- عليه السلام - كحال النبي- صلى الله عليه وسلم- حين قال لأبي طالب: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنك". قبل أن ينزل قوله تعالى: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} (سورة التوبة: ١١٣).

والاقتصار على هذه الجمل الثلاث في مقام الدعاء تعريض بالمطلوب؛ لأنه لم يذكره، وذلك ضربٌ من ضروب التأدب والتردد في الإقدام على المسئول، استغناءً بعلم المسئول، كأنه يقول : أسألك أم أترك.

ومعنى { أحكم الحاكمين }: أشدهم حكمًا . واسم التفضيل يتعلق بماهية الفعل، فيفيد أن حكمه لا يجور وأنه لا يبطله أحد.

ومعنى قوله - تعالى : { إنه ليس من أهلك}. نفي أن يكون من أهل دينه واعتقاده، فليس ذلك إبطالا لقول نوح- عليه السلام-: { إن ابني من أهلي }. ولكنه إعلامٌ بأن قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة.

وجملة: { إنه عمل غير صالح} تعليل لمضمون جملة: { إنه ليس من أهلك} فإن فيه لمجرد الاهتمام .

و (عمل) في قراءة الجمهور - بفتح الميم وتنوين اللام - مصدر أخبر به للمبالغة وبرفع (غير) على أنه صفة (عمل). وقرأه الكسائي، ويعقوب (عمل) بكسر الميم بصيغة الماضي وبنصب (غير) على المفعولية لفعل (عمل). ومعنى العمل غير الصالح: الكفر، وأطلق على الكفر عمل؛ لأنه عمل القلب، ولأنه يظهر أثره في عمل صاحبه، كامتناع ابن نوح من الركوب الدال على تكذيبه بوعيد الطوفان.

وتفرع على ذلك نهيه أن يسأل ما ليس له به علم نهي عتاب؛ لأنه لما قيل له: { إنه ليس من أهلك } بسبب تعليله بأنه عمل غير صالح، سقط ما مهد به لإجابة سؤاله، فكان حقيقًا بأن لا يسأله، وأن يتدبر ما أراد أن يسأله من الله تعالى.

وقرأه نافع ، وابن عامر، وأبو جعفر: فلا تسألني- بتشديد النون- وهي نون التوكيد الخفيفة، ونون الوقاية أدغمتا. وأثبت ياء المتكلم من عدا ابن كثير من هؤلاء. أما ابن كثير فقرأ (فلا تسألن) بنون مشددة مفتوحة.

وقرأه أبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف (فلا تسألن) بسكون اللام وكسر النون مخففة على أنه غير مؤكد بنون التوكيد ومعدى إلى ياء المتكلم. وأكثرهم حذف الياء في حالة الوصل، وأثبتها في الوصل ورش عن نافع وأبي عمرو. ثم إن كان نوح- عليه السلام- لم يسبق له وحي من الله بأن الله لا يغفر للمشركين في الآخرة؛

كان نهيه عن أن يسأل ما ليس له به علم، نهي تنزيه لأمثاله؛ لأن درجة النبوة تقتضي أن لا يقدم على سؤال ربه سؤلًا لا يعلم إجابته. وإن كان قد أوحي إليه بذلك من قبل، كما دل عليه قوله: { وإن وعدك الحق }. وكان سؤاله المغفرة لابنه طلبًا تخصيصه من العموم، وكان نهيه نهي لوم وعتاب، حيث لم يتبين من ربه جواز ذلك.

وكان قوله: { ما ليس لك به علم } محتملًا لظاهره، ومحتملًا لأن يكون كناية عن العلم بضده، أي: فلا تسألني ما علمت أنه لا يقع.

وقوله: { إني أعظك أن تكون من الجاهلين } موعظة على ترك التثبت قبل الإقدام.

والجهل فيه ضد العلم، وهو المناسب لمقابلته بقوله: { ما ليس لك به علم}. فأجاب نوح- عليه السلام - كلام ربه بما يدل على التنصل مما سأل؛ فاستعاذ أن يسأل ما ليس له به علم، فإن كان نوح- عليه السلام- أراد بكلامه الأول التعريض بالسؤال، فهو أمر قد وقع، فالاستعاذة تتعلق بتبعة ذلك، أو بالعود إلى مثله في المستقبل. وإن كان إنما أراد التمهيد للسؤال؛ فالاستعاذة ظاهرة، أي: الانكفاف عن الإفضاء بالسؤال.

وقوله: { وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين }. طلب المغفرة ابتداءً؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، ثم أعقبها بطلب الرحمة؛ لأنه إذا كان بمحل الرضى من الله تعالى؛ كان أهلًا للرحمة[1].

وهنا يقول ابن تيمية: "فهذا ليس صيغة طلب، وإنما هو إخبارٌ عن الله تعالى، أنه إن

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٣/ ٨٤-٨٨) بتصرف.

لم يغفر له ويرحمه؛ خسر، ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة"[1].

٢- **قال تعالى: {قال رب انصرني بما كذبون} (سورة المؤمنون: ٢٦)؛ وقوله تعالى: {قال رب إن قومي كذبون. فافتح بيني وبينهم فتحًا ونجني ومن معي من المؤمنين} (سورة الشعراء: ١١٧- ١١٨)؛ وقوله تعالى: {فدعا ربه أني مغلوبٌ فانتصر} (سورة القمر: ١٠).**

هذه الآيات فيها الأدلة القاطعة على صدق نوح- عليه السلام- في افتقاره إلى الله تعالى، وطلبه النصر منه، والنجاة من أذى قومه.

قال تعالى: {قال يا قوم إني لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجلٍ مسمىً إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون.قال رب إني دعوت قومي ليلًا ونهارًا. فلم يزدهم دعائي إلا فرارًا. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارًا. ثم إني دعوتهم جهارًا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارًا. فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا} (سورة نوح: الآيات ٢: ١٠).

ففي هذه الآيات: نجد الفعل (قال) جاء مجردًا من العاطف؛ لأنه حكاية جواب نوح عن قول الله تعالى: {أنذر قومك}؛ لذا عومل معاملة الجواب الذي يتلقى به الأمر على الفور على طريقة المحاورات؛ تنبيهًا على مبادرة نوح بإبلاغ الرسالة إلى قومه، وتمام حرصه في ذلك. كما أفاد قوله: "ليلًا ونهارًا" حصول يأسه منهم، فجعل مراجعته ربه تعالى بعد مهلة مستقاة من قوله: "ليلًا ونهارًا" بمنزلة المراجعة في المقام الواحد بين المتحاورين، وهذا الخبر مستعمل في لازم معناه، وهو الشكاية والتمهيد لطلب النصر عليهم؛ لأن المخاطب به عالم بمدلول الخبر، وذلك ما سيفضي إليه **بقوله: "وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا" (سورة نوح: ٢٦).**

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٤٤/١٠).

حيث إن دعوة نوح- عليه السلام- جاءت بعد شكايته **بقوله: " رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا} (سورة نوح: ٢١).**

وفائدة حكاية ما ناجى به نوح ربه تعالى: إظهار توكله على الله، وانتصار الله له، والإتيان على مهمات من العبر بقصته، بتلوين لحكاية أقوله وأقوال قومه، وقول الله تعالى له.

وتلك ثمان مقالاتٍ، وهي:

- **{أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم} (سورة نوح: ١).**
- **{قال يا قوم إني لكم نذير مبين}(سورة نوح:٢).**
- **{قال رب إني دعوت قومي ليلًا ونهارًا}(سورة نوح: ٥).**
- **{فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا}(سورة نوح: ١٠).**
- **{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا} (سورة نوح: ٢١).**
- **{ولا تزد الظالمين إلا ضلالًا}(سورة نوح: ٢٤).**
- **{وقال نوح رب لا تذر على الكافرين ديارًا}(سورة نوح: ٢٦).**
- **{رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارًا}(سورة نوح: ٢٨).**

وجعل دعوته مظروفة في زمني الليل والنهار؛ للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد الوقت الذي يتوسم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته منهم في غيره من أوقات النشاط، وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال، وهي أوقات الليل.

ومعنى: "فلم يزدهم دعائي إلا فرارًا" أن دعائي لهم بأن يعبدوا الله بطاعتهم لي، يزدهم ما دعوتهم إليه بُعدًا منه، فالفرار مستعار لقوة الإعراض، أي: فلم يزدهم دعائي إياهم قربًا مما أدعوهم إليه. واستثناء الفرار من عموم الزيادات يُعد استثناءً منقطعًا، فالتقدير: فلم يزدهم دعائي قربًا من الهدى؛ لكن زادهم فرارًا وبُعدًا.

وإسناد زيادة الفرار إلى الدعاء، مجاز لأن دعاءه كان سببًا في تزايد إعراضهم، وقوة تمسكهم بشركهم. وهذا يُعد في علم البديع: تأكيد المدح بما يشبه الذم، أو: تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وهو هنا تأكيد إعراضهم المشبه بالابتعاد، بصورة تشبه ضد الإعراض.

ولما كان فرارهم من التوحيد ثابتًا لهم من قبل؛ كان قوله: "فلم يزدهم دعائي إلا فرارًا" من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وتصدير كلام نوح بالتأكيد؛ لإرادة الاهتمام بالخير[1].

❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) انظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، (ج٣٠/ ١٩٣- ١٩٤).

المبحث الثالث

الافتقار إلى الله تعالى في حياة إبراهيم (عليه السلام):

يُعد الخليل إبراهيم- عليه السلام- أحد أولي العزم الخمسة، الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم الغليظ، والذي ذكره القرآن الكريم في قول الله تعالى: **{وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا} (سورة الأحزاب: ٧).**

وهو النبي الذي ابتلاه الله تعالى ببلاء مبين، فوق طاقة البشر؛ فامتثل وصبر؛ فجعله الله تعالى إمامًا للناس، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل الأنبياء من بعده هم من نسل أولاده وأحفاده، حيث إن ابنه إسماعيل- عليه السلام- أبو العرب، وابنه إسحاق- عليه السلام- أبو اليهود.

ولم يذكر القرآن الكريم صفة (الخُلة) لأحدٍ من الأنبياء إلا لإبراهيم- عليه السلام-، **قال تعالى: {واتخذ الله إبراهيم خليلًا} (سورة النساء: ١٢٥).**

هذا، وقد كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أشبه الناس بجده إبراهيم- عليه السلام- خَلقًا وخُلقًا، ولِمَ لا وهو مِن نسله المبارك، وعلى ملته ونهجه القويم؟!، ويدلل على هذا ما جاء عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ"[(١)].

وعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلّم- قال: "أنا دعوة أبي إبراهيم، وكان آخر من بشّر بي عيسى ابن مريم"[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي- ﷺ-، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، حديث رقم: (٢٢٧٦)؛ وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، حديث رقم: (٣٦٠٥).

(٢) قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٢/٤): "رواه ابن عساكر في التاريخ (٢٦٥/١) عن بشر بن عمارة عن الأحوص بن حكيم عن خالد بن سعد عن عبد الرحمن بن غنم عن عبادة بن الصامت، قيل" يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: نعم، أنا...الحديث. وهذا إسناد ضعيف؛ لأن بشر والأحوص ضعيفان؛ لكن يشهد له حديث أبي

وعن العرباض بن سارية- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري، دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني أنه خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام"[1].

ويظهر الافتقار إلى الله تعالى في حياة الخليل إبراهيم- عليه السلام- في مواضع كثيرة، لعل من أبرزها ما يلي:

١- **قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (سورة البقرة، الآيات ١٢٦: ١٢٩).**

لنا وقفات مع هذه الآيات الكريمات، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- الخليل يؤمن يقينًا بربوبية الله تعالى؛ لذا نجده سأله وتضرع إليه بكل مقتضيات الربوبية التي لا يملكها إلا رب العالمين، فصدَّر دعاءه بصيغة (ربِّ)، ثم طلب الذرية الصالحة؛ لأنه يعلم أن ربه تعالى هو وحده الذي يقدر على ذلك، كما طلب الإعانة على أداء فرائضه، وقبول دعوته، فالله تعالى هو المستعان، وهو وحده القادر على تدبير شؤون الخلق من إرساء الأمن، وإغداق الرزق، وقبول الدعاء.

أمامة قال: يا نبي الله، ما كان أول بدء أمرك؟ قال: فذكره بلفظ: "دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نورًا أضاءت منها قصور الشام". أخرجه أحمد (٢٦٢/٥) حدثنا أبو النضر حدثنا فرج حدثنا لقمان بن عامر، قال: سمعت أبا أمامة يقول:...فذكر الحديث.

وهذا إسناد حسن، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٢/٨)، وله شواهد.

(١) راه أحمد (١٢٨/٤) برقم (١٧٢٠٣)؛ والبزار (١٣٥/١٠)؛ وابن حبان (٣١٢/١٤) برقم (٦٤٠٤)؛ والحاكم (٦٥٦/٢)؛ والبغوي في شرح السنة (٢٠٧/١٣).

قال البزار: لا نعلمه يروى إسناده متصلًا أحسن من هذا الإسناد. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٦/٨): أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد، وقد وثقه ابن حبان.

ب- هناك لفتة لطيفة من السياق البديع في هذه السورة الكريمة- سورة البقرة-، وهي طلب الخليل الرزق، وحصر الطلب لمن آمن فقط، وسبب هذا الحصر أنه لما قال الله تعالى له: **{إني جاعلك للناس إمامًا}**. قال الخليل: {ومن ذريتي}؛ فقال الله تعالى له: **{لا ينال عهدي الظالمين} (سورة البقرة: ١٢٤)**. لذا علم الخليل أن عهد الله تعالى لا يناله الظالمون، وبناءً عليه لم يدع بالرزق إلا للمؤمنين فقط، فلما كان ذلك **قال الله تعالى له: {ومن كفر فأمتعه قليلًا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير} (سورة البقرة: ١٢٦)**. وهنا نجد أن الله- تبارك وتعالى- أراد أن يلفت إبراهيم إلى أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية، فإمامة الناس عطاءٌ من عطاءات الألوهية، لذا لا يناله إلا المؤمن؛ لكن الرزق عطاءٌ من عطاءات الربوبية؛ لذا يناله المؤمن والكافر؛ لأن الله ربنا هو الذي خلقنا، وكفل لنا رزقنا، وفي هذا تصحيح مفاهيم بالنسبة لإبراهيم- عليه السلام-؛ ليعرف أن كل من خلقه الله؛ رزقه الله، مؤمنًا كان أو كافرًا، فمادام الله قد خلقك؛ فإنه ضمن لك رزقك.

ج- يظهر من خلال الآيات أن الخليل- عليه السلام- كان له حكمة في ترتيب هذا الافتقار والدعاء، وهو: ذكره صفات الرسول أنه (منهم)، أي: من أهل مكة؛ ليكون أكثر شفقةً عليهم، ويكونوا أعز به، وأشرف وأقرب للإجابة

كما أنه رتَّب دعاءه؛ فقدم التلاوة على التعليم؛ لأنها من باب التمهيد، وكان أول آية أنزلت في القرآن الكريم بدأت بالأمر بالقراءة، حيث **قال تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} (سورة العلق:١)**، ثم أعقب ذلك بالتزكية؛ لأنها بعده، وهي من قبيل التخلية المقدم على التحلية.

٢- قال تعالى: {وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي...} (سورة البقرة: ٢٦٠).

فهو هنا يتضرع إلى ربه تعالى ليريه كيف يحيي الموتى، وفي هذا يقول سيد قطب: "إنه يكشف عمَّا يختلج أحيانًا من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصفة الإلهية في قلوب أقرب المقربين...ولا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره... إنه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي

في أثناء وقوعه العملي....لكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل؛ ليحصل على مذاق هذه الملابسة؛ فيستروح بها"[1].

٣- **قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} (سورة إبراهيم: الآيات ٣٧: ٤١).**

لنا وقفات مع هذه الآيات الكريمات، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- إن في دعاء الخليل دلالة جلية على معرفته التامة، وإقراره بتوحيد الربوبية، وهل الأمان والرزق والهداية وقبول الأعمال والدعاء إلا من مقتضيات الربوبية ومستلزماتها؟!.

ب- افتتح الخليل دعاءه بالنداء؛ لزيادة التضرع والافتقار إلى ربه تعالى، حيث إنه ترك زوجه وولده الرضيع وسط صخور صماء، في صحراء جرداء، لا زرع ولا ماء، امتثالًا لأمر ربه تعالى، وعند سؤال زوجه هاجر له: لمن تتركنا في هذا المكان الموحش؟ أالله أمرك بهذا؟ فيرد قائلًا: نعم. فتجيب أم إسماعيل- جدتنا الكبرى هاجر-: "إذًا لن يضيعنا".

وانظر- رعاك الله- إلى الافتقار الحقيقي، والثقة في الله، وبالله؛ فالخليل ترك زوجه وابنه الرضيع في مكانٍ موحش، ولكن ثقته بربه تعالى، وامتثاله لأمر ربه؛ يجعله يدعو ربه تعالى بأن يجعل هذا المكان عامرًا مليئًا بالخيرات، تهوي إليه الأفئدة من كل مكان، وأن يجعل أهله موحدين، مقيمين الصلاة؛ لأن الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيمًا لدينه.

ج- قوله: "إن ربي لسميع الدعاء"، يقول ابن القيم: "إن المراد بالسمع هنا، هو: السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه سبحانه سميعٌ لكل مسموع، وإذا كان

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤٤١/١).

كذلك؛ فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء، ودعاء الطلب، وسمع الرب- تبارك وتعالى- له إثابته على الثناء، وإجابته للطلب"[١].

٤- **قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (سورة الشعراء، الآيات ٧٨: ٨٩).**

لنا وقفات مع هذه الآيات الكريمات، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- لاحظ- رعاك الله- أن الموصول في موضع نعت ل (رب العالمين) في قوله: {فإنهم عدو لي إلا ربَّ العالمين}(سورة الشعراء: ٧٧)، فهو يهدين: عطف على الصلة مفرع عليها؛ لأنه إذا كان هو الخالق؛ فهو الأولى بتدبير مخلوقاته دون أن يتولاها غيره. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في (فهو يهدين)، دون أن يقول: (فيهدين)؛ لتخصيصه بأنه متولي الهداية دون غيره؛ لأن المقام لإبطال اعتقادهم تصرف الأصنام بالقصر الإضافي، وهو قصر قلب، فليس الضمير ضمير فصل؛ لأن ضمير الفصل لا يقع بعد العاطف. و(يهدين، يطعمني، يسقين) جاءت أفعالًا مضارعة للدلالة على التجدد والاستمرار، فالهداية متجددة، وكذلك الإطعام والشراب. وجعل فعل (الهداية) مفرعًا بالفاء على فعل الخلق؛ لأنه معاقب له، لأن الهداية بهذا المعنى من مقتضى الخلق؛ لأنها ناشئة عن خلق العقل، فالمردا بالهداية: الدلالة على طرق العلم، ومن الهداية المذكورة: دفع وساوس الباطل عن العقل حتى يكون إعمال النظر معصومًا من الخطأ[٢].

ب- لقد اقتضى علو أدب الخليل- عليه السلام- مع ربه- تبارك وتعالى- قبل أن يدعوه بالمغفرة وموهبته الحكمة وإلحاقه بالصالحين، أن ينسب المرض الذي هو نقمة إلى نفسه، والشفاء الذي هو نعمة إلى ربه تعالى؛ لمراعاة حسن الأدب والافتقار إلى الله تعالى؛ فقال: (وإذا

---

(١) التفسير القيم، لابن القيم (ص٢٤٣).
(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج١٤٢/٢٠).

مرضتُ)، دون أن يقول: (مرَّضني)؛ لأن كثيرًا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطامعه ومشاربه، مع أنه قال في الآيات التي قبلها: (خلقني، يطعمني، يسقين)، فلما وصل للمرض تأدب مع الله، ونسب المرض لنفسه، ثم وصف ما يندر منه من بعض الصغائر ب (خطيئتي)، أي: بالخطيئة، والتي هي : بالحقيقة تؤدي إلى التكفير، وما ذاك إلا تواضعًا من الخليل، وإظهارًا للافتقار الحقيقي في تضرعه إلى ربه تعالى[١].

ج- أما قوله: (يميتني ثم يحين): لم يأت فيه ما يقتضي الحصر؛ لأنهم لم يكونوا يزعمون أن الأصنام تُميت؛ بل عمل الأصنام قاصر على الإعانة أو الإعاقة في أعمال الناس في حياتهم، فأما الموت فهو من أعمال الدهر إن كانوا دهريين، وإن كانوا يعلمون أن الخلق والإحياء والإماتة ليست من شؤون الأصنام، وأنها من فعل الله تعالى، كما كان يعتقد المشركون من العرب فظاهر[٢].

د- تكرار اسم الموصول (الذي) في المواضع الثلاثة (خلقني، يطعمني، يميتني ثم يحيين)، مع أن مقتضى الظاهر أن تُعطف الصلتان على الصلة الأولى؛ للاهتمام بصاحب تلك الصلات الثلاث؛ لأنها نعتٌ عظيمٌ لله تعالى، فحقيقٌ أن يُجعل مستقبلًا بدلالته[٣].

هـ - من الاستجابات التي تحققت من دعوات الخليل- عليه السلام-بعد فترة من الزمن، حين دعا أن يجعل له ذكرًا حسنًا باقيًا فيمن يجيء بعده من القرون، {واجعل لي لسان صدقٍ في الآخرين} (سورة الشعراء: ٨٤). استجاب الله تعالى دعاءه؛ حيث قال تعالى: {وتركنا عليه في الآخرين} (سورة الصافات: ١٠٨). وقد أعطاه الله تعالى ذلك، فقد آمنت اليهود بموسى، وكفرت بعيسى، وآمنت النصارى بعيسى، وكفرت بمحمدٍ- صلى الله عليه وسلم-، وكلهم يتولى إبراهيم خليل الله؛ لكن الله تعالى قطع تلك الولاية بقوله تعالى: {ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين} (سورة آل عمران: ٦٧). ثم ألحق

(١) انظر: روح المعاني، للألوسي (٩٦/١٩)؛ والكشاف، للزمخشري (٣٢٤/٣).
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج١٤٣/٢٠).
(٣) المصدر السابق (ج١٤٣/٢٠).

ولايته بالنبي- صلى الله عليه وسلم- والذين معه، قال تعالى: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين ءامنوا والله ولي المؤمنين} (سورة آل عمران: ٦٨).

و- يظهر الافتقار عند الخليل أيضًا عند شرح حاله لربه تعالى، فهو يدعو ربه تعالى بلسان الاضطرار والضعف والشكاية من هول الموقف العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، قال تعالى: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}(سورة الشعراء، الآيات ٨٧: ٨٩).

❄❄❄❄❄❄❄❄

المبحث الرابع

الافتقار إلى الله تعالى في حياة يعقوب (عليه السلام)

بدايةً لا بد من بيان أن النبي يعقوب هو ابن إسحاق بن الخليل إبراهيم- عليهم السلام-، وهو أبو النبي يوسف- عليه السلام-.

وحديث القرآن الكريم عن النبي يعقوب- عليه السلام- جاء موجزًا مختصرًا، وغاية ما ذكره بخصوص هذا النبي الكريم الآيات التالية: **قوله سبحانه: {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} (سورة البقرة:١٣٢). وقوله تعالى: {أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون} (سورة البقرة: ١٣٣). وقوله تعالى: {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار} (سورة ص: ٤٥).**

وذكر القرآن الكريم يعقوب في معرض الحديث عن قصة ابنه يوسف- عليهما السلام- في سورة يوسف.

وقد أطلق القرآن الكريم على يعقوب- عليه السلام- اسم إسرائيل، وجاء ذلك في موضعين:

أحدهما: قوله- تبارك وتعالى-: **{كل الطعام كان حلًّا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة...} (سورة آل عمران: ٩٣).**

الثاني: **قوله تعالى: {أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا...} (سورة مريم: ٥٨).**

ولفظ إسرائيل معناه: صفوة الله، أو عبد الله.

ويظهر الافتقار بصورةٍ جليةٍ في حياة النبي يعقوب- عليه السلام- عند فقده ابنه يوسف- عليه السلام- في الآيات القرآنية الآتية:

١- **قال تعالى: {وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون} (سورة يوسف: ٦٧).**

وقال يا بني عطف على جملة: **{ قال الله على ما نقول وكيل} (سورة يوسف: ٦٦).**

وإعادة فعل "قال" للإشارة إلى اختلاف زمن القولين، وإن كانا معًا مسببين على إيتاء موثقهم؛ لأنه اطمأن لرعايتهم ابنه، وظهرت له المصلحة في سفرهم، فقوله: { يا بني لا تدخلوا من باب واحد } صادر في وقت إزماعهم الرحيل. والمقصود من حكاية قوله هذا العبرة بقوله: { وما أغني عنكم من الله من شيء } إلخ .

والأبواب: هي أبواب المدينة، وإنما نهاهم أن يدخلوها من بابٍ واحد؛ خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها، وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة، أن يوجسوا منهم خيفةً من تجسس أو سرقة، فربما سجنوهم، أو رصدوا الأعين إليهم، فيكون ذلك ضرًّا لهم، وحائلًا دون سرعة وصولهم إلى يوسف- عليه السلام-، ودون قضاء حاجتهم. وقد قيل في الحكمة: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.

ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة؛ اقتصر على تحذيرهم من الدخول من بابٍ واحد، دون أن يحذرهم من المشي في سكةٍ واحدة من سكك المدينة، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة فلم يخش ضلالهم فيها، وعلم أن بنيامين يكون في صحبة أحد إخوته؛ لئلا يضل في المدينة.

والمتفرقة أراد بها المتعددة؛ لأنه جعلها في مقابلة الواحد، ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علة الأمر، وهي إخفاء كونهم جماعةً واحدة .

وجملة: { وما أغني عنكم من الله من شيء } معترضة في آخر الكلام، أي: وما أغني عنكم بوصيتي هذه شيئًا. و {من الله} متعلق بـ {أغني}، أي: لا يكون ما أمرتكم به مغنيًّا غناءً مبتدئًا من عند

الله؛ بل هو الأدب والوقوف عند ما أمر الله، فإن صادف ما قدره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدره حصلت فائدة امتثال أوامره، واقتناع النفس بعدم التفريط.

وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة؛ تأدبًا مع واضع الأسباب، ومقدر الألطاف في رعاية الحالين؛ لأننا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها.

وجملة: { إن الحكم إلا لله } في موضع التعليل لمضمون {وما أغني عنكم من الله من شيء}، والحكم هنا: بمعنى التصرف والتقدير، ومعنى الحصر أنه لا يتم إلا ما أراده الله، كما قال تعالى: { إن الله بالغ أمره} (سورة الطلاق: ٣). وليس للعبد أن ينازع مراد الله في نفس الأمر، ولكن واجبه أن يتطلب الأمور من أسبابها؛ لأن اللهَ تعالى أمر بذلك، وقد جمع هذين المعنيين قوله: {وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء}.

وجملة: { عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون} في موضع البيان لجملة {وما أغني عنكم من الله من شيء}؛ ليبين لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله، هو معنى التوكل الذي يضل في فهمه كثير من الناس اقتصارًا وإنكارًا. ولذلك أتى بجملة: { وعليه فليتوكل المتوكلون} أمرًا لهم ولغيرهم على معنى أنه واجب الحاضرين والغائبين، وأن مقامه لا يختص بالصديقين؛ بل هو واجب كل مؤمن كامل الإيمان، لا يخلط إيمانه بأخطاء الجاهليات[١].
ومن يتدبر قوله تعالى: {وعليه فليتوكل المتوكلون}؛ يجد أن الفاء في (فليتوكل) تحقق عدة أغراض، لعل من أبرزها ما يلي[٢]:

- تأكيد الاختصاص المدلول عليه بتقديم الجار والمجرور، بإفصاحها عن شرط محذوف فيكون في تأكيدها؛ للتلازم بين الشرط والجواب، تأكيدًا للحصر.
- دلت (عليه) بمعنى التعقيب فيها، وهو المبادرة بإخلاص التوكل على الله تعالى، والافتقار إليه سبحانه.

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج١٤/٢١- ٢٤).
(٢) انظر: من أسرار العطف، للخضري (ص١٣٥).

- دلالتها على الترتيب؛ فيكون ترتيب توكل المؤمنين اقتداءً بتوكل المرسلين؛ مشعرًا بضرورة الاقتداء بالتأسي بهم في توكلهم الذي يخصون به ربهم تبارك وتعالى.

٢- قال تعالى- حكايةً عن لسان يعقوب-: {قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون. يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون} (سورة يوسف: ٨٦- ٨٧).

اعلم- يا رعاك الله- أن هاتين الآتين سِيقتا في مقام فراق يوسف وأخيه بنيامين لأبيهما يعقوب؛ حيث تأسف الأب على فراق ابنيه، وبلغ به الحزن والهم إلى مبلغ ضعف البصر؛ فتبدل لون عينيه من شدة الضعف والهزال. وهو ما حكاه القرآن الكريم في قول الله تعالى: {وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين} (سورة يوسف: ٨٤- ٨٥). فابيضت عيناه من ملازمة البكاء، الذي هو ثمرة الحزن، حيث إن الابيضاض كناية عن عدم الإبصار الناتج عن الحزن الظاهر في ملازمة البكاء.

وقد عاتبه أبناؤه في ذلك؛ لكنه لم يسع إزاء هذا الموقف من أبنائه إلا أن أرشدهم إلى ثلاثة أمور، وهي:

تذكيرهم بأن حزنه وأسفه مظهر من مظاهر شكواه وافتقاره إلى الله تعالى، فعلى الرغم من أسفه وحزنه، إلا أنه لا يتجه في دعائه وبث شكواه إلا إلى ربه ومولاه، فهو وحده القادر على كشف بلواه، وإجابة دعائه ونجواه، فقال لهم: {إنما أشكو بثي وحزني من الله}. والبث: هو الهم الشديد، والذي يقتضي التفكير في الشيء المسيء، وقد اهتم كثيرًا يعقوب بالتفكير فيما يمكن أن يتعرض له ابنه يوسف من كروب. والحزن هو الأسف على أمرٍ فائت، وقد كان يعقوب آسفًا على فراق ابنه يوسف. وهنا نجده قد حوَّل بهذا القصد شكواه إلى ضراعةٍ وافتقار.

- إرشادهم إلى البحث الحثيث، والسعي المتستر عن يوسف وأخيه، حيث قال لهم: {اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه}.
- نهاهم عن اليأس من روح الله، أي: رحمته تعالى، فمهما طالت مدة فراق يوسف فلا تتعللوا بطول المدة عن مزيد من البحث فتتوقفوا؛ حيث إن التوقف قد يكون دلالةً على

اليأس، واليأس ليس من صفات المؤمنين؛ لأنه من صفات الكافرين؛ حيث قال تعالى: {إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون} (سورة يوسف: ٨٧).

وقد ورد عن الحسن البصري أنه قال: "كان بين خروج يوسف عن يعقوب إلى دخول يعقوب على يوسف ثمانون سنةً لم يفارق الحزن قلبه، ولم يزل يبكي حتى كف بصره، وما في الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب"[١].

ويقول سيد قطب معلقًا على هذه الإرشادات الثلاثة من يعقوب إلى بنيه: "وفي هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية في هذا القلب الموصول...إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته، فضلًا على عودته إلى أبيه، واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل في وجه هذا الواقع الثقيل...إن هذا كله لا يؤثر شيئًا في شعور الرجل الصالح بربه تعالى، فهو يعلم من حقيقة ربه، ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور، وهذه قيمة الإيمان بالله، ومعرفته سبحانه، هذا اللون من المعرفة، معرفة التجلي والشهود وملابسة قدرته وقدره، وملامسة رحمته ورعايته، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين...تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها، وتعرض مذاقًا يعرفه من ذاق مثله؛ فيدرك ماذا تعني هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب. والقلب الذي ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه- مهما بلغت- إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق، ولا نملك أن نزيد"[٢].

وحبذا قول الشاعر:

إذَا شكَا أمْرَه أو سَبَّ مِحنتَهُ ... قدْ يفقدُ المَرءُ بينَ النَّاسِ عِزَّتَــهُ

ولَا تَشكُ إلَى خَلقٍ فَتشمتهُ ... فَكنْ كَليثِ الشَّرَى مَا بَاعَ هَيبتَــهُ

---

(١) أسنده الطبري إلى الحسن، نقلًا عن ابن عطية، انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٢٧٤).

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، في تفسيره لسورة يوسف، الآيات: (٨٤: ٨٧).

فاعلم- يا رعاك الله- أنه يجوز لك أن تبث همومك لمن حولك من الأهل وخواص الأصدقاء، إن كان هذا على سبيل الاستشارة في حل المشكلات، أو طلب المساعدة لقضاء حاجةٍ ما؛ لكن إن استطعت ألا تفعل ذلك إلا لله- تبارك وتعالى؛ فافعل ولا تتردد، فهو سبحانه القادر على دفع البأساء والضراء، قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} (سورة النمل:٦٢). فأوصيك- وأوصي نفسي- قائلًا: بِثْ همومك إلى الله- عز وجل-، ابتعد عن شكاية حالك للناس، وافعل كما فعل يعقوب، وابكِ بين يدي ربك بكاءً صادقًا؛ فستجد عجبًا، ستجد فرجًا، ستجد شفاءً من كل علة وبلاء وداء. صل ركعتين لربك- تبارك وتعالى-، واسأله الفرج والتيسير، وكشف البلاء، فربك قريبٌ مجيب، أقرب لعبده من حبل الوريد، أرحم بعبده من الوالدة بطفلها، لطيفٌ خبير، ذو الفضل العظيم.

❄❄❄❄❄❄❄❄

المبحث الخامس

الافتقار إلى الله تعالى في حياة يوسف (عليه السلام):

إن القصص القرآني له سماته الخاصة التي تفوق أي قصصٍ غيره، وخصائص يعلو بها جلالةً وقداسةً، ويزداد بها بلاغةً وإعجازًا، ويعظم بها أهميةً وتأثيرًا، وبهذه السمات والخصائص استحق أن يوصف بأحسن القصص، مصداقًا **لقوله تعالى: {نحن نقص عليه أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن...} (سورة يوسف: ٣).**

ومن تلك الخصائص: التكرار الهادف المعجز، حيث تُذكر القصة أكثر من مرةٍ بأسلوبٍ بليغ، وفوائد جديدة لا توجد في غيرها، فأنت تجد في كل موطنٍ من العبر واللطائف والإشارات ما لا تجده في نفس القصة في موطنٍ آخر، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك: قصة موسى- عليه السلام- مع فرعون.

وتأتي قصة يوسف بنوعٍ آخر من الإعجاز في القصص القرآني؛ حيث اشتملت من أولها إلى آخرها على الحديث على موضوعٍ واحد- على عكس القصص القرآني-، وهو قصة يوسف- عليه السلام-، في أسلوبٍ بليغٍ شيق، يفوق كل الأساليب الأدبية والبلاغية مهما بلغت درجة جودتها. فقصة يوسف تُعد نموذجًا من قصص الأنبياء- عليهم السلام- التي فيها العبرة لكل من يعقل، وفيها التصديق لما جاءت به الكتب السماوية السابقة، وقد وردت قصته في سورةٍ تحمل اسمه، وذُكر اسمه فيها أربعًا وعشرين مرةً.

وجديرٌ بالذكر أن الإنسان مهما أوتي من البيان؛ فإنه يقف عاجزًا عن التنويع في القصة الواحدة بضروبٍ من الفصاحة والبلاغة، دون أن تظهر عليه علامات الضعف، أو الركاكة والتكلف، وهذا كله يثبت أن القرآن الكريم- كما **قال تعالى-: {كتابٌ أحكمتْ آياته ثم فصلت من لدن حكيمٍ خبيرٍ} (سورة هود: ١).**

ولذا فإن القرآن الكريم تحدى العرب- والذين كانوا وقت نزول القرآن هم فرسان البيان، وأمراء البلاغة- أن يأتوا بمثله؛ بل تحدى الإنس والجن على الإتيان بمثله، **قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا} (سورة الإسراء: ٨٨).**

ولسنا نحن بصدد الحديث عن القصص القرآني في هذا البحث، ولكن هذا بمثابة المقدمة لما نحن بصدده من الحديث عن الافتقار في حياة الأنبياء (عليهم السلام).

ويظهر الافتقار في حياة يوسف- عليه السلام- في الآيات القرآنية الآتية:

١- **قال تعالى: {قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونًا من الصاغرين. قال رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليه وأكن من الجاهلين. فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم} (سورة يوسف، الآيات: ٣٢: ٣٤).**

لنا وقفاتٌ مع هذه الآيات الكريمات، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- إن يوسف- عليه السلام- ذو شخصيةٍ قويةٍ، بدلالة قول امرأة العزيز: (راوته عن نفسه فاستعصم)، وهذا يدل على مبالغته في الاستعصام. يقول الزمخشري: "والاستعصام بناء مبالغة، يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة وهو مجتهد في الاستزادة منها"[(١)]. وعلى الرغم من شعور يوسف بعصمته، وملكه لنفسه، وقدرته على مجانبة المعصية والفاحشة؛ إلا أنه فزع إلى الله تعالى، مفتقرًا إليه، مبينًا أن الله تعالى هو القادر على نجاته، وصرف كيد النسوة عنه.

ب- يقول أبو حيان التوحيدي: "ذكر استجابة الله تعالى له، ولم يتقدم لفظ دعاء؛ لأنه قوله: (وإلا تصرف عني كيدهن) فيه معنى طلب الصرف والدعاء، وكأنه قال: رب اصرف عني كيدهن؛ فصرف عنه كيدهن، وقد حال بينه وبين المعصية. فهذا وصف ليوسف أنه إذا

(١) تفسير الكشاف، للزمخشري (٢/٤٤٠).

وكله لنفسه؛ فليس له منها إلا الضعف والعجز؛ لأنه ضعيف لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، إلا إذا عصمه الله تعالى، وحفظه بحوله وقوته"[1].

ج- يقول الشيخ الشعراوي في خواطره: "ولِسائلٍ أن يقول: ولماذا لم يقل يوسف "يا إلهي" وهو يعلم أن مناط التكليف في الألوهية بـ"افعل" و"لا تفعل"؟

نقول: أراد يوسف أن يدعو ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله سبحانه؛ لأنه هو- جل وعلا- مَن رباه وتعهده؛ وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألا يتخلى عنه في هذا الموقف.

فيوسف- عليه السلام- يعرف أنه من البشر؛ وإن لم يصرف الله عنه كيدهن؛ لاستجاب لغوايتهن، ولأصبح من الجاهلين الذين لا يلتفون إلى عواقب الأمور.

وعلى الرغم من أن السجن أمر كريه؛ إلا أنه قد فضله على معصية خالقه، ولأنه لجأ إلى المربي الأول. لتأتي الاستجابة منه سبحانه. يقول الحق: {فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم} (سورة يوسف: ٣٤) [2].

٢- قال تعالى: {ربِّ قد ءاتيتني من المُلك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليِّ في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين} (سورة يوسف: ١٠١).

لنا وقفات مع هذه الآية الكريمة، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- نجد أن يوسف- عليه السلام- هنا قد أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه، بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا، والنعمة العظمى في الآخرة، فذكر ثلاث نعم، اثنتان دنيويتان، وهما: نعمة الولاية على الأرض، ونعمة العلم. والثالثة أخروية، وهي: نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام.

وجعل الذي أوتيه بعضًا من الملك ومن التأويل؛ لأن ما أوتيه بعض من جنس الملك، وبعض من التأويل، إشعارًا بأن ذلك في جانب ملك الله، وفي جانب علمه شيءٌ قليل. وعلى هذا يكون المراد بالملك: التصرف العظيم الشبيه بتصرف الملك، إذ كان يوسف- عليه السلام- هو الذي يسير الملك برأيه. ويجوز أن يراد بالملك حقيقته، ويكون التبعيض حقيقيًّا، أي: آتيتني بعض الملك؛

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان التوحيدي (٣٠٦/٥).
(٢) انظر: تفسير الشعراوي لسورة يوسف، الآية: (٣٤).

لأن الملك مجموع تصرفات في أمر الرعية، وكان ليوسف- عليه السلام- من ذلك الحظ الأوفر، وكذلك تأويل الأحاديث .

ب- {فاطرَ السماوات والأرض}: نداء محذوف حرف ندائه. والفاطر: الخالق. والولي: الناصر. وجملة { أنت وليي في الدنيا والآخرة } من قبيل الخبر في إنشاء الدعاء، وإن أمكن حمله على الإخبار بالنسبة لولاية الدنيا، قيل: لإثباته ذلك الشيء لولاية الآخرة. فالمعنى: كن وليي في الدنيا والآخرة. وفي هذا القول يظهر الافتقار الحقيقي إلى الله تعالى، فهو يُسلم أمره إليه، ويُفوض أمره إليه، ويطلب منه أن يكون وليه وناصره ومؤيده بنصره وفضله في الدنيا والآخرة.

ج- أشار بقوله: { توفني مسلمًا} إلى النعمة العظمى، وهي نعمة الدين الحق، فإن طلب توفيه على الدين الحق يقتضي أنه متصف بالدين الحق، المعبر عنه بالإسلام من الآن، فهو يسأل الدوام عليه إلى الوفاة. والمسلم: الذي اتصف بالإسلام، وهو الدين الكامل، وهو ما تعبد الله به الأنبياء والرسل- عليهم السلام-.

د- قوله: {وألحقني بالصالحين}: الإلحاق: حقيقته جعل الشيء لاحقًا، أي: مدركًا من سبقه في السير، وأطلق هنا مجازًا على المزيد في عداد قوم

والصالحون: المتصفون بالصلاح، وهو التزام الطاعة، وأراد بهم الأنبياء- عليهم السلام. فإن كان يوسف- عليه السلام- يومئذ نبيًّا؛ فدعاؤه لطلب الدوام على ذلك. وإن كان نُبئ فيما بعد؛ فهو دعاء بحصوله، وقد صار نبيًّا بعد ورسولاً[1].

❄❄❄❄❄❄❄

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج١٤/ ٥٩- ٦٠).

المبحث السادس

الافتقار إلى الله تعالى في حياة أيوب (عليه السلام)

كانت بعثة أيوب- عليه السلام- بين بعثتي موسي ويوسف- عليهما السلام-، وينتمي نسبه إلي إسحاق بن إبراهيم- عليهما السلام-.

إن الله تعالى كان قد وهب لأيوب- عليه السلام- الرزق الواسع من الأموال والأولاد، والزروع والثمار، والحرث، فابتلاه الله في ذلك كله حتى ذهب عن آخره، ثم ابتلاه في جسده ابتلاءً عظيمًا لازمه سنوات طويلة، وهو صابر محتسب راض شاكر، ولم يقنط ولم ييأس يومًا من رحمة الله، وقد انفض عنه أهله وأحبابه وأصدقاؤه، ولم يبق إلى جواره إلا زوجته الوفية المخلصة تقوم على رعايته، وتنهض بخدمته، وتنفق عليه وعلى نفسها مما تحصل عليه من أجر زهيد مقابل خدمتها الناس؛ حتى قيل: إنها باعت ضفيرتها مقابل بعض أرغفة من الخبز.

وكان نبي الله أيوب- عليه السلام- صابرًا شاكرًا، لا يحزن ولا يجزع من مرضه؛ بل كان دائم التضرع والدعاء، والافتقار إلى الله تعالى؛ حتى استجاب الله دعاءه، وكشف ما به من ضر، ورزقه أهله ومثلهم معهم، وهذا- بلا شك- من ثمرات الافتقار الحقيقي لله تعالى.

ويظهر الافتقار إلى الله تعالى في حياة النبي أيوب- عليه السلام- في الآيات القرآنية الآتية:

١- قال تعالى: {وأيوبَ إذ نادى ربه أني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرٍ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين} (سورة الأنبياء: ٨٣-٨٤).

لنا وقفات مع هاتين الآيتين الكريمتين، وبيان ذلك فيما يلي[١]:

(١) انظر تفسير الآيتين (٨٣-٨٤) من سورة الأنبياء، في التفاسير الثلاثة التالية: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي؛ وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير؛ التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور.

أ- التعبير بوصف الربوبية، وإضافته الى ضمير أيوب- عليه السلام-، في قوله تعالى: {وأيوب إذ نادى ربه}. دلالة على التربية والعناية الالهية له- عليه السلام-، فهو لا يلجأ إلا إلى ربه تعالى، متعهده بالتربية والحفظ والرعاية.

ب- إن المتأمل لنداء أيوب- عليه السلام- لربه تعالى، وما فيه من الدعاء؛ يلمس حسن أدب أيوب- عليه السلام- في دعائه، فعلى الرغم من شدة الابتلاء الذي أصابه، فإنه عبر عن ذلك بالمس في قوله: (مسني). والمس هو الاصابة الخفيفة، فكل تلك الأوجاع والآلام النفسية والجسدية، بدت آثارها ضئيلة أمام صبر أيوب واحتماله وعدم جزعه. و(الضر) بفتح الضاد: الضرر في كل شيء، أي: الضرر العام، والضر بضم الضاد: خاص بما يصيب النفس من مرض وهزال، والتعريف هنا أفاد أن جنس الابتلاء الذي يصيب النفس قد استقر في جسد أيوب- عليه السلام-، وكأن كل الآلام قد حلت في بدنه، ولكنه على الرغم من كل ذلك، فإنه قد اكتفى في دعائه بعرض حاله، ولم يصرح في دعائه بطلب رفع البلاء، ولم يقترح على ربه تأدبًا معه، وانما كنى عن ذلك بقوله: (وأنت أرحم الراحمين).

ج- {وأنت أرحم الراحمين}: التعريض بطلب كشف الضر عنه بدون سؤال، فجعل وصف نفسه بما يقتضي الرحمة له، ووصف ربه تعالى بالأرحمية تعريضًا بسؤاله. وكون الله تعالى أرحم الراحمين؛ لأن رحمته أكمل الرحمات، لأن كل من رحم غيره فإما أن يرحمه طلبًا للثناء في الدنيا، أو للثواب في الآخرة، أو دفعًا للرقة العارضة للنفس من مشاهدة من تحق الرحمة له، فلم يخل من قصد نفع لنفسه. وأما رحمته تعالى عباده فهي خليةٌ عن استجلاب فائدة لذاته العلية، ولكون ثناء أيوب تعريضًا بالدعاء فرع عليه قوله تعالى:{ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر} .والسين والتاء للمبالغة في الإجابة، أي: استجبنا دعوته العرضية بإثر كلامه، وكشفنا ما به من ضر، إشارة إلى سرعة كشف الضر عنه، والتعقيب في كل شيء بحسبه، وهو ما تقتضيه العادة في البرء وحصول الرزق، وولادة الأولاد.

د- {فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمةً من عندنا}: الكشف: مستعمل في الإزالة السريعة. والموصول في قوله تعالى: (ما به من ضر) مقصود منه الإبهام . ثم تفسيره بـ

(من) البيانية لقصد تهويل ذلك الضر لكثرة أنواعه، بحيث يطول عدها. أي: كشفنا ما حل به من ضر في جسده وماله؛ فأعيدت صحته وثروته .

والإيتاء: عطاء، أي: أعطيناه أهله ، وأهل الرجل أهل بيته وقرابته . وفهم من تعريف الأهل بالإضافة أن الإيتاء إرجاع ما سلب منه من أهل، يعني بموت أولاده وبناته، وهو على تقدير مضاف بين من السياق، أي: مثل أهله بأن رزق أولادًا بعدد ما فقد، وزاده مثلهم، فيكون قد رزق أربعة عشر ابنًا وست بنات من زوجه التي كانت بلغت سن العقم. وانتصب (رحمة) على المفعول لأجله . ووصفت الرحمة بأنها من عند الله تنويها بشأنها بذكر العندية الدالة على القرب المراد به التفضيل. والمراد رحمة بأيوب، إذ قال: وأنت أرحم الراحمين

هـ- {وذكرى للعابدين}: للتذكير ببلاء الله تعالى، وبرحمته في البلاء وبعد البلاء، وللإيحاء بأن العابدين المخلصين معرضون لشتى أنواع الابتلاءات والمحن؛ لأنها ضريبة العقيدة، وتكاليف العبادة، فلا بد من تمحيص هؤلاء العابدين بتلك الآلام والمصاعب والمحن؛ لتشتد أعوادهم، ولتقوى ظهورهم، ولتصفو قلوبهم لحمل أمانة العقيدة وتكاليفها وتكاليف الإيمان، فلا بد من الامتحان والبلاء، ولا بد من الصبر الجميل؛ ليستطيع هؤلاء حمل لواء الإيمان، و تلك الإشارة أو الخاتمة بما تحمله من هذا المضمون، لها ارتباطٌ وثيق بسياق سورة الأنبياء التي ورد فيها جانبٌ من تسلية رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لما انتابه من غمٍّ وحزن لتكذيب قومه دعوته، وتعرضه للإيذاء على أيديهم، فذكر قصة أيوب فيها شحذ لهمته- صلى الله عليه وسلم- في الدعوة، وتحفيز له للصبر على الأذى والبلاء، وهذا أدخل في باب التسرية عنه- صلى الله عليه وسلم – وتسليته. .

قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ. وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} (سورة ص: ٤١- ٤٤).

لنا وقفات مع هذه الآيات الكريمات، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- {إذ نادى ربه}: بدل اشتمال من أيوب؛ لأن زمن ندائه ربه تعالى مما تشتمل عليه أحوال أيوب، وخصَّ هذا الحال بالذكر من بين أحواله؛ لأنه مظهر توكله على الله تعالى، وافتقاره إليه، واستجابة الله تعالى دعاءه بكشف الضر عنه. والنداء هنا نداء دعاء؛ لأن الدعاء يُفتتح ب (يا رب) ونحوه.

ج- {أني مسني الشيطان بنصبٍ وعذاب}: ظاهر إسناد المس بالنصب والعذاب إلى الشيطان، أن الشيطان مس أيوب بهما، أي: أصابه بهما حقيقةً، مع أن النصب والعذاب هما الماسان أيوب، ففي سورة الأنبياء: {أني مسني الضر}؛ فأسند المس إلى الضر، والضر هو النصب والعذاب. وترددت أفهام المفسرين في معنى إسناد المس بالنصب والعذاب إلى الشيطان، فإن الشيطان لا تأثير له في بني آدم بغير الوسوسة، كما هو مقرر من مكرر آيات القرآن، وليس النصب والعذاب من الوسوسة ولا من آثارها. , ولهم في ذلك أقوالٌ كثيرة، أرجحها وأفضلها: أن تحمل الباء على معنى السببية بجعل النصب والعذاب مسببين لمس الشيطان إياه ، أي: مسني بوسواس سببه نصب وعذاب، فجعل الشيطان يوسوس إلى أيوب بتعظيم النصب والعذاب عنده، ويلقي إليه أنه لم يكن مستحقًا لذلك العذاب ليلقي في نفس أيوب سوء الظن بالله، أو السخط من ذلك.
أو تحمل الباء على المصاحبة، أي: مسني بوسوسة مصاحبة لضر وعذاب، ففي قول أيوب: أني مسني الشيطان بنصب وعذاب، كناية لطيفة عن طلب لطف الله به، ورفع النصب والعذاب عنه بأنهما صارا مدخلًا للشيطان إلى نفسه؛ فطلب العصمة من ذلك على نحو قول يوسف- عليه السلام-: **{ وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين} (سورة يوسف: ٣٣)**. وتنوين (نصب، وعذاب) للتعظيم أو للنوعية، وعدل عن تعريفهما؛ لأنهما معلومان لله تعالى.

ج- {اركض برجلك هذا مغتسلٌ باردٌ وشراب}: الركض فيه إيذانٌ بأن هذا فيه استجابة لدعائه، فالركض: هو الضرب في الأرض بالرجل. ووصف الماء بذلك في سياق الثناء عليه مشيرًا إلى أن ذلك الماء فيه شفاؤه إذا اغتسل به وشرب منه؛ ليتناسب قول الله له مع

ندائه ربه؛ لظهور أن القول عقب النداء هو قول استجابة الدعاء من المدعو. ووصفه بـ " بارد " إيماء إلى أن به زوال ما بأيوب من الحمى من القروح، أي : نافع شاف، وبالتنوين استغني عن وصف شراب، إذ من المعلوم أن الماء شرابٌ، فلولا إرادة التعظيم بالتنوين لكان الإخبار عن الماء بأنه شراب إخبارًا بأمر معلوم، ومرجع تعظيم شراب إلى كونه عظيمًا لأيوب، وهو شفاء ما به من مرض.

د- {وخذ بيدك ضغثًا فاضرب به ولا تحنث}. التقدير: وقلنا خذ بيدك ضغثًا فاضرب به ولا تحنث، وهو قول غير القول المحذوف في قوله: اركض برجلك؛ لأن ذلك استجابة دعوة، وهذا إفتاءٌ برخصة، وذلك له قصة، وهذا له قصةٌ أخرى أشارت إليها الآية إجمالًا، ولم يرد في تعيينها أثر صحيح، ومجملها أن زوج أيوب حاولت عملًا ففسد عليه صبره من استعانة ببعض الناس على مواساته، فلما علم بذلك غضب، وأقسم ليضربنها عددًا من الضرب ثم ندم، وكان محبًّا لها، وكانت لائذةً به في مدة مرضه، فلما سري عنه أشفق على امرأته من ذلك، ولم يكن في دينهم كفارة اليمين، فأوحى الله إليه أن يضربها بحزمةٍ فيها عدد من الأعواد بعدد الضربات التي أقسم عليها؛ رفقًا بزوجه لأجله، وحفظًا ليمينه من حنثه، إذ لا يليق الحنث بمقام النبوة. وليست هذه القضية ذات أثر في الغرض الذي سيقت لأجله قصة أيوب من الأسوة، وإنما ذكرت هنا تكملةً لمظهر لطف الله- تبارك وتعالى- بأيوب جزاءً على صبره.

هـ - {إنَّا وجدناه صابرًا نِعم العبد إنه أواب}: علة لجملة اركض برجلك، ومعنى وجدناه: أنه ظهر في صبره ما كان في علم الله منه. **وقوله:(نعم العبد إنه أواب) مثل قوله في سليمان: {نعم العبد إنه أواب} (سورة ص: ٣٠).** فكان سليمان أوابًا لله تعالى من فتنة الغنى والنعيم، وأيوب أوابًا لله من فتنة الضر والاحتياج، وكان الثناء عليهما متماثلًا لاستوائهما في الأوبة، وإن اختلفت الدواعي. قال سفيان: أثنى الله على عبدين ابتليا، أحدهما صابر، والآخر شاكر، ثناءً واحدًا، فقال لأيوب ولسليمان: {نعم العبد إنه أواب}[١].

وأختم بما قاله ابن القيم معلقًا على دعاء أيوب- عليه السلام-: "لقد جمع هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة من أيوب إلى ربه تعالى"[٢].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (ج٢٤/ ٢٧٠- ٢٧٥) بتصرف.
(٢) التفسير القيم، لابن قيم الجوزية (ص٣٦٤).

المبحث السابع

الافتقار إلى الله تعالى في حياة يونس (عليه السلام)

يُعد يونس- عليه السلام- مِن جملة مَن خُصُّوا بالذكر مِن الأنبياء- عليهم السلام-؛ لأجل ما في قصته من الآيات في الالتجاء إلى الله تعالى، والافتقار الحقيقي إليه سبحانه، والندم على على ما صدر من يونس من الجزع، ثم استجابة الله تعالى له.

هو رسولٌ من رسل الله- عليهم السلام-، قيل في نسبه: إنّه يونس بن متّى، ثمّ يتصل نسبه بنسل بنيامين شقيق يوسف- عليه السلام-. وقد بُعث يونس- عليه السلام- إلى نينوى، في العراق، إلى قومٍ انتشر الشرك بينهم؛ فكانوا يعبدون الأصنام، فأوحى إليهم يونس وأرشدهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، إلا أنّهم كذّبوه، وكفروا برسالته، وأصرّوا على عبادة أصنامهم وأوثانهم، وكان من بينها صنم أكبر يُدعى: عشتار، وقد قيل: إنّ دعوة يونس- عليه السلام- لقومه استمرت ثلاثاً وثلاثين سنة، إلّا أنّه لم يؤمن معه سوى رجلين، ولذلك شعر يونس- عليه السلام- باليأس من قومه، فتركهم وخرج من بلدتهم. ولمّا خرج يونس- عليه السلام- من نينوى، أقبل على قومٍ وركب معهم سفينتهم، فلمّا أن وصلت بهم جميعاً إلى عُرض البحر، تمايلت السفينة واضطربت واهتزّت، فلم يجدوا سبيلاً للخلاص إلى أن يلقوا بأحدهم في البحر؛ تخفيفاً للحِمل، فاقترعوا على من يُلقي بنفسه في البحر، فخرج سهم يونس عليه السلام، فلمّا التمسوا فيه الخير والصلاح، لم يحبّذوا أن يُلقي بنفسه في البحر، فأعادوا القرعة ثلاث مرّات، وكان يخرج سهم يونس -عليه السلام- في كلّ مرّة، فلم يجد يونس -عليه السلام- إلّا أن يلقي نفسه في البحر، وظنّ أنّ الله-تعالى- سيُنجيه من الغرق، وبالفعل فقد أقبل إليه حوت أرسله الله تعالى؛ فالتقمه الحوت، وكما قال تعالى: {فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون}.

ويظهر الافتقار إلى الله تعالى في حياة يونس- عليه السلام- في الآيات القرآنية الآتية:

١- قال تعالى: {وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين} (سورة الأنبياء: ٨٧- ٨٨).

لنا وقفات مع هاتين الآيتين الكريمتين، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- ذا النون: هو النبي يونس- عليه السلام-، وهو صاحب الحوت، لُقِّب به لأنه ابتلعه في بطنه؛ بعد خروجه غضبان من قومه أهل (نينوى)؛ لكن الله تعالى حفظ نفسه، فلم يمسه الحوت بضر، فلا جرح لحمه، ولا كسر عظمه؛ بل نجَّاه الله تعالى، قال تعالى: {وكذلك ننجي المؤمنين}.

ب- اختلف المفسرون في تأويل: {فظن أن لن نقدر عليه}. وذهبوا إلى أربعة أقوال، وهي كالتالي[١]:

- أن معناها: فظن أن لن نعاقبه بالتضييق عليه في بطن الحوت. وهذا هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين، ورجحه الطبري، وغيره.
- أن معناها: فظن أن لن نقضي عليه العقوبة. روي هذا عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، واختاره الفراء، وهو ما ذهب إليه الشوكاني.
- أن ذلك على الاستفهام، ومعناه: أفظن أن لن نقدر عليه؟ وبه قال ابن زيد، وضعفه ابن جرير الطبري.
- ظن أنه يُعجز ربه؛ فلا يقدر عليه. روي عن الحسن وابن جبير، وهو قول فاسد.

ج- قال الطاهر بن عاشور، في تفسير: {فظن أن لن نقدر عليه}، بعد أن ذكر أقوال المفسرين في تأويلها: "وعندي فيه تأويلان آخران، وهما أنه ظن وهو في جوف الحوت أن الله غير مخلصه في بطن الحوت؛ لأنه رأى ذلك مستحيلًا عادة، وعلى هذا يكون التعقيب بحسب الواقعة، أي: ظن بعد أن ابتلعه الحوت. وأما نداؤه ربه فذلك توبة صدرت منه عن تقصيره أو عجلته أو خطأ اجتهاده، ولذلك قال: إني كنت من الظالمين مبالغة في

(١) انظر: جامع البيان، للطبري (١٨/ ٥١٤- ٥١٦)؛ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١١/ ٣٣١).

اعترافه بظلم نفسه، فأسند إليه فعل الكون الدال على رسوخ الوصف، وجعل الخبر أنه واحد من فريق الظالمين، وهو أدل على أرسخية الوصف، أو أنه ظن بحسب الأسباب المعتادة أنه يهاجر من دار قومه، ولم يظن أن الله يعوقه عن ذلك، إذ لم يسبق إليه وحيٌ من الله"[1].

د- {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين}. هذه من الابتهالات الرائعة التي بثَّها أنبياء الله، واصفين أنفسهم بالعجز، ومخبرين عن قدرة ربهم- تبارك وتعالى-، واعترافهم بتقصيرهم وظلمهم لأنفسهم، فليس أدل على ذلك من دعوة يونس- عليه السلام- التي نبَّهنا لها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قائلًا: "دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين. فإنه لم يدع بها رجلٌ مسلم في شيء قط؛ إلا استجاب الله له"[2].

فنجد في هذا الحديث الشريف أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قد أطلق على دعاء ذي النون: (دعوة). ويوضح لنا ابن تيمية سبب هذه التسمية، وهو أنها تتضمن نوعيِّ الدعاء- دعاء المسألة ودعاء العبادة-، ثم يبيِّنُ لنا ابن تيمية وجه ذلك بقوله: "قوله: (لا إله إلا أنت): اعترافٌ بتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية يتضمن نوعيِّ الدعاء، فإن الإله هو المستحق لأن يُدعى دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وهو الله الذي لا إله إلا هو. (سبحانك): إن هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه، والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب. (إني كنتُ من الظالمين): اعترافٌ بالذنب، وهذا الاعتراف يتضمن طلب المغفرة، وحيث إن الطالب السائل تارةً يسأل بصيغة الطلب، وتارةً يسأل بصيغة الخبر، إما بوصف حاله، وإما بوصف حال المسؤول، وإما بوصف الحالين. والمقام مقام اعتراف بأن ما أصاب صاحب الحوت من الشر كان بذنبٍ، وهو الذي أدخل الضر على نفسه؛ فناسب حاله أن يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه، ولم يذكر صيغة طلب المغفرة"[3].

❄❄❄❄❄❄❄

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (ج١٨/١٣٢).
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات عن رسول الله- ﷺ-، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد، حديث رقم: (٣٥٠٥). وقال الألباني في صحيح الترمذي (٣/٤٤٣): "حديث صحيح"
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، (١٠/٢٤٦- ٢٤٧).

المبحث الثامن

الافتقار إلى الله تعالى في حياة موسى (عليه السلام)

يُعد موسى- عليه السلام- أحد أولي العزم الخمسة، الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم الغليظ، والذي ذكره القرآن الكريم في قول الله تعالى: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا} (سورة الأحزاب: ٧).

وقد وردت قصة موسى- عليه السلام- في العديد من سور القرآن الكريم، ويُعد موسى- عليه السلام- أكثر الأنبياء والمرسلين ذكرًا في القرآن الكريم.

فاعلم- يا رعاك الله- أن قصة موسى- عليه السلام- على طولها وأحداثها الكثيرة والمتشابكة، وتكرار أجزاء منها فى معظم السور، إلا أنها فى كل مرةٍ تأتى بجديد يثير خيال القارئ، ويشركه فى الوقائع الحقيقية بسحر اللغة والبيان، والصور الحية، وجميع عناصر القصة من أشخاص، وأزمنة، وأماكن، وسياق زمنى، وتجسيم أدبى، يشعر معه القارئ أنه يرى صورًا حية لا تزال نابضة .. قمة فى الإيجاز والإعجاز اللغوى .. لذلك لا يمل أبدًا اً قارئ القرآن من قراءة الذكر الحكيم .. إضافةً إلى أن الموعظة القصصية أقوى تأثيرًا فى نفس المتلقى .. وقصة موسى- عليه السلام- ممتلئة بكل الثراء الدرامى منذ ميلاده، مرورًا بفراره بعد قتل أحد المصريين، وسفره للشام وزواجه، ثم عودته هو وأهله إلى مصر، وحديثه مع الله تعالى، وذهابه مع أخيه هارون- عليهما السلام- إلى فرعون بالقول اللين؛ لعله يتذكر أو يخشى.

ولسنا نحن هنا بصدد الحديث عن قصته؛ لكن الذي يهمنا في هذا البحث هو الحديث عن الافتقار في حياته.

ويظهر الافتقار إلى الله تعالى في حياة موسى- عليه السلام- في الآيات القرآنية الآتية:

١- **قال تعالى: {قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين} (سورة المائدة: ٢٤-٢٥).**

عندما أمر الله تعالى بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة؛ أبوا وامتنعوا خوفًا من سكانها الموجودين بها، على الرغم من أن الله تعالى وعدهم بالنصر حال دخولهم؛ لكنهم لم يمثلوا لأمر الله، ولم يثقوا في وعد الله- كعادتهم على مر الدهور والأجيال-، فقالوا لنبيهم موسى- عليه السلام-: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا قاعدون هنا لن نقاتل البتة.

وعندئذٍ لم يجد موسى- عليه السلام- أمامه سوى الافتقار إلى ربه تعالى، واللجوء إليه، فقال مناجيًا ربه، أو بمسمعٍ من قومه ليوقفهم على عدم امتثالهم أمر ربهم، فقال: "رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي". أي: لا أقدر إلا على نفسي وأخي. (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين). أي: لا تؤاخذنا بفعلهم وإجرامهم، ذلك لأن موسى- عليه السلام- خشي أن يصيبهم عذاب في الدنيا، فيهلك الجميع؛ لذا طلب النجاة من ربه تعالى. ولا يصح أن يكون قصد موسى الفرق بينهم في الآخرة؛ لأنه معلوم أن ربنا- تبارك وتعالى- لا يؤاخذ الصالح بذنب الطالح، ولا المؤمن بذنب الكافر والفاسق، ولأن براءة موسى وأخيه- عليهما السلام- من الرضا بما فعله قومهما، أمرٌ يعلمه الله تعالى، حيث إنهما أنكرا وتبرءا ورفضا أفعال قومهما؛ لكنهما ليس لهما سلطان عليهم؛ سوى اللجوء إلى ربهما، والافتقار إليه سبحانه.

ويجوز أيضًا أن يراد بالفرق بينهم: الحكم بينهم، وإيقاف الضالين على غلطهم وجرمهم.

٢- **قال تعالى: {وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ. وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ} (سورة الأعراف: ١٥٥-١٥٦).**

لنا وقفات مع هاتين الآيتين الكريمتين، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- اختار موسى- عليه السلام- سبعين رجلًا من قومه، وقد وقع هذا الاختيارعندما أمره الله بالمجيء للمناجاة، والتي جاءت في قوله تعالى: {وواعدنا موسى ثلاثين ليلة...}(سورة الأعراف: ١٤٢).

ب- الضمير في (أخذتهم الرجفة) للسبعين . فالظاهر أن المراد في هذه الآية هو حكاية حال ميقات المناجاة الثانية التي وقع فيها الاستغفار لقومه، وأن الرجفة المحكية هنا رجفة أخذتهم مثل الرجفة التي أخذتهم في المناجاة الأولى؛ لأن الرجفة تكون من تجلي أثر عظيم من آثار الصفات الإلهية، فإن قول موسى- عليه السلام-: {أتهلكنا بما فعل السفهاء منا} يؤذن بأنه يعنى به عبادتهم العجل، وحضورهم ذلك، وسكوتهم، وهو المعني بقوله تعالى: { إن هي إلا فتنتك}. وقد خشي موسى أن تلك الرجفة مقدمة عذاب، كما كان سيدنا محمدٌ- صلى الله عليه وسلم- يخشى الريح أن يكون مبدأ عذاب . ويجوز أن يكون ذلك في المناجاة الأولى، وأن قوله: بما فعل السفهاء منا، يعني به ما صدر من بني إسرائيل من التصلب قبل المناجاة ، كقولهم: { لن نصبر على طعام واحد }، وسؤالهم رؤية الله تعالى. لكن الظاهر أن مثل ذلك لا يطلق عليه (فعل) في قوله: { بما فعل السفهاء منا }. والحاصل أن موضع العبرة في هذه القصة هو التوقي من غضب الله تعالى، وخوف بطشه، ومقام الرسل من الخشية، ودعاء موسى.

وقد صيغ نظم الكلام في قوله: { فلما أخذتهم الرجفة } على نحو ما صيغ عليه قوله:{ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا }. والأخذ مجاز في الإصابة الشديدة المتمكنة تمكن الآخذ من المأخوذ .

ج- (لو) في قوله {لو شئت أهلكتهم} يجوز أن تكون مستعملة في التمني، وهو معنى مجازيٌّ، ناشئ من معنى الامتناع الذي هو معنى لو الأصلي. وقد صرح بالجواب في الآية وهو (شئت أهلكتهم)، أي: ليتك أردت إهلاكهم، أي: السبعين الذين معه، فجملة أهلكتهم بدل اشتمال من جملة (شئت) من قبل خطيئة القوم التي تسبب عنها الرجوع إلى المناجاة.

وعلى هذا التقدير في (لو) لا يكون في قوله: (أهلكتهم) حذف اللام التي من شأنها أن تقترن بجواب (لو)، وإنما قال أهلكتهم وإياي، ولم يقل: أهلكتنا؛ للتفرقة بين الإهلاكين؛ لأن إهلاك السبعين لأجل سكوتهم على عبادة العجل، وإهلاك موسى قد يكون لأجل أن لا يشهد هلاك القوم... وقد خشي موسى أن الله يهلك جميع القوم بتلك الرجفة؛ لأن سائر القوم أجدر بالإهلاك من السبعين... وقد خشي موسى أن تكون تلك الرجفة أمارة غضب، ومقدمة إهلاك عقوبة على عبادتهم العجل، فلذلك قال: أتهلكنا بما فعل السفهاء منا. فالسفهاء هم الذين عبدوا العجل، وسمي شركهم سفهًا؛ لأنه شركٌ مشوب بخسة عقل، إذ جعلوا صورة صنعوها بأنفسهم إلهًا لهم . ويجوز أن يكون حرف (لو) مستعملًا في معناه الأصلي من امتناع جوابه لامتناع شرطه... فيكون المعنى اعترافًا بمنة العفو عنهم، وتمهيدًا للتعريض بطلب العفو عنهم الآن، وهو المقصود من قوله: { أتهلكنا بما فعل السفهاء }. أي: إنك لم تشأ إهلاكهم حين تلبسوا بعبادة العجل؛ فلا تهلكهم الآن.

د- الاستفهام في قوله: (أتهلكنا) مستعمل في التفجع، أي: أخشى ذلك؛ لأن القوم استحقوا العذاب، ويخشى أن يشمل عذاب الله من كان مع القوم المستحقين وإن لم يشاركهم في سبب العذاب... وقد خشي موسى سوء الظنة لنفسه ولأخيه، وللبراء من قومه أن يظنهم الأمم التي يبلغها خبرهم أنهم مجرمون. وجملة (أتهلكنا) مستأنفة على طريقة تقطيع كلام الحزين الخائف السائل. وكذلك جملة (إن هي إلا فتنتك). وجملة (أنت ولينا). والقصد من جملة { أنت ولينا } الاعتراف بالانقطاع لعبادة الله تعالى؛ تمهيدًا لمطلب المغفرة والرحمة؛ لأن شأن الولي أن يرحم مولاه وينصره .

هـ - الولي: الذي له ولاية على أحد، والولاية حلف أو عتق يقتضي النصرة والإعانة، فإن كان من جانبين متكافئين؛ فكلا المتعاقدين يقال له مولى. وإن كان أحد الجانبين أقوى؛ قيل للقوي: ولي، وللضعيف: مولى. وإذ قد كانت الولاية غير قابلة للتعدد؛ لأن المرء لا يتولى غير مواليه؛ كان قوله: { أنت ولينا } مقتضيًا عدم الانتصار بغير الله، وفي صريحه صيغة قصر .

والتفريع عن الولاية في قوله : { فاغفر لنا} تفريع كلام على كلام، وليس المراد أن الولي يتعين عليه الغفران . وقدم المغفرة على الرحمة لأن المغفرة سبب لرحمات كثيرة... وإنما عطف جملة { وأنت خير الغافرين }؛ لأنه خبر في معنى طلب المغفرة العظيمة ، فعطف على الدعاء، كأنه قيل : فاغفر لنا وارحمنا واغفر لنا جميع ذنوبنا ؛ لأن الزيادة في المغفرة من آثار الرحمة .

و- {واكتب لنا....إنا هُدنا إليك}. (اكتب) مستعار لمعنى العطاء المحقق حصوله، المجدد مرةً بعد مرة. فالمعنى: آتنا الحسنة تلو الحسنة في أزمان حياتنا وفي يوم القيامة، دل على هذا المعنى لفظ (اكتب). ولولاه لكان دعاءً صادقًا بإعطاء حسنة واحدة، فيحتاج إلى الاستعانة على العموم بقرينة الدعاء، فإن النكرة يراد بها العموم في سياق الدعاء.

وجملة: { إنا هدنا إليك } مسوقة مساق التعليل للطلب والاستجابة، ولذلك فصلت. ولأن موقع حرف التأكيد في أولها موقع الاهتمام؛ فيفيد التعليل والربط.

و (هدنا) معناه تبنا، يقال: هاد يهود إذا رجع وتاب فهو مضموم الهاء في هذه الآية باتفاق القراءات المتواترة، والمعنى: تبنا مما عسى أن نكون ألممنا به من ذنبٍ وتقصير، وهذا إخبار عن نفسه، وعن المختارين من قومه، بما يعلم من صدق سرائرهم [1].

٣- قال تعالى: {وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ} (سورة يونس: ٨٨).

لنا وقفات مع هذه الآية الكريمة، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- نجد موسى- عليه السلام- قد افتتح دعاءه بالنداء؛ لمناسبته لمقام الدعاء. ونادى ربه تعالى بوصف الربوبية تذللًا لإظهار العبودية والافتقار الحقيقي؛ توطئة للدعاء على فرعون وقومه.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج١٠/ ١٢٤-١٢٩)؛ وانظر أيضًا: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تفسير سورة الأعراف، الآية رقم: (١٥٥).

ب- مهد موسى لدعائه تمهيدًا يدل على أن ما سأله من الله تعالى لزجر فرعون وملئه، إنما هو لمصلحة الدين لا للانتقام منه لقومه ولنفسه، فسأل الله تعالى سلب النعمة عن فرعون وملئه، وحلول العذاب بهم؛ لخضد شوكتهم، وتذليل تجبرهم؛ ليرجعوا عن ضلالهم ويسهل قبولهم الإيمان. ولما كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهالة والخباثة؛ جعل موسى إمداد فرعون بالنعمة مغريًا لفرعون بالاسترسال على الإعراض عن الدين، فكان دعاء موسى عليهم استصلاحًا لهم، وتطلبًا لإيمانهم بوسائل التشديد عليهم، ولكن الله تعالى علم من قلوبهم ما لم يعلمه موسى، وقضى عليهم بالاستئصال.

ج- قوله: {إنك آتيت فرعون وملأه...}. توطئة للدعاء عليهم، فليس المقصود به حقيقة الإخبار ضرورة أن موسى يوقن أن الله تعالى يعلم ذلك؛ فتعين أن الخبر مستعمل في التمهيد بطلب سلب النعم عنهم. ثم الانتقال إلى الدعاء بسلب ما أوتوا. فاقتران الخبر بحرف (إن) في قوله: (إنك آتيت) مقصود به الاهتمام بهذا المعنى الذي استعمل فيه الخبر، إذ ليس المقام مقام دفع تردد، أو دفع إنكار.

د- قوله: {ليضلوا عن سبيلك... ربنا اطمس...}. اللام هنا: هي اللام العاقبة. فالمعنى: إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالًا فضلوا بذلك وأضلوا، فهم ضلوا في أنفسهم، وهم قادة قومهم، فكان ضلالهم تضليلًا لغيرهم، وكذلك إذا أضلوا الناس فإنهم ما أضلوهم إلا وهم ضالون مثلهم. والزينة من الحلي والذهب والأموال والمباني الضخمة كانت هي سبب ضلالهم، والأموال كانت سبب إضلال الناس. (اطمس): الطمس هو المحو والإزالة. فنجده دعا عليهم بالأنكاد والأحزان التي تجعل قلوبهم في ضيق وحرج، أي: اجعلهم في عناء وبلبلة بال ما داموا في الكفر، وهذا حرص من موسى- عليه السلام- على وسائل هدايتهم، رجاء أنهم إذا زالت عنهم النعم، وضاقت صدورهم بكروب الحياة؛ تفكروا في سبب ذلك؛ فعجلوا بالتوبة إلى الله تعالى، كما هو معتاد في النفوس الغافلة.

هـ - نجد موسى- عليه السلام- أعاد النداء بقوله: (ربنا) بين الجملة المعللة والجملة المعللة؛ لتأكيد التذلل والافتقار إلى الله تعالى، والتعرض للإجابة، ولإظهار التبرؤ من قصد الاعتراض. ثم نجده- عليه السلام- يُعيد النداء بقوله: (ربنا)، مرةً ثالثةً؛ لزيادة تأكيد التوجه والتضرع ولاافتقار إلى ربه- تبارك وتعالى-.

و- {فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم}. نجده- عليه السلام- عدل عن إيقاع جواب الدعاء بصيغة إثبات الإيمان؛ لأنه أراد أن يجمع بين ترتيب الجواب على الدعاء، وبين ما استبان له من طبع نفوسهم بطبع أنهم لا تنفع فيهم الحجج، وأن قساوة قلوبهم، وشراسة نفوسهم، لا تذللها إلا الآلام الجسدية والنفسانية، وكل ذلك علاج بما هو مظنة إيصالهم من طرق الضغط والشدة، حيث لم تُجدِ فيهم وسائل الحجة، فقال: (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم). أي: إن شأنهم ذلك، وهذا إيجازٌ بديع، إذ جمع في هذا التركيب جواب الدعاء، وبيان علة الدعاء عليهم بذلك، والمهعنى: ليضلوا عن سبيلك، فيستمر ضلالهم حتى يروا العذاب الأليم من الفقر والجوع، والنكد في النفس، وغير ذلك.

و (يروا) مستعملة هنا في الإحساس على وجه المجاز المرسل، أو مستعملة كناية عن حلول العذاب الأليم بهم؛ لأن المشاهدة ملازمة لحلول الشيء المشاهد [1].

٤- **قال تعالى: {قال رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. واجعل لي وزيرًا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرًا. ونذكرك كثيرًا. إنك كنت بنا بصيرًا} (سورة طه، الآيات ٢٥: ٣٥).**

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج١٢/ ٢٦٨- ٢٧٢)؛ وانظر أيضًا: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تفسير سورة يونس، الآية رقم: (٨٨).

لنا وقفات مع هذه الآيات الكريمات، وبيان ذلك فيما يلي:

أ – لقد سأل موسى- عليه السلام- ربه تعالى، مفتقرًا إليه سبحانه؛ لأمر عظيمٍ وجللٍ، وذلك حين أمره الله تعالى بدعوة أعتى أهل الأرض في ذلك الوقت كفرًا وطغيانًا، وأكثر جنودًا وعتادًا، وهو فرعون، الذي ادعى الألوهية كذبًا وزورًا؛ لذا فقد سأل موسى- عليه السلام- ربه تعالى التوفيق إلى بعض المطالب والمقاصد، التي تكون له عونًا لنجاح دعوته.

ب – بدأ بقوله: {رب اشرح لي صدري}. نجد في دعائه دلالة جلية على معرفته التامة، وإقراره بتوحيد الربوبية، وهل الأمان والرزق والهداية وقبول الأعمال والدعاء إلا من مقتضيات الربوبية ومستلزماتها؟!. فقال: (رب اشرح لي صدري). أي: وسِّعه بالنور والإيمان والحكمة؛ حتى أتحمل الأذى بكل أنواعه القولي والفعلي، حيث إن انشراح الصدر يحوِّل مشقة التكليف إلى راحة ونعيم.

ج – {ويسر لي أمري.....}. أي: سهِّل عليَّ كل أمر أسلكه، وكل طريق أقصده في سبيلك، وهوِّن عليَّ ما أمامي من الشدائد.

يقول السعدي في تفسيره: "ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله"[1].

د - فلما كانت أهم وسائل الدعوة إلى الله تعالى: قدرة الداعي على البيان والإفهام بالقول؛ قال: (واحلل عقدةً من لساني. يفقهوا قولي). ففي هذا طلب التوفيق إلى حسن الكلام في الدعوة إلى الله تعالى في خطاب الناس، والتأثير على عقولهم وعواطفهم بالحكمة بالقول، وإلى الرفق بالفعل.

(١) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (ص٥٨٣).

يقول ابن كثير: "وسؤاله لربه أن يزول عنه اللثغ، وذلك حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه حين كان صغيرًا في بيت آسية زوجة فرعون، ولم يسأل ربه أن يزول من لسانهبالكلية؛ بل بحيث يزول العي، ويحصل له فهم ما يراد منه، وهو قدر الحاجة"[1].

هـ - وفي تفسير قول الله تعالى في سورة الشعراء: **{قال رب إني أخاف أن يكذبون. ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون. ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون} (سورة الشعراء، الآيات ١٢: ١٤)**. يقول سيد قطب: "إن خوفه ليس من مجرد التكذيب؛ لكن من حصوله في وقتٍ يضيق فيه صدره، ولا ينطلق لسانه؛ فلا يملك أن يُبيِّن، وأن يناقش هذا التكذيب، ويُفنده، إذ كانت بلسانه حُبسة، هي التي قال عنها في (سورة طه: ٢٧): "واحلل عقدةً من لساني". فمِن هنا خشي موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالمٍ جبارٍ كفرعون؛ فشكا إلى ربه تعالى ضعفه، وطلب إليه أن يوحي إلى هارون، ويُشركه معه في الرسالة؛ اتقاءً للتقصير في أداء التكليف"[2].

و – وبعد أن سأل ربه تعالى من المطالب الأخرى، نجده قد بيَّن الغاية من هذه المطالب، مستخدمًا كلمة (كي)، التي تفيد العِلِّية، أي: أسألك تلك الأمور حتى نذكرك الذكر الكثير، من التسبيح والتهليل والتكبير، وغير ذلك. فتضمنت هذه الدعوة سؤال الله تعالى الإعانة على أمور الدين، من العبادة والطاعة والذكر والتسبيح.

ويُستفاد من ذلك: أنه يندب للداعي ذكر علة دعائه، خاصةً إذا كان من أمور الدين.

❄❄❄❄❄❄❄

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/٢٠٤).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/٧١٨).

المبحث التاسع

الافتقار إلى الله تعالى في حياة داود (عليه السلام)

هو من الأنبياء والرسل الكرام- عليهم السلام-، وقد آتاه الله تعالى النبوة والمُلك، وجعله رسولًا إلى بني إسرائيل، وقد ورد اسمُ داود- عليه السلام- في القرآن الكريم في ستة عشر موضعًا.

ونسبه هو: داود بن ايشا بن عويد بن عابر، إلى أن ينتهي النسب إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقد جمع الله- تبارك وتعالى- له بين النبوة والمُلك، وأنزل عليه الزبور.

ومما أنعم الله- تبارك وتعالى- على نبيه داود- عليه السلام- أنْ علَّمه منطق الطير، وألان له الحديد، فكان بين يديه- بإذن الله تعالى- كالعجين، حتى كان يفتله بيده، ولا يحتاج إلى نار ولا مطرقة، فكان يصنع منها الدروع؛ ليحصّن بها جنوده من الأعداء، ولدرء خطر الحرب والمعارك. **قال تعالى: {واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب. إنا سخرنا الجبال معه يُسبحن بالعشي والإشراق. والطير محشورة كلٌّ له أواب. وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب} (سورة ص: ١٧-٢٠).**

ويظهر الافتقار إلى الله تعالى في حياة داود- عليه السلام- في **قول الله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ. إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ. قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ. فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ. يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} (سورة ص: ٢١-٢٦).**

لنا وقفات مع هذه الآيات الكريمات، وبيان ذلك فيما يلي:

١- **{وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}.**

أي: وهل أتاك يا محمد نبأ الخصم وأمرهما العجيب مع داود، حين تسلَّق الخَصْمان جِدارَ المحراب- وهو مقدم البيت وأشرفه-، ونزلا من الجدار حتى دخلا على داود وهو في مكان عبادته؟!

قال البغوي: "إنما جمَعَ الفعلَ وهما اثنان؛ لأن الخَصْم اسمٌ يصلُح للواحد والاثنين، والجمع والمذكر والمؤنث، ومعنى الجمع في الاثنين موجود؛ لأن معنى الجَمْع ضمُّ شيء إلى شيء؛ هذا كما **قال الله تعالى: {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} (سورة التحريم: ٤)** "[١].

وقال ابن كثير: "ذكر المفسِّرون ها هنا قصةً أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبُت فيها عن المعصوم حديث يجب اتِّباعه، فالأولى أن يُقتصَر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُردَّ علمُها إلى الله- عز وجل-؛ فإن القرآن حقٌّ، وما تضمَّن فهو حقٌّ أيضًا"[٢].

٢- **{إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ}.**

أي: اذكر حين دخل الخَصْمان على داود بغتةً من غير باب المحراب بلا استئذان؛ فخاف منهما. قال الخصمان لداود حين رأياه فزع من دخولهما عليه: لا تخف، نحن خَصْمان، تعدَّى أحدُنا على الآخر وظلمه بغير حق، فاقض يا داود بيننا بالعدل، ولا تجُرْ في القضاء فتتجاوز الحدَّ بالميل مع أحدنا على صاحبه، وأرشدنا بحكمك العادل بيننا إلى قصد الطريق المستقيم، ولا تخالف بنا إلى غير الحق[٣].

---

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي (٦٠/٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦٠/٧).
(٣) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٥٣/٢٠-٥٦)؛ والتحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (٢٣/ ٢٣٣-٢٣٤).

٣- {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}.

أي: قال أحد الخَصْمين لداود: إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون شاةً أنثى من الضأن، ولي شاة واحدة، لا أملك غيرها، فقال لي أخي: أعطني شاتَكَ وضُمَّها إليَّ لأتملكها، وتكمل عدد نعاجي مائة، وظلمني أخي في مخاطبته إيَّاي، وغلبني وقهرني حين رأى مني تمنُّعًا ليأخذ نعجتي من غير طيب نفسٍ مني!

قال أبو حيان: "الظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضَّأْن، ولا يُكنَّى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك؛ لأن ذلك الإخبار كان صادرًا من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة والفرض لها، من غير تلبُّسٍ بشيء منها، فمثَّلُوا بقصة رجل له نعجة، ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمَّة المائة، فطمع في نعجة خليطه، وأراد انتزاعها منه، وحاجَّه في ذلك مُحاجَّة حريصٍ على بلوغ مراده" [(١)].

وقد ذهب أكثر المفسرين- ومنهم: الطبري والزمخشري والقرطبي- إلى أن المراد بالنعجة هنا المرأة، والمعنى: ولي امرأة واحدة، فقال لي أخي: انزل عنها لي، وضُمَّها إليَّ حتى أكفُلَها، وأصيرُ بَعْلًا لها، وذكروا أن هذا مَثَلٌ ضربَه الخَصْم لداود؛ لأن داود - كما قيل - كان له تسع وتسعون امرأةً، فرغب أن يتزوَّج امرأة رجل من قومه [(٢)].

وقال البغوي: "قال الحسين بن الفضل: هذا تعريض للتنبيه والتفهيم؛ لأنه لم يكن هناك نِعاجٌ ولا بَغْيٌ، فهو كقولهم: ضرب زيدٌ عَمْرًا، أو اشترى بكرٌ دارًا، ولا ضَرْب هُنالك ولا شِراء" [(٣)].

وقال ابن القيم: "تخريج هذا الكلام على المعاريض لا يكاد يتأتَّى؛ وإنما وجهه أنه كلام خرج على ضرب المثال؛ أي: إذا كان كذلك فكيف الحُكْم بيننا؟ ونظير هذا قول الملك للثلاثة الذين أراد الله أن يبتليهم: (مسكين وغريب وعابر سبيل، وقد تقطعت بي الحبال، ولا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، فأسألك بالذي أعطاك هذا المال بعيرًا أتبلَّغُ به في سفري هذا)، وهذا ليس بتعريضٍ؛

---

(١) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي، (١٤٩/٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٧٤/١٥)؛ جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٥٩/٢٠)؛ الكشاف، للزمخشري (٨٣/٤).
(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي (٦٠/٤).

وإنما هو تصريحٌ على وجه ضرب المثال، وإيهام أني أنا صاحب هذه القضية، كما أوهم الملكان داودَ أنهما صاحبا القصة؛ ليتمَّ الامتحان" [١].

قال ابن عاشور: "ليس في قول الخَصْمين: ﴿ هَذَا أَخِي ﴾ ولا في فرضهما الخصومة التي هي غير واقعة ارتكاب الكذب؛ لأن هذا من الأخبار المخالفة للواقع التي لا يريد المخبِر بها أن يظُنَّ المخْبَر (بالفتح) وقوعَها إلَّا ريثما يحصُل الغرض من العِبْرة بها، ثم ينكشف له باطنُها فيعلم أنها لم تقع، وما يجري في خلالها من الأوصاف والنسب غير الواقعة؛ فإنما هو على سبيل الفرض والتقدير، وعلى نية المشابهة" [٢].

٤- **{قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ}.**

أي: قال داود للخَصْم المتظلِّم من صاحبه: لقد ظلمك أخوك بسؤاله إيَّاكَ أن تُعطيَه نعجتَكَ الوحيدة؛ ليضُمَّها إلى نِعاجه الكثيرة.

وإن عادة أكثر الشركاء في الأموال أن يتعدَّى بعضُهم على بعض بالظلم، إلا الذين آمنوا بالله تعالى، وعملوا الطاعات، ولم يتجاوزوا أمر الله تعالى ونهيه، وقليل الصالحون الذين لا يظلمون أحدًا.

وعلم داود بعد قضائه بين الخَصْمين أنما ابتليناه وامتحنَّاه ليتنبَّه؛ فطلب من ربِّه- عز وجل- أن يغفرَ له ذنبه، وسقط ساجدًا، ورجع إلى الله تائبًا[٣].

---

(١) إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية (١٦٩/٣).
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج٢٣/ ٢٣٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦٢/٧).

وعن أبي سعيد الخُدْري- رضي الله عنه- قال: قرأ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وهو على المنبر، سورة (ص)، فلما بلغ السجدة؛ نزل فسجد وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشَزَّنَ- أي: تهيأ واستعد- الناس للسجود، فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: "إنما هي توبةُ نبيٍّ؛ ولكني رأيتُكم تشزَّنْتُم للسجود". فنزل فسجد وسجدوا" [١].

قال ابن تيمية: "المراد هنا: السجود، بالسنة واتفاق العلماء، فالمراد: خرَّ ساجدًا، وسمَّاه ركوعًا؛ لأن كل ساجد راكع، لا سيَّما إذا كان قائمًا، وسجود التلاوة من قيام أفضل، ولعلَّ داود سجَدَ من قيام، وقيل: خرَّ راكعًا؛ ليُبيِّن أن سجوده كان من قيام، وهو أكمل، ولفظ ﴿ خَرَّ ﴾ يدل على أنه وصل إلى الأرض، فجمع له معنى السجود والركوع"[٢].

وقال ابن العربي: "لا خلاف في أن الركوع ها هنا السجود، قلت: الخلاف موجود، والمعروف أنه ليس لبني إسرائيل سجود بالجبهة على الأرض، ويحتمل أن يكون السجود عبادة الأنبياء كشأن كثير من شرائع الإسلام كانت خاصة بالأنبياء"[٣].

٥- **{فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}.**

أي: فسترنا لداود ذلك الذنب، وعفونا عنه، ولم نؤاخذه بخطيئته، وإن لداود عندنا قُرْبةً منا، ومنزلةً عالية يوم القيامة، وحُسْن مرجع في الجنة، يرجع إليه في الآخرة[٤].

قال السعدي: "هذا الذنب الذي صدر من داود- عليه السلام- لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرُّض له من باب التكلُّف، وإنما الفائدة ما قصَّه الله علينا من لطفه به، وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها"[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: سجود القرآن، باب: السجود، حديث رقم: (١٤١٠)، و والبيهقي في: السنن الكبرى، حديث رقم: (٣٧٤٠).
(٢) جامع الرسائل، لابن تيمية (٣٦/١).
(٣) أحكام القرآن، لابن العربي (٥٧/٤).
(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٧٦/٢٠).
(٥) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي (ص٧١٢).

هذا، وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالفتنة ما جرى لداود من رغبته في تزوُّج امرأة رجل من قوادِه، وذكروا قصةً طويلة لا تصحُّ بأي حال من الأحوال[١].

وقد أبطل تلك القصة كثيرٌ من المحقِّقين؛ كابن حزم، وابن كثير، والشنقيطي، والألباني[٢].

وذهب بعض المفسرين- كالنحاس، والبغوي، والبيضاوي، وابن القيم، وابن عاشور- إلى صحَّة أصل القصة بما لا يتنافى مع مقام نبوة داود- عليه السلام-، وفيما يلي بيان ذلك:

قال أبو جعفر النحاس: "قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود- صلى الله عليه وسلم- وأوريا، وأكثرُها لا يصحُّ، ولا يتَّصِل إسنادُه، ولا ينبغي أن يجترَأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحَّتها، وأصحُّ ما رُوي في ذلك ما رواه مسروق، عن عبدالله بن مسعود، قال: "ما زاد داود- صلى الله عليه وسلم- على أن قال: { أَكْفِلْنِيهَا }؛ أي: انزل لي عنها". وروى المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: "ما زاد داود على أن قال: {أَكْفِلْنِيهَا }؛ أي: تحوَّل لي عنها وضُمَّها إليَّ". قال أبو جعفر: فهذا أجل ما روي في هذا، والمعنى عليه: أن داود- عليه السلام- سأل "أُوريَّا" أن يُطلِّق له امرأته كما يسأل الرجل الرجلَ أن يبيعه جاريته، فنبَّهَه الله- جل وعز- على ذلك وعاتبَه؛ لمَّا كان نبيًّا، وكان له تسع وتسعون، أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا وبالتزيُّد منها، فأمَّا غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه"[٣].

وقال البغوي: "قال القائلون بتنزيه الأنبياء في هذه القصة: إن ذنب داود إنما كان أنه تمنَّى أن تكون امرأة "أُوريَّا" حلالًا له، فاتَّفق غزو "أُوريَّا" وتقدمه في الحرب وهلاكه، فلما بلغ قتله داود لم يجزع عليه، كما جزع على غيره من جنده إذا هلك، ثم تزوَّج امرأته، فعاتبه الله على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغُرت، فهي عظيمة عند الله"[٤].

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري (٢٠/٧١، ٧٤، ٧٥)؛ زاد المسير، لابن الجوزي (٣/٥٦٤- ٥٦٦).
(٢) انظر في تفصيل ذلك: الفصل في الملل والنحل، لابن حزم (٤/ ١٤)؛ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/٦٠)؛ أضواء البيان، للشنقيطي (٦/٣٣٩)؛ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، للألباني (١/٤٨٤-٤٨٥).
(٣) معاني القرآن الكريم، للنحاس (٦/٩٨).
(٤) معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي (٤/٦١).

وقال البيضاوي: "{وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} ابتليناه بالذنب، أو امتحنَّاه بتلك الحكومة، هل يتنبَّه بها؟ وأقصى ما في هذه القضية الإشعار بأنه- عليه الصلاة والسلام- ودَّ أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله، فنبَّهَه اللهُ بهذه القصة، فاستغفر وأناب عنه، وما رُوي أن بصره وقع على امرأةٍ فعشقها، وسعى حتى تزوَّجها، وولدت منه سليمان، إن صحَّ فلعلَّه خطب مخطوبته، أو استنزله عن زوجته، وكان ذلك معتادًا فيما بينهم، وقد واسى الأنصارُ المهاجرين بهذا المعنى، وما قيل: إنه أرسل "أُوريَّا" إلى الجهاد مرارًا، وأمر أن يُقدَّم حتى قُتِل فتزوَّجها، هزء وافتراء"[1].

وقال ابن القيم: "نكاح المعشوقة هو دواء العشق الذي جعله الله دواءً شرعًا، وقد تداوى به داود- عليه السلام-، ولم يرتكب نبيُّ الله مُحرَّمًا؛ وإنما تزوَّج المرأة وضَمَّها إلى نسائه لمحبَّته لها، وكانت توبتُه بحسب منزلته عند الله، وعلوِّ مرتبته، ولا يليق بنا المزيد على هذا"[2].

وقال الشوكاني: "الظاهر من الخصومة التي وقعت بين الملكين تعريضًا لداود- عليه السلام- أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها، ويضُمُّها إلى نسائه، ولا يُنافي هذا العِصْمة الكائنة للأنبياء، فقد نبَّهَه الله على ذلك، وعرض له بإرسال ملائكته إليه ليتخاصموا في مثل قصته؛ حتى يستغفر لذنبه، ويتوب منه؛ فاستغفر وتاب"[3].

وقال ابن عاشور: "قد حُكِيت هذه القصة في سِفْر صمويل الثاني في الإصحاح الحادي عشر على خلاف ما في القرآن، وعلى خلاف ما تقتضيه العِصْمة لنبوَّة داود- عليه السلام- فاحذروه، والذي في القرآن هو الحق، والمنتظم مع المعتاد، وهو المهيمن عليه، ولو حُكي ذلك بخبر آحاد في المسلمين لوجب ردُّه، والجزم بوضْعِه؛ لمعارضته المقطوع به من عِصْمة الأنبياء ... أي: علم داود بعد انتهاء الخصومة أن الله جعلها له فتنة؛ ليُشعِره بحال فعلته مع "أُوريَّا"، وقد أشعره بذلك ما دلَّه عليه انصراف الخَصْمين بصورةٍ غير معتادة، فعلم أنهما ملكان، وأن الخصومة صورية؛ فعلم أن الله بعثهما إليه عتبًا له على متابعة نفسه زوجة "أُوريَّا"، وطلبه التنازُل عنها، وعبَّر عن

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (٢٧/٥)؛ وانظر أيضًا: معاني القرآن، للزجاج (٣٢٨/٤)؛ والكشاف، للزمخشري (٨١/٤).
(٢) الجواب الشافي، لابن القيم (ص٢٣٧).
(٣) فتح القدير، للشوكاني (٤٩٠/٤).

علمه ذلك بالظن؛ لأنه علمٌ نظري، اكتسبه بالتوسم في حال الحادثة، وكثيرًا ما يُعبَّر عن العلم النظري بالظَّنّ؛ لمشابهته الظن من حيث إنه لا يخلو من تردُّد في أول النظر"[١].

٦- {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.

أي: يا داود، إنا استخلفناك في أرض الشام بعد من كان قبلك من الأنبياء والصالحين لتأمُرَ بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتُدبِّر أمور أهلها الدينية والدنيوية بأمرنا، فاحكم بين الناس بالعَدْل الذي شرعته، ولا تتبع هوى نفسك المخالف لأمر الله في القضاء بين الناس وغير ذلك من أمور الدين والدنيا، فيضلك الهوى عن دين الله، فتترك الحق والعمل بالعدل، إن الذين يميلون عن العمل بدين الله لهم في النار عذاب شديد بسبب ضلالهم في الدنيا عن العمل بالحق والقضاء بالعدل، وبسبب نسيانهم يوم القيامة وتركهم الإيمان به والاستعداد له بالأعمال الصالحة[٢].

قال ابن تيمية: "سُمِّي الخليفة خليفة؛ لأنه يخلف من قبله، والله تعالى جعله يخلفه، كما جعل الليل يخلف النهار، والنهار يخلف الليل، ليس المراد أنه خليفة عن الله، كما ظنَّه بعض الناس"[٣].

وقال الشنقيطي: "معلوم أن نبي الله داود لا يحكم بغير الحق، ولا يتَّبع الهوى فيضله عن سبيل الله؛ ولكن الله تعالى يأمر أنبياءه- عليهم الصلاة والسلام-، وينهاهم ليشرع لأممهم"[٤].

❄❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (ج٢٣/ ٢٣٩).
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٧٧/٢٠)؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٨٨/١٥- ١٨٩)؛ تفسير البغوي (٦٦/٤).
(٣) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٥٢٥/٥).
(٤) أضواء البيان، للشنقيطي (٣٤٠/٦).

هذا، وقد ذكر عبد الرحمن السعدي في تفسيره بعض الفوائد من قصة داود- عليه السلام- مع الخصمين، والتي يمكننا إيجازها فيما يلي [1]:

١- أن الله تعالى يقصُّ على نبيِّه محمدٍ- صلى الله عليه وسلم- أخبار مَنْ قبلَه؛ ليُثبِّت فؤادَه، وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدَّة صبرهم وإنابتهم، ما يُشوِّقه إلى منافستهم، والتقرُّب إلى الله الذي تقرَّبوا له، والصبر على أذى قومه؛ ولهذا- في هذا الموضع - لما ذكر الله تعالى ما ذكر من أذية قومه، وكلامهم فيه، وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلَّى به.

٢- أن الله تعالى يمدح ويحبُّ القوَّة في طاعته؛ قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوَّة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلَّة بالقوى المضعفة للنفس.

٣- أن من أكبر نِعَم الله على عبده أن يرزقه العلمَ النافعَ، ويعرف الحُكْمَ والفَصْلَ بين الناس، كما امتنَّ الله به على عبده داود عليه السلام.

٤ - اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخَلَل بفتنته إيَّاهم، وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذورُ، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود عليه السلام.

٥ - أن الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم- معصومون من الخطأ فيما يُبلِّغُون عن الله تعالى؛ لأن مقصود الرسالة لا يحصُل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي؛ ولكن الله يتداركهم ويُبادرهم بلُطْفه.

٦- أن داود- عليه السلام- كان في أغلب أحواله ملازمًا محرابَه لخدمة ربِّه؛ ولهذا تسوَّر الخَصْمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحدٌ، فلم يجعل كلَّ وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام؛ بل جعل له وقتًا يخلُو فيه بربِّه، وتقرُّ عينُه بعبادته، وتُعينه على الإخلاص في جميع أموره.

---

(١) انظر: تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي (ص٧١٣) وما بعدها، بتصرف.

٧- أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكّام وغيرهم، فإن الخَصْمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم واشتدَّ عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

٨- كمال حلم داود- عليه السلام-، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبَّخَهُما.

٩- جواز قول المظلوم لمن ظلمه: أنت ظلمتني أو يا ظالم ونحو ذلك أو باغ عليَّ لقولهما: **{خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ}. (سورة ص: ٢٢).**

١٠- أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئزُّ؛ بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخَصْمين نصَحا داودَ فلم يشمئزَّ ولم يغضب، ولم يُثْنِه ذلك عن الحق؛ بل حكم بالحق الصرف.

١١- أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلُّقات الدنيوية المالية، مُوجِبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يردُّ عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

١٢- أن الاستغفار والعبادة، خصوصًا الصلاة، من مكفِّرات الذنوب، فإن الله رتَّب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

١٣- أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولَّاها رُسُل الله، وخواصُّ خَلْقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق، ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

١٤- أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بالٍ، فإن النفوس لا تخلُو منه؛ بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يُلقي عنه وقت الحكم كلَّ محبَّة أو بُغْض لأحد الخَصْمين"[١].

---

(١) انظر: تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي (ص٧١٣) وما بعدها، بتصرف.

المبحث العاشر

الافتقار إلى الله تعالى في حياة سليمان (عليه السلام)

هو سليمان بن داوود- عليهما السّلام-، كان أبوه نبيًّا ملكًا، بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل، وبعد وفاة داوود- عليه السّلام-؛ ورث سليمان- عليه السّلام- خلافة الأرض والملك؛ ليحكم بين الناس بحكم الله تعالى، واصطفاه الله تعالى للنبوّة؛ حيث قال تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} (سورة النمل: ١٦). ومن الجدير بالذكر أنّ سليمان -عليه السّلام- كان واسع النفوذ، وقد أعطاه الله تعالى قدراتٍ ذاتيّةً، وإمكانيّاتٍ ماديّةً، ومنحه الصلاحيات التي تساعده على التغيير؛ حيث قال تعالى عن سليمان- عليه السّلام-: **{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ. فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ*وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ. هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (سورة ص: ٣٥-٣٩)**، فكان سليمان-عليه السّلام- يتحمّل مسؤولية دعوة الآخرين، ويحاول جاهدًا هدايتهم، حتى وإن لم يكونوا من رعيّته، وممّا يدل على ذلك؛ الكتاب الذي أرسله إلى ملكة سبأ بلقيس وقومها؛ ليدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، كما قال تعالى: {إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} (سورة النمل:٣٠- ٣١). بالإضافة إلى تفقد أحوال رعيته؛ كبيرها وصغيرها، غنيها وفقيرها، صحيحها وسقيمها، ومحاسبتهم في حال التقصير، كما حصل عندما تفقد جيشه فلم يرَ الهدهد الذي كان جندياً من جنوده؛ فسأل عنه، وتعجب من غيابه، وتوعّده في حال كونه مقصرًا في عمله.

ويظهر الافتقار في حياة سليمان- عليه السلام- في الآيات القرآنية الآتية:

١- قال تعالى: {حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكًا من قولها وقال رب أوزعني

أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين} (سورة النمل: ١٨- ١٩).

لنا وقفات مع هاتين الآيتين الكريمتين، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- {حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة}. (حتى): ابتدائية، ومعنى الغاية لا يفارقها، ولكنها مع الابتدائية غاية غير نهاية. (إذا): ظرف زمان بمعنى حين. والتقدير: حتى قالت نملة حين أتوا على واد النمل.

ب- {لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون}. (الحطم): حقيقته الكسر لشيء صلب، واستعير هنا بمعنى: الإهلاك. (لا يحطمنكم): إن جعلت (لا) فيه ناهية؛ كانت الجملة مستأنفة تكريرًا للتحذير، ودلالة على الفزع ؛ لأن المحذر من شيء مفزع يأتي بجمل متعددة للتحذير من فرط المخافة والنهي عن حطم سليمان إياهن، كناية عن نهيهن عن التسبب فيه وإهمال الحذر منه، والنون توكيد للنهي. وإن جعلت (لا) نافية؛ كانت الجملة واقعة في جواب الأمر فكان لها حكم جواب شرط مقدر . فالتقدير: إن تدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان، أي: يَنتفِ ويمتنع حطم سليمان إياكن، وإلا حطمكم . وفي هذا الوجه كون الفعل مؤكدا بالنون، وهو منفي ب (لا)، وذلك جائز على رأي المحققين إلا أنه قليل . وأما من منعه من النحاة فيمنع أن تجعل (لا) نافية هنا . وصاحب الكشاف- الزمخشري- جعله من اقتران جواب الشرط بنون التوكيد؛ لأن جواب الأمر في الحكم جواب الشرط، وهو عنده أخف من دخولها في الفعل المنفي بناء على أن النفي يضاد التوكيد. وتسمية سليمان في حكاية كلام النملة، يجوز أن تكون حكاية بالمعنى، وإنما دلت دلالة النملة على الحذر من حطم ذلك المحاذي لواديها، فلما حكيت دلالتها حكيت بالمعنى لا باللفظ. ويجوز أن يكون قد خلق الله علمًا في النملة، علمت به أن المار بها يدعى سليمان على سبيل المعجزة، وخرق العادة.

ج- {فتبسم ضاحكًا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين}.

وتبسم سليمان من قولها تبسم تعجب. والتبسم أضعف حالات الضحك فقوله :ضاحكًا: حال مؤكدة ل (تبسم)، وضحك الأنبياء- عليهم السلام- التبسم، كما ورد في صفة ضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو ما يقرب من التبسم، مثل: بدو النواجذ، كما ورد في بعض صفات ضحكه. وأما القهقهة فلا تكون للأنبياء؛ حيث إن كثرة الضحك تميت القلب، وقلوب الأنبياء- عليهم السلام- عامرةٌ دائمًا بذكر الله تعالى .وإنما تعجب سليمان من أنها عرفت، اسمه وأنها قالت: (وهم لا يشعرون)، فوسمته وجنده بالصلاح والرأفة، وأنهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة، وهذا تنويه برأفته وعدله الشامل بكل مخلوق لا فساد منه، أجراه الله على نملة؛ ليعلم شرف العدل، ولا يحتقر مواضعه، وأن ولي الأمر إذا عدل سرى عدله في سائر الأشياء، وظهرت آثاره فيها حتى كأنه معلوم عند ما لا إدراك له ، فتسير أمور جميع الأمة على عدل. ويضرب الله الأمثال للناس، فضرب هذا المثل لنبيه سليمان بالوحي من دلالة نملة، وذلك سر بينه وبين ربه، جعله تنبيهًا له، وداعية لشكر ربه، فقال: (رب أوزعني أن أشكر نعمتك).

وأوزع: مزيد (وزع) الذي هو بمعنى كف، والهمزة للإزالة، أي: أزال الوزع، أي: الكف. والمراد أنه لم يترك غيره كافًا عن عمل، وأرادوا بذلك الكناية عن ضد معناه، أي: كناية عن الحث على العمل. وشاع هذا الإطلاق فصار معنى أوزع أغرى بالعمل . فالمعنى: وفقني للشكر. ولذلك كان حقه أن يتعدى بالباء.

فمعنى قوله: أوزعني، أي: ألهمني وأغرني أن أشكر نعمتك، واجعلني ملازمًا شكر نعمتك. وإنما سأل الله الدوام على شكر النعمة؛ لما في الشكر من الثواب، ومن ازدياد النعم. **فقد قال تعالى: {وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إني عذابي لشديد} (سورة إبراهيم: ٧).**

وأدرج سليمان ذكر والديه عند ذكر إنعام الله تعالى عليه؛ لأن صلاح الولد نعمةٌ على الوالدين بما يدخل عليهما من مسرة في الدنيا، وما ينالهما من دعائه وصدقاته عنهما من الثواب .

(وأن أعمل) عطف على (أن أشكر) . والإدخال في العباد الصالحين مستعار لجعله واحدًا منهم، فشبه إلحاقه بهم في الصلاح بإدخاله عليهم في زمرتهم، وسؤاله ذلك مراد به الاستمرار والزيادة من رفع الدرجات؛ لأن لعباد الله الصالحين مراتبَ كثيرةً[١].

فالشكر من سمات عباد الله الصالحين، ويقول ابن القيّم عن منزلة الشكر: "والشكر من أعلى المنازل، وهو فوق منزلة الرضا وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه، وهو نصف الإيمان، والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر، وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسمًا من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره؛ بل يعيد الشاكر مشكورًا، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده"[٢].

ثم يُعبر ابن القيم عن حقيقة الشكر بقوله: "وهو ظهور أثر نعمة الله تعالى على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبةً، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعةً" [٣].

٢- قال تعالى: {ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب. قال رب اغفر لي وهب لي مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب. فسخرنا له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب. والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب. وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} (سورة ص: ٣٤- ٤٠).

لنا وقفات مع هذه الآيات الكريمات، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- {ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب}. قال الطبري: "أي: ولقد ابتلينا سليمان، وألقينا على كرسيه جسدًا شيطانًا، متمثلًا بإنسان... وبنحو الذي قلنا قال أهل

(١) انظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (ج٢٠/٢٤٠- ٢٤٤).
(٢) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية (٢/٢٥٢).
(٣) المصدر السابق (٢/٢٥٤).

التأويل... وممن ورد عنه هذا حمل الجسد على الشيطان: ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم"[١].

ب- قد يرد في بعض الروايات الإسرائيلية ما يتفق الجميع على أنه قادح في الرواية، وأنه كذب بلا ريب، وفي مثل هذه الحال يعترض المفسر على مثل هذه الرواية، وإن كان الناقل لها من السلف لم يتعرض لذلك، إما مكتفيًا بوضوح نكارتها، وإما متأوِّلًا لجواز التحديث بمثل هذا، إذ مثل هذه الجزئية التي فيها خلل لا تقدح في أصل القصة عنده[٢].

ولذا نجد ابن كثير يقول في تفسيره لهذه الآية: "أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، و(جسدًا) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم: يعني شيطانًا جسدًا. (ثم أناب): أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته...."

فهنا نجد أن ابن كثير أثبت أصل القصة التي ترفع الإبهام عن الآية، وأقرها، ثم أنكر التفاصيل التي تقدح في سليمان- عليه السلام-، فقال بعد ذكره لقصص الآية، وذكر أشده نكارةً: "إسناده إلى ابن عباس قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس- إن صح عنه- من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان- عليه السلام-، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في السياق منكرات، من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان؛ عصمهن الله منه، تشريفًا وتكريمًا لنبيه. وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب" [٣].

ج- إن هذه الإسرائيليات ليس منها شيء تقوم به الحجة في دين الله تعالى، وإنما قصاراها أن يُحدث بها فقط. ولذلك نجد أن بعض أهل العلم لم يفسر الآية بها أصلًا، ولم يرها حجةً في المقام؛ بل أعرض عنها لنكارتها، أو غرابة ما فيها من القصص والروايات. واختار بعض أهل العلم أن المراد من (الجسد) هنا: الغلام الذي وُلد لسليمان- عليه السلام- غير كاما، لما

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري (١٩٦/٢١- ١٩٧).
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (٤٦/٥)؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج ٢٦٠/٢٣)؛
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦٩/٧).

نسي أن يقول: إن شاء الله. فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إن سليمان بن داود- عليهما السلام- قال: لأطوفن الليلة بمائة امرأةٍ، تلد كل امرأةٍ غلامًا يُقاتل في سبيل الله. فقال له المَلَكُ: قل: إن شاء الله؛ فلم يقل ونسي. فأطاف بهن، ولم تلد منهن إلا امرأة نصف إنسان. قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "لو قال: إن شاء الله؛ لم يحنث، وكان أرجى لحاجته"[(١)].

قال أبو حيان في البحر المحيط: "نقل المفسرون في هذه الفتنة، وإلقاء الجسد، أقوالًا يجب براءة الأنبياء منها، يوقَفُ عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وهي من أوضاع اليهود والزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، وأقرب ما قيل فيه: أن المراد بالفتنة: كونه لم يستثن في الحديث الذي قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة..." [(٢)].

وقال الشنقيطي: "اعلم أن هذا الحديث- لأطوفن الليلة على سبعين امرأةً...- الصحيح، بيَّن معنى قول الله تعالى: {ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا} الآية. وأن فتنة سليمان- عليه السلام- كانت بسبب تركه قول: إن شاء الله، وأنه لم يلد من تلك النساء إلا واحدة فقط، وولدت شطر إنسان، وأن ذلك الجسد- الذي هو نصف إنسان- هو الذي ألقي على كرسيه بعد موته، في قول الله تعالى: {وألقينا على كرسيه جسدًا...} الآية. فما يذكره المفسرون في قوله تعالى: {ولقد فتنا سليمان...} الآية، من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم، وجلس على كرسي سليمان، وطرد سليمان عن ملكه؛ حتى وجد الخاتم في بطن السمكة التي أعطاها له من كان يعمل عنده بأجر، مطرودًا عن ملكه.... إلى آخر القصة، لا يخفى أنه باطل لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة، فهي من الإسرائيليات التي لا يخفى أنها باطلة. والظاهر في معنى الآية هو ما ذكرنا، وقد دلت السنة الصحيحة عليه في الجلة، واختاره بعض المحققين، والعلم عند الله تعالى"[(٣)]

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: قول الرجل: لأطوفي الليلة على نسائي، حديث رقم: (٤٩٤٤).
(٢) البحر المحيط، لأبي حيان (١٥٥/٩).
(٣) أضواء البيان، للشنقيطي (٢٥٤/٣).

المبحث الحادي عشر

الافتقار إلى الله تعالى في حياة زكريا (عليه السلام):

هو نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل، وقد ورد اسم زكريا في القرآن الكريم ثماني مراتٍ، وذُكرت قصته مع شيء من التفصيل في سورتي: آل عمران، ومريم.

وقد كان عهد زكريا قريبًا جدًّا من عهد عيسى- عليهما السلام-، حيث بدأت قصة زكريا- عليه السلام- عندما تقدم في السن، وملأ الشيب شعره، وكذلك زوجه، ولم تكن قد ولدت له ولدًا تقر به عينه، ويرثه بعد مماته.

وقد قيل: إن زكريا- عليه السلام- كان خائفًا من قومه أن يغيروا ويبدلوا من بعده، فيقومون بانتهاك محارم الله- عز وجل-؛ ولذلك حرص على الدعاء والتوسل الى الله- تبارك وتعالى-؛ من أجل أن يرزقه الله بغلامٍ، يحمل راية النبوة والتوحيد من بعده، وقد استجاب الله تعالى له، ورزقه بغلامٍ لم يجعل له من قبلُ سميًّا، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ويظهر الافتقار في حياة زكريا- عليه السلام- في الآيات القرآنية الآتية:

١- **قال تعالى: { هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذريةً طيبةً إنك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمةٍ من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين} (سورة آل عمران: ٣٨- ٤٠).**

٢- **قال تعالى: {ذكر رحمت ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداءً خفيًّا. قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك شقيًّا. وإني خفتُ الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا فهب لي من لدنك وليًّا. يرثني ويرثُ من آل يعقوب واجعله رب رضيًّا. يا زكريا إنَّا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبلُ سميًّا. قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرًا وقد بلغت من الكبر عتيًّا. قال كذلك قال ربك هو عليَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا} (سورة مريم: ٢- ٩).**

لنا وقفات مع هذه الآيات الكريمة، وبيان ذلك فيما يلي[1]:

أ- {ذكر رحمت ربك عبده زكريا}. قد جاء نظم هذا الكلام على طريقةٍ بديعة من الإيجاز، والعدول عن الأسلوب المتعارف في الإخبار، وأصل الكلام: ذكر عبدنا زكريا إذ نادى ربه، فقال: رب إلخ . . ، فكان في تقديم الخبر بأن الله تعالى رحمه اهتمام بهذه المنقبة له، والإنباء بأن الله يرحم من التجأ إليه، مع ما في إضافة رب إلى ضمير النبي- صلى الله عليه وسلم-، وإلى ضمير زكريا من التنويه بهما. والمراد بالرحمة: استجابة دعاءه.

ب- {إذ نادى ربه نداءً خفيًّا}. النداء أصله رفع الصوت بطلب الإقبال. ويطلق النداء كثيرًا على الكلام الذي فيه طلب إقبال الذات لعمل، أو إقبال الذهن لوعي كلام، فلذلك سميت الحروف التي يفتتح بها طلب الإقبال حروف النداء. ويطلق على الدعاء بطلب حاجة- وإن لم يكن فيه نداء-؛ لأن شأن الدعاء في المتعارف أن يكون جهرًا، أي: تضرعًا؛ لأنه أوقع في نفس المدعو. ومعنى الكلام: أن زكريا قال: يا رب، بصوتٍ خفي. وإنما كان خفيًّا لأن زكريا رأى أنه أدخل في الإخلاص مع رجائه أن الله- عز وجل- يجيب دعوته؛ لئلا تكون استجابته مما يتحدث به الناس، فلذلك لم يدعه تضرعًا، وإن كان التضرع أعون على صدق التوجه غالبًا، فلعل يقين زكريا كافٍ في تقوية التوجه؛ فاختار لدعائه السلامة من مخالطة الرياء، ولا منافاة بين كونه نداءً، وكونه خفيًّا؛ لأنه نداء من يسمع الخفاء.

ج- { قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك شقيًّا. وإني خفتُ الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا فهب لي من لدنك وليًّا. يرثني ويرثُ من آل يعقوب واجعله رب رضيًّا}. جملة (قال رب إني وهن العظم مني) مبينة لجملة نادى ربه. وهي وما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء، وهو قوله: (فهب لي من لدنك وليًّا). وإنما كان ذلك تمهيدًا لما يتضمنه من اضطراره لسؤال الولد، والله تعالى يجيب المضطر إذا دعاه، فليس سؤاله الولد سؤال توسع لمجرد تمتع أو فخر. ووصف من حاله ما تشتد معه الحاجة إلى الولد حالًا ومآلًا، فكان وهن العظم، وعموم الشيب حالًا مقتضيًا للاستعانة بالولد، مع ما

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٤٦١/١٥-٤٧١)؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور (ج٦١/١٧-٧٢)؛ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي، سورة مريم.

يقتضيه من اقتراب إبان الموت عادة. فذلك مقصود لنفسه، ووسيلة لغيره، وهو الميراث بعد الموت. والخبران من قوله: (وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا)، مستعملان مجازًا في لازم الإخبار، وهو الاسترحام لحاله؛ لأن المخبر بفتح الباء عالمٌ بما تضمنه الخبران.

والوهن: الضعف. وإسناده إلى العظم دون غيره مما شمله الوهن في جسده؛ لأنه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه؛ لأن العظم هو قوام البدن، وهو أصلب شيء فيه، فلا يبلغه الوهن إلا وقد بلغ ما فوقه.

والتعريف في العظم تعريف الجنس دال على عموم العظام منه . وشبه عموم الشيب لشعر رأسه، أو غلبته عليه، باشتعال النار في الفحم، بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود، تشبيهًا مركبًا تمثيليًّا قابلًا لاعتبار التفريق في التشبيه، وهو أبدع أنواع المركب، حيث شبه الشعر الأسود بفحم، والشعر الأبيض بنار على طريق الاستعارة المكنية، ورمز إلى الأمرين بفعل اشتعل، وأسند الاشتعال إلى الرأس، وهو مكان الشعر الذي عمه الشيب؛ لأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعم اللحية غالبًا، فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن.

وإسناد الاشتعال إلى الرأس: مجاز عقلي؛ لأن الاشتعال من صفات النار المشبه بها الشيب، فكان الظاهر إسناده إلى الشيب. فلما جيء باسم الشيب تمييزًا لنسبة الاشتعال؛ حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته، وخصوصية التفضيل بعد الاحتمال، مع إفادة تنكير (شيبًا) من التعظيم فحصل إيجاز بديع، وأصل النظم المعتاد: واشتعل الشيب في شعر الرأس.

وجملة (ولم أكن بدعائك رب شقيًّا) معترضة بين الجمل التمهيدية. والباء في (بدعائك) للمصاحبة. والشقي: الذي أصابته الشقوة، وهي ضد السعادة. والمعنى: لم أكن فيما دعوتك من قبل مردود منك، أي: أنه قد عهد من الله الاستجابة كلما دعاه.

وهذا تمهيد للإجابة من طريق غير طريق التمهيد الذي في الجمل المصاحبة له؛ بل طريق الحث على استمرار جميل صنع الله معه، وتوسل إليه بما سلف له معه من الاستجابة.

وجملة (إني خفت الموالي من ورائي) معطوفة على جملة (واشتعل الرأس شيبًا)، أي: قاربت الوفاة، وخفت الموالي من ورائي. والموالي: العصبة وأقرب القرابة، مفردها: مولى، وهو الولي.

(من لدنك) أي: إنه من عند الله تعالى؛ لأن المتكلم يعلم أن كل شيء من عند الله تعالى بتقديره، وخلقه الأسباب ومسبباتها تبعًا لخلقها، فلما قال من عندك؛ دل على أنه سأل وليًّا غير جارٍ أمره على المعتاد من إيجاد الأولاد؛ لانعدام الأسباب المعتادة، فتكون هبته كرامةً له. وقدم (لي) على (من لدنك)؛ لأنه الأهم من غرض الداعي، وهو غرض خاص يقدم على الغرض العام.

و (آل يعقوب) يجوز أن يراد بهم خاصة بني إسرائيل، كما يقتضيه لفظ (آل) المشعر بالفضيلة والشرف، فيكون يعقوب هو إسرائيل، كأنه قال: ويرث من آل إسرائيل، أي: حملة الشريعة وأحبار اليهودية، وإنما يذكر آل الرجل في مثل هذا السياق إذا كانوا على سنته. وقيل غير ذلك، والراجح هو أن المراد به خاصة بني إسرائيل.

د- {يا زكريا إنَّا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبلُ سميًّا. قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرًا وقد بلغت من الكبر عتيًّا. قال كذلك قال ربك هو عليَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا}. أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة ب (يحيى)، وكان اسمًا موافقًا لمسماه: يحيا حياةً حسية؛ فتتم به المنة، ويحيا حياةً معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين. (لم نجعل له سميًّا): أي: لم يُسم هذا الاسم قبله أحد، ويحتمل أن يكون المعنى: لم نجعل له من قبل مثيلًا، فيكون ذلك بشارة بكماله، واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال، هذا العموم لابد أن يكون مخصوصًا بإبراهيم وموسى ونوح- عليهم السلام-، ونحوهم، ممن هو أفضل من يحيى قطعًا.

و (أنى) استفهام مستعمل في التعجب، والتعجب مكنى به عن الشكر، فهو اعترافٌ بأنها عطية عزيزة غير مألوفة؛ لأنه لا يجوز أن يسأل الله تعالى أن يهب له ولدًا، ثم يتعجب من استجابة الله له. ويجوز أن يكون قد ظن أن الله تعالى يهب له ولدًا من امرأة أخرى، بأن يأذنه بتزوج امرأة غير عاقر.

وجملة { وكانت امرأتي عاقرًا } حال من ياء التكلم، وهو يقتضي أن زكريا كان يظن أن عدم الولادة بسبب عقر امرأته، وكان الناس يحسبون ذلك إذا لم يكن بالرجل عنة ولا خصاء ولا اعتراض؛ لأنهم يحسبون الإنعاض والإنزال هما سبب الحمل إن لم تكن بالمرأة عاهة العقر، وهذا خطأ فإن عدم الولادة يكون إما لعلة بالمرأة في رحمها، أو لعلة في ماء الرجل، يكون غير صالح لنماء البويضات التي تبرزها رحم المرأة.

و (مِن) في قوله: { من الكبر عتيًّا } للابتداء، وهو مجاز في معنى التعليل.

والكبر: كثرة سني العمر؛ لأنه يقارنه ظهور قلة النشاط واختلال نظام الجسم. و عتيًا مفعول بلغت. والبلوغ : مجاز في حلول الإبان.

و(العتي) بضم العين في قراءة الجمهور : مصدر عتا العود إذا يبس، وهو بوزن فعول أصله عتوو، والقياس فيه أن تصحح الواو؛ لأنها إثر ضمة، ولكنهم لما استثقلوا توالي ضمتين بعدهما واوان، وهما بمنزلة ضمتين؛ تخلصوا من ذلك الثقل بإبدال ضمة العين كسرة، ثم قلبوا الواو الأولى ياءً؛ لوقوعها ساكنة إثر كسرة، فلما قلبت ياء اجتمعت تلك الياء مع الواو التي هي لام، وكأنهم ما كسروا التاء في عتي بمعنى اليبس إلا لدفع الالتباس بينه وبين العتو الذي هو الطغيان، فلا موجب لطلب تخفيف أحدهما دون الآخر. وهنا شبه عظامه بالأعواد اليابسة على طريقة الاستعارة المكنية، وإثبات وصف العتي لها استعارة تخييلية.

وجملة { هو علي هين } استئناف بياني جوابا لسؤال ناشئ عن قوله: (كذلك)؛ لأن تقرير منشأ التعجب يثير ترقب السامع أن يعرف ما يبطل ذلك التعجب المقرر ، وذلك كونه هينًا في جانب قدرة الله تعالى العظيمة.

ويجوز أن يكون المشار إليه بقول كذلك هو القول المأخوذ من { قال ربك }، أي: **إن قول ربك: { هو علي هين }** بلغ غاية الوضوح في بابه بحيث لا يبين بأكثر ما علمت، فيكون جاريًا على طريقة التشبيه، وعلى هذا الاحتمال فجملة { هو علي هين } تعليل لإبطال التعجب إبطالًا مستفادًا من قوله: { كذلك قال ربك }، ويكون الانتقال من الغيبة في قوله: { قال ربك }

إلى التكلم في قوله: { هو علي هين } التفاتًا . ومقتضى الظاهر: هو عليه هين . والهين بتشديد الياء : السهل حصوله .

وجملة { وقد خلقتك من قبل } على الاحتمالين هي في موضع الحال من ضمير الغيبة الذي في قوله: { هو علي هين }، أي: إيجاد الغلام لك هين عليَّ في حال كوني قد خلقتك من قبل هذا الغلام ولم تكن موجودًا ، أي: في حال كونه مماثلًا لخلقي إياك، فكما لا عجب من خلق الولد في الأحوال المألوفة، كذلك لا عجب من خلق الولد في الأحوال النادرة، إذ هما إيجاد بعد عدم. ومعنى { ولم تك شيئًا }. أي: لم تكن موجودًا.

٣- قال تعالى: {وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين} (سورة الأنبياء: ٨٩- ٩٠).

لنا وقفات مع هاتين الآيتين الكريمتين، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً} دعا ربه دعاءً خفيًّا منيبًا قائلًا: ربي لا تتركني وحيدًا بلا ولد ولا وارث. ويظهر الافتقار الحقيقي في قوله تعالى: (إذ نادى ربه)، حيث يدل على الصدق في الدعاء والتوكل، والاعتراف بأن الفضل بيد الله، ولا ملجأ من الله إلا إليه، فدعا ربه تعالى خفيةً عن قومه، وشكا بثه وحزنه إلى الله، داعيًا ربه تعالى ألا يتركه فردًا.

ب- {وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}: أي: أنت خير من يبقى بعد كل من يموت، فيه مدح لله تعالى بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، وفي ذلك استمطار لسحائب لطفه- عز وجل- توسّل إليه بما يناسب مطلوبه باسمه تعالى: {خَيْرُ الْوَارِثِينَ}؛ بل أتى على وزن (افعل) للتفضيل زيادة في المبالغة في الثناء على اللَّه تعالى، استعطافًا للإجابة.

فاستجاب الله- سبحانه وتعالى- لدعائه، ورزقه نبيًّا صالحًا، سمّاه اللَّه تعالى {يَحْيَى}، وجعل امرأته ولودًا، بعد أن كانت عاقرًا، دلالة على كمال قدرته- سبحانه وتعالى- الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ج- ثم بين الله- سبحانه وتعالى- سبب إجابته له، فقال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}. أي: كانوا يبادرون في وجوه الخيرات على اختلاف أشكالها وأنواعها في أوقاتها الفاضلة، ويكمِّلونها على الوجه اللائق الكامل.{وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}. أي: كانوا ملازمي الخضوع والتضرع والافتقار في كل الأحوال والأوقات.

{وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا}: أي: وكانوا أيضًا يفزعون إلينا بالدعوات، ويسألون الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوّذون من الأمور المرهوب منها، من مضارّ الدنيا والآخرة، في حال الرخاء، وفي حال الشِّدّة، وجاء اللفظ بصيغة المضارع: {وَيَدْعُونَنَا}: لفائدتين، هما:

- كثرة سؤالهم، ومداومتهم في الدعاء بالرغبة والرهبة، كما أفاد الفعل المضارع ﴿يُسَارِعُونَ﴾.
- تصور صورتهم الجميلة في الذهن، فكأنّ المخاطب يراها في حينه، فينشأ عن ذلك التأسي في فعلهم والاقتداء بهم[1].

❄❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) انظر: روح المعاني، للألوسي (١٢٩/١٠).

المبحث الثاني عشر

الافتقار إلى الله تعالى في حياة عيسى (عليه السلام).

يُعد عيسى- عليه السلام- أحد أولي العزم الخمسة، الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم الغليظ، والذي ذكره القرآن الكريم في **قول الله تعالى: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا} (سورة الأحزاب: ٧).**

وتعتبر ولادته معجزة إلهية؛ حيث إن أمه السيدة مريم حملت به وهي عذراء، قال تعالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} (سورة آل عمران: ٥٩). فآدم – عليه السلام- خلقه الله تعالى من ترابٍ، ثم قال له: كن فيكون، من غير أب ولا أم، وحواء خلقها الله تعالى من ضلع آدم، أي: من أب فقط دون أم، وبقية البشر خلقهم الله تعالى من أب وأم، وتكتمل المعجزة بعيسى الذي خلقه الله تعالى من أم فقط دون أب، وبخلق عيسى يكتمل ناموس الخلق الذي أراده خالق الكون- تبارك وتعالى-.

وقد كانت لدى عيسى- عليه السلام- القدرة على فعل بعض المعجزات، كسائر الأنبياء والمرسلين- عليهم السلام-، وكانت معجزته إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى، وكان منهجه الإنجيل. وقد ذُكر عيسى- عليه السلام- في القرآن الكريم خمسةً وعشرين مرةً.

ويظهر الافتقار في حياة عيسى- عليه السلام- في القرآن الكريم في الآيات القرآنية الآتية:

١- **قال تعالى: {إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدةً من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين}. (سورة المائدة: ١١٢- ١١٣).**

لنا وقفات مع هاتين الآيتين، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- نجد الحواريين ابتدأوا خطابهم لعيسى بندائه باسمه؛ للدلالة على أن ما سيقولونه أمر فيه اقتراح وكلفة له، وكذلك شأن من يخاطب من يتجشم منه كلفة أن يطيل خطابه؛ طلبًا لإقبال سمعه إليه؛ ليكون أوعى للمقصود.

ب- جرى قوله تعالى {هل يستطيع ربك} على طريقة عربية في العرض والدعاء، يقولون للمستطيع لأمرٍ: هل تستطيع كذا، على معنى تطلب العذر له إن لم يجبك إلى مطلوبك، وأن السائل لا يحب أن يكلف المسؤول ما يشق عليه، وذلك كناية فلم يبق منظورًا فيه إلى صريح المعنى المقتضي أنه يشك في استطاعة المسؤول ، وإنما يقول ذلك الأدنى للأعلى منه ، وفي شيء يعلم أنه مستطاع للمسئول ، فقرينة الكناية تحقق المسئول أن السائل يعلم استطاعته، فليس قول الحواريين المحكي بهذا اللفظ في القرآن إلا لفظًا من لغتهم، يدل على التلطف والتأدب في السؤال، كما هو مناسب أهل الإيمان الخالص، وليس شكًّا في قدرة الله تعالى، ولكنهم سألوا آيةً لزيادة اطمئنان قلوبهم بالإيمان بأن ينتقلوا من الدليل العقلي إلى الدليل المحسوس. فإن النفوس بالمحسوس آنس.

ج- (مائدة من السماء): المائدة: هو الخوان الموضوع عليه طعام وقد سأل الحواريون كون المائدة منزلة من السماء لأنهم رغبوا أن تكون خارقة للعادة فلا تكون مما صنع في العالم الأرضي فتعين أن تكون من عالم علوي.

د- قول عيسى حين أجابهم: { اتقوا الله إن كنتم مؤمنين } أمر بملازمة التقوى وعدم تزلزل الإيمان، ولذلك جاء بـ (إن) المفيدة للشك في الإيمان؛ ليعلم الداعي إلى ذلك السؤال خشية أن يكون نشأ لهم عن شك في صدق رسولهم، فسألوا معجزة يعلمون بها صدقه بعد أن آمنوا به. فالمراد بالتقوى في كلام عيسى ما يشمل الإيمان وفروعه. وقيل: نهاهم عن طلب المعجزات، أي: إن كنتم مؤمنين فقد حصل إيمانكم فما الحاجة إلى المعجزة. فأجابوه عن ذلك بأنهم ما أرادوا ذلك لضعفٍ في إيمانهم، إنما أرادوا التيمن بأكل طعام نزل من عند الله إكرامًا لهم، ولذلك زادوا منها ولم يقتصروا على أن نأكل، إذ ليس غرضهم من الأكل دفع الجوع؛ بل الغرض التشرف بأكل من شيء نازل من السماء.

هـ- قال الحواريون: {وتطمئن قلوبنا}. أي: بمشاهدة هذه المعجزة، فإن الدليل الحسي أظهر في النفس. { ونعلم أن قد صدقتنا }، أي: نعلم علم ضرورة لا علم استدلال فيحصل لهم العلمان. { ونكون عليها من الشاهدين }، أي: من الشاهدين على رؤية هذه المعجزة فنبلغها من لم يشهدها. فهذه أربع فوائد لسؤال إنزال المائدة، كلها درجات من الفضل الذي يرغب فيه أمثالهم[1].

٢- قال تعالى: {قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين} (سورة المائدة: ١١٤ - ١١٥).

لنا وقفات مع هاتين الآيتين الكريمتين، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- قوله: { اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً}. لاحظ هنا كيف صُدِّر الدعاء المتضمن للثناء بلفظ (اللهم)، بيد أن الدعاء المجرد جاء مُصدرًا بلفظ (الرب)، مثل قوله تعالى: {قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} (سورة الأعراف: ٢٣). وقوله تعالى: {قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم} (سورة القصص: ١٦).

والسر في ذلك أن الله تعالى يُسأل بربربيته المتضمنة قدرته وإحسانه وتؤبيته عبده، وإصلاح أمره. ثم يُثني عليه بإلهيته المتضمنة إثبات ما يجب له من الصفات العلى، والأسماء الحسنى، فالدعاء حيث وقع لا يكاد يجيء إلا مُصدرًا باسم (الرب)، وأما الثناء فمُصدَّر بالأسماء الحسنى؛ لأن أعظم ما يُصدَّر به: هو لفظ الجلالة (الله).

(١) انظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (ج٧/ ١٠٥- ١٠٧).

وقد جمع عيسى- عليه السلام- بين الأمرين، ولم يجيء في القرآن الكريم سواه. والسر في دعاء عيسى: هو كمال معرفته بربه تعالى، فقد بدأ سؤاله ب (اللهم) الدال على الثناء على الله تعالى بجميع أسمائه وصفاته. والمقصود من هذا الدعاء، وقضاء هذه الحاجة، إنما هو أن يُثني على ربه تعالى بذلك، ويُمجده به، ويُظهر شواهد قدرته وربوبيته؛ فأتى بالاسمين: اسم (الله) الذي يُثني عليه به، واسم (الرب) الذي يُدعى ويُسأل به؛ لأن المقام مقام الأمرين[1].

ب- معنى { تكون لنا عيدًا }. أي: يكون تذكر نزولها بأن يجعلوا اليوم الموافق يوم نزولها من كل سنة عيدًا، فإسناد (الكون) عيدًا للمائدة إسنادٌ مجازي ، وإنما العيد اليوم الموافق ليوم نزولها، ولذلك قال: { لأولنا وآخرنا }، أي لأول أمة النصرانية وآخرها، وهم الذين ختمت بهم النصرانية عند البعثة المحمدية، صلى الله وسلم وبارك على صاحبها.

ج- جملة { قال الله إني منزلها }. جواب دعاء عيسى، فلذلك فصلت على طريقة المحاورة، وأكد الخبر بـ (إن) تحقيقًا للوعد. والمعنى إني منزلها عليكم الآن ، فهو استجابة وليس بوعد.

د- قوله: {فمن يكفر} تفريع عن إجابة رغبتهم، وتحذير لهم من الوقوع في الكفر بعد الإيمان؛ إعلامًا بأهمية الإيمان عند الله تعالى، فجعل جزاء إجابته إياهم أن لا يعودوا إلى الكفر، فإن عادوا عذبوا عذابًا أشد من عذاب سائر الكفار؛ لأنهم تعاضد لديهم دليل العقل والحس فلم يبق لهم عذر. والضمير المنصوب في قوله: (لا أعذبه) ضمير المصدر، فهو في موضع المفعول المطلق، وليس مفعولًا به، أي: لا أعذب أحدًا من العالمين ذلك العذاب، أي: مثل ذلك العذاب[2].

❄❄❄❄❄❄❄❄❄

٣- قال تعالى: { وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب

(١) شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، لأبي بكر البيهقي (٤٦/١-٤٧).
(٢) انظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (ج٧/ ١٠٨- ١١٠).

عليهم وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} (سورة المائدة: الآيات ١١٦: ١١٨).

لنا وقفات مع هذه الآيات الكريمات، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- إن الله- عز وجل- يعلم أن عيسى لم يقل ذلك، ولكن أريد إعلان كذب من كفر من النصارى. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: { أأنت قلت للناس } يدل على أن الاستفهام متوجه إلى تخصيصه بالخبر دون غيره، مع أن الخبر حاصل لا محالة. فقول قائلين: اتخذوا عيسى وأمه إلهين، واقع. وإنما ألقي الاستفهام لعيسى أهو الذي قال لهم ذلك تعريضًا بالإرهاب والوعيد بتوجه عقوبة إلى من قال هذا القول إن تنصل منه عيسى، فيعلم أحبارهم الذين اخترعوا هذا القول أنهم المراد بذلك.

والمعنى: أنه إن لم يكن هو قائل ذلك؛ فلا عذر لمن قاله؛ لأنهم زعموا أنهم يتبعون أقوال عيسى وتعاليمه، فلو كان هو القائل لقال: اتخذوني وأمي، ولذلك جاء التعبير بهذين اللفظين في الآية.

ب- جواب عيسى- عليه السلام- بقوله: {سبحانك} تنزيه لله تعالى عن مضمون تلك المقالة. وكانت المبادرة بتنزيه الله تعالى أهم من تبرئته نفسه، على أنها مقدمة للتبري؛ لأنه إذا كان ينزه الله عن ذلك فلا جرم أنه لا يأمر به أحدًا.

وبرأ نفسه فقال: { ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق }. فجملة {ما يكون لي أن أقول} مستأنفة لأنها جواب السؤال. وجملة سبحانك تمهيد .

وقوله: {ما يكون لي} مبالغة في التبرئة من ذلك ، أي: ما يوجد لدي قول ما ليس لي بحق، فاللام في قوله: {ما يكون لي} للاستحقاق، أي: ما يوجد حق أن أقول، وذلك أبلغ من (لم أقله)؛ لأنه نفى أن يوجد استحقاقه ذلك القول.

ج- ثم ارتقى في التبرئ والافتقار؛ فقال: { إن كنت قلته فقد علمته }، فالجملة مستأنفة؛ لأنها دليل وحجة لمضمون الجملة التي قبلها، فكانت كالبيان، فلذلك فصلت . واستدل على انتفاء أن يقوله بأن الله يعلم أنه لم يقله، وذلك لأنه يتحقق أنه لم يقله، فلذلك أحال على علم الله تعالى. وجملة { تعلم ما في نفسي } بيان لجملة الشرط { إن كنت قلته فقد علمته } فلذلك فصلت .

والنفس تطلق على العقل وعلى ما به الإنسان، وهي الروح الإنساني، وتطلق على الذات. والمعنى هنا: تعلم ما أعتقده، أي: تعلم ما أعلمه؛ لأن النفس مقر العلوم في المتعارف.

وقوله: { ولا أعلم ما في نفسك } اعتراض نشأ عن { تعلم ما في نفسي}؛ لقصد الجمع بين الأمرين في الوقت الواحد وفي كل حال، وذلك مبالغة في التنزيه، وليس له أثر في التبرئ والتنصل، فلذلك تكون الواو اعتراضية.

وإضافة النفس إلى اسم الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يطلع عليه غيره، أي: ولا أعلم ما تعلمه، أي: مما انفردتَ بعلمه.

وقوله: { إنك أنت علام الغيوب } علة لقوله: { تعلم ما في نفسي} ولذلك جيء بـ (إن) المفيدة التعليل. وقد جمع فيه أربع مؤكدات وطريقة حصر، فضمير الفصل أفاد الحصر، وإن، وصيغة الحصر، وجمع الغيوب، وأداة الاستغراب.

د- بعد أن تبرأ من أن يكون أمر أمته بما اختلقوه؛ انتقل فبين أنه أمرهم بعكس ذلك حسبما أمره الله تعالى، فقال: { ما قلت لهم إلا ما أمرتني به }، فقوله: { ما قلت لهم } ارتقاء في الجواب، فهو استئناف بمنزلة الجواب الأول، وهو ما يكون لي أن أقول إلخ . . . صرح هنا بما قاله؛ لأن الاستفهام عن مقاله. والمعنى: ما تجاوزت فيما قلت حد التبليغ لما أمرتني به، فالموصول وصلته هو مقول ما قلت لهم، وهو مفرد دال على جمل ، فلذلك صح وقوعه منصوبًا بفعل القول .

ثم تبرأ من تبعتهم، فقال: { وكنتُ عليهم شهيدًا ما دمت فيهم }. أي: كنت مشاهدًا لهم، ورقيبًا يمنعهم من أن يقولوا مثل هذه المقالة الشنعاء. .

هـ - قوله: {فلما توفيتني...}. أي: أنك لما توفيتني قد صارت الوفاة حائلًا بيني وبينهم، فلم يكن لي أن أنكر عليهم ضلالهم، ولذلك قال: { كنت أنت الرقيب عليهم }، فجاء بضمير الفصل الدال على القصر، أي :كنت أنت الرقيب لا أنا، إذ لم يبق بيني وبين الدنيا اتصال . والمعنى: أنك تعلم أمرهم وترسل إليهم من يهديهم متى شئت. وقد أرسل إليهم محمدًا- صلى الله عليه وسلم-، وهداهم بكل وجوه الاهتداء. وأقصى وجوه الاهتداء إبلاغهم ما سيكون في شأنهم

يوم القيامة. وقوله: { وأنت على كل شيء شهيد } تذييل، والواو اعتراضية، إذ ليس معطوفًا على ما تقدم؛ لئلا يكون في حكم جواب (لما) .

و- قوله: { إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} نجده هنا قد فوض أمرهم إلى الله تعالى، فهو أعلم بما يجازيهم به؛ لأن المقام مقام إمساك عن إبداء رغبة لشدة هول ذلك اليوم، وغاية ما عرض به عيسى أنه جوز المغفرة لهم؛ رحمةً منه بهم .

قوله: { فإنك أنت العزيز الحكيم } ذكر العزيز كناية عن كونه يغفر عن مقدرة، وذكر الحكيم لمناسبته للتفويض،أ ي: المحكم للأمور العالم بما يليق بهم[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (ج٧/ ١١٣- ١١٧).

المبحث الثالث عشر

الافتقار إلى الله تعالى في حياة رسول الله، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم).

إننا هنا نتحدث عن الافتقار في حياة خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وقائد الغر المحجلين، سيدنا محمدٍ- صلى الله عليه وسلم-، اليتيم الذي علمنا بر الوالدين، الفقير الذي علمنا سخاء اليدين، الأُمِّي الذي علم سائر العلماء.

نتحدث عن مَن زكَّى الله عقله فقال: {ما ضل صاحبكم وما غوى} (سورة النجم: ٢)، وزكَّى لسانه فقال: {وما ينطق عن الهوي} (سورة النجم: ٣)، وزكَّى معلمه فقال: {علمه شديد القوى}(سورة النجم: ٥)، وزكَّى فؤاده فقال: {ما كذب الفؤاد ما رأى} (سورة النجم: ١١)، وزكَّى بصره فقال: {ما زاغ البصر وما طغى} (سورة النجم: ١٧)، وزكاه كله فقال: {وإنك لعلى خُلقٍ عظيم} (سورة القلم: ٤).

ورسول الله- صلى الله عليه وسلم- هو أحد أولي العزم من الرسل؛ بل هو إمامهم مقامًا وقدرًا، على الرغم من أنه آخرهم في زمن بعثته، فهو- صلى الله عليه وسلم- أولهم في الخلق، وآخرهم في البعث، **قال تعالى: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا} (سورة الأحزاب: ٧).**

ومما يدل أيضًا على تفضيل سيدنا محمدٍ- صلى الله عليه وسلم- على سائر الأنبياء والمرسلين، **قوله تعالى: {ومن الليل فتهجد به نافلةً عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا} (سورة الإسراء:٧٩).** وهي الشفاعة العظمى يوم القيامة؛ للفصل بين الخلائق، وذلك يوم يذهب الناس للأنبياء- عليهم السلام- لطلب الشفاعة لهم عند ربهم- تبارك وتعالى-؛ فيعتذر كل منهم عن الشفاعة لهم، ويقول: نفسي نفسي، حتى يصل الناس إلى المصطفى- صلى الله عليه وسلم-؛ فيذهب إلى ربه تعالى؛ فيخر ساجدًا، ويطلب الشفاعة للناس؛ فيُعطاها، وسُمي ب: (المقام المحمود)؛ لأن جميع الخلائق يحمدون محمدًا- صلى الله عليه وسلم- على ذلك

المقام؛ لأن شفاعته- صلى الله عليه وسلم- كانت سببًا في رفع معاناتهم من طول المحشر. فلله الحمد والمنه أن جعلنا من أمته.

كما جاء عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "فُضلتُ على الأنبياء بستٍ: أُعطيتُ جوامع الكلم، ونصرتُ بالرعب، وأُحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُرسلتُ إلى الخلق كافةً، وخُتم بي النبيون"[1].

ومعنى هذا أن المصطفى- صلى الله عليه وسلم- أفضل الأنبياء والمرسلين، ونتيجةً لذلك فإن أمته أفضل الأمم، **قال تعالى: {وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا...} (سورة البقرة: ١٤٣).**

فنحن- الأمة المحمدية- شهداء على الأمم، ورسولنا- صلى الله عليه وسلم- شهيدٌ علينا، فكفانا فخرًا بالانتساب إلى أمة المصطفى- صلى الله عليه وسلم-.

وعند تتبعنا لسيرة رسول الله- صلى الله عليه وسلم-؛ نجد أن حياته كلها كانت مليئةً بالافتقار إلى ربه تعالى، ومن أبرز مظاهر ذلك ما يلي:

١- **قوله- صلى الله عليه وسلم- عند عودته من الطائف**: "اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي ، وَقِلّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ ! أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي ، إلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي ؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك ، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ، لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلّا بِك"[2].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الصلاة في ثوبٍ واحد وصفة لبسه، حديث رقم: (٨٥٣).

(٢) رواه الطبراني في "الدعاء" (ص/٣١٥) وعزاه بعض أهل العلم إلى "المعجم الكبير" للطبراني-، ومن طريقه الضياء المقدسي في "المختار" (١٧٩/٩)، ورواه ابن عدي في " الكامل " (١١١/٦)، ومن طريقه ابن عساكر (١٥٢/٤٩)، ورواه الخطيب البغدادي في "الجامع لأخلاق الراوي" (٢٧٥/٢)، وابن هشام في "السيرة النبوية" (٤٢٠/١).

جميعًا من طريق وهب بن جرير بن حازم قال: حدثنا أبي ، عن محمد بن إسحاق ، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر- رضي الله عنه- به.

لنا وقفات مع هذا الحديث، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- هذا الحديث مشهور في كتب السِّيَرِ؛ لكن- بعد البحث- تبين أنه ليس من الأحاديث المذكورة في كتب الصحاح، أو كتب السنن، وعلى الرغم من ذلك فهو دعاءٌ عظيم، ذو معانٍ جليلة، فآثرت ذكره رغم ضعف إسناده؛ لما فيه من تذلل وافتقار من الحبيب المختار- صلى الله عليه وسلم- إلى ربه الواحد القهار، الملك الجبار، الذي ينصر عباده المؤمنين الأطهار، ويسمع نجواهم بالليل والنهار، القائل في محكم التنزيل، وهو أصدق القائلين: {إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} (سورة غافر: ٥١).

ب- هذا الدعاء قاله النبي- صلى الله عليه وسلم- بعد أنه أصبح وحيدًا، بعد أن ضاق ذرعًا من دعوة أهل مكة، وبعد أن أمضى سنواتٍ حافلة بالإيذاء والتعذيب والاضطهاد له ولأصحابه، وازداد الأمر سوءًا بعد أن توفي عمه وسنده "أبو طالب"، ووفاة زوجه وحصنه "أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها"؛ فأراد المصطفى- صلى الله عليه وسلم- أن ينقل دعوته إلى خارج مكة، فقرر الذهاب إلى الطائف، وخرج معه مولاه " زيد بن حارثة".

ج- خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الطائف داعيًا وهاديًا. ولما وصل إلى الطائف، توجه على التو نحو علية القوم، وقادة ثقيف، وزعماء الطائف، فهو يعلم أن هداية الحكام أكثر أثرًا من هداية المحكومين، والبداية بالمتبوع أولى بالبدية مع التابع . فذهب إلى أبرز ثلاث شخصياتٍ في الطائف، وهم أخوة : عبد ياليل، ومسعود ، وحبيب بنو عمرو . فلما جلس إليهم وكلمهم، سخروا منه، وردوا عليه ردًا منكرًا، وأغروا به السفهاء، فاجتمع عليه الأهالي، ووقفوا له صفين، يمر من بينهم، وقد أمطروه ضربًا بالحجارة حتى دميت قدماه، وقذفًا بالهجاء والشتم، وكان مولاه "زيد "يقيه بنفسه حتى أصيب في رأسه، ومكثوا يطاردونه ويصيحون به في الشوارع؛ حتى ألجأوه إلى بستان، لعتبة وشيبة ابني ربيعة على

وهذا الإسناد ضعيف، بسبب عنعنة محمد بن إسحاق، فهو مدلس مكثر من التدليس عن الضعفاء والمجهولين كما وصفه بذلك أحمد والدارقطني. انظر: "مراتب المدلسين" لابن حجر (ص/٥١)، فمثله لا يقبل حديثه حتى يصرح بالسماع؛ لما يخشى أن يكون أسقط شيخًا ضعيفًا من الإسناد .
قال الهيثمي في: مجمع الزوائد (٣٥/٦): "رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات".

بُعد ثلاثة أميال من الطائف، وهكذا ظل الناس يطاردونه ويضربونه على مدار مسافة طويلة، نحو خمسة كيلو مترات، وقد قطع هذه المسافة مشيًا أو ركضًا مع ما يكابده الأذى. فدخل البستان يلوذ به، ويحتمي بشجراته من الضرب والمطاردة، وهو الذي جاء إليهم منقذًا، فجلس إلى شجرة عنب وكأنما هي المرة الأولى التي يجلس فيها بعد سنين، فقد أعياه الضرب والركل، ودماء شريفة تنزف من وجهه الكريم، ومن قدمه الشريف، فضلاً عن ذلك الجرح النفسي في قلبه الصديع المكلوم، والأسى الذي ينكأ جروح الماضي، فإذا بالمصطفى– صلوات الله وسلامه عليه- يتوجه إلى ربه- تبارك وتعالى- ضارعًا، خاشعًا، رافعًا يديه إلى السماء، مناجيًا ربه، معتذرًا إليه، متحببًا إليه، بكلمات كريمة، وبدعاءٍ صادق، نبع من أعماق قلبه الحزين، وحرصه على هدايتهم، وإخراجهم من ظلمات الشرك والكفر، إلى نور الهداية والرشاد.

د- يظهر في هذا الحديث صدق الافتقار، وعظيم التذلل من النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى ربه- تبارك وتعالى-، فهو يشكو إلى ربه تعالى قلة حيلته، وضعف قوته، وهوانه على الناس، ثم يُظهر عظيم الافتقار والتذلل بقوله: "أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَن تكلني...". وفي هذا فائدة جليلة، وهي أنه- صلى الله عليه وسلم- يُعلمنا أن الشكاية والافتقار والتذلل لا يكون إلا لله- تبارك وتعالى-، فهو القادر على كشف الضر، وإجابة الدعاء، وقضاء الحاجات، **قال تعالى: { أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} (سورة النمل: ٦٢).**

٢- افتقاره- صلى الله عليه وسلم- إلى الله تعالى في غزوة بدرالكبرى:

تُعد غزوة بدر الكبرى من أهم الغزوات قاطبةً، والتي كانت في السابع عشر من شهر رمضان في العام الثاني من الهجرة، وهي أول معركة حقيقية قامت بين المسلمين والمشركين؛ لذا سُميت ب: يوم الفرقان.

وقد وردت نصوص كثيرة تبين فضل غزوة بدر وأهل بدر، لعل من أبرزها ما جاء عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إن الله اطلع على أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ماشئتم، فقد غفرتُ لكم"[(١)].

وهذه- بالطبع- بشارةٌ عظيمةٌ، لم تقع لغيرهم.

ونحن هنا لسنا بصدد الحديث عن هذه الغزوة العظيمة؛ بل ما يهمنا هو إبراز مظاهر افتقار رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلى ربه تعالى في هذه الغزوة، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- ما جاء عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: "لما كان يوم بدر، نظر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلٍ؛ فاستقبل نبي الله- صلى الله عليه وسلم- القبلة، ثم مدَّ يديه فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله- عز وجل-: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألفٍ من الملائكة مردفين} (سورة الأنفال: ٩). فأمده الله بالملائكة"[(٢)].

ب- عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال يوم بدر: "اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد". فأخذ أبو بكر- رضي الله عنه- بيده، فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: " {سيهزم الجمع ويولون الدبر} (سورة القمر: ٤٥) "[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر- رضي الله عنهم-، وقصة حاطب بن أبي بلتعة، حديث رقم: (٢٤٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم، حديث رقم: (١٧٦٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قوله تعالى: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم...} (سورة الأنفال: ٩)، حديث رقم: (٣٩٥٤).

وفي رواية أخرى عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال يوم بدر: "اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبدًا". فأخذ أبو بكر- رضي الله عنه- بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك"[1].

قال صاحب الروض الآنف: "وفي هذا الحديث من المعاني أن يقال: كيف جعل أبو بكر يأمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بالكف عن الاجتهاد في الدعاء، ويقوي رجاءه ويثبته، ومقام رسول الله- صلى الله عليه وسلم- هو المقام الأحمد، ويقينه فوق يقين كل أحد؟! فسمعتُ شيخنا الحافظ- يعني: القاضي أبا بكر بن العربي- يقول في هذا: كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في مقام الخوف، وكان صاحبه في مقام الرجاء، وكلا المقامين سواء في الفضل، لا يريد أن النبي- صلى الله عليه وسلم- والصديق سواء، ولكن الرجاء والخوف مقامان لا بد للإيمان منهما، فأبو بكر كان في تلك الساعة في مقام الرجاء لله، والنبي- صلى الله عليه وسلم- كان في مقام الخوف من الله؛ لأن الله أن يفعل ما شاء، فخاف أن لا يُعبد في الأرض بدها، فخوفه ذلك عبادة. وأما قاسم بن ثابت فذهب في معنى الحديث إلى غير هذا، وقال: إنما فعل ذلك الصديث مأويَّةً للنبي- صلى الله عليه وسلم-، ورقةً عليه؛ لما رأى من نصبه في الدعاء والتضرع حتى سقط الرداء عن منكبيه، فقال له: "بعض هذا يا رسول الله" أي: لِمَ تتعب نفسك هذا التعب، والله قد وعدك بالنصر، وكلن رقيق القلب، شديد الإشفاق على النبي- صلى الله عليه وسلم"[2].

ويقول ابن حجر: "...وقال الخطابي: لا يجوز أن يتوهم أحدٌ أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي- صلى الله عليه وسلم - في تلك الحال؛ بل الحامل للنبي- صلى الله عليه وسلم- على ذلك شفقته على أصحابه، وتقوية قلوبهم؛ لأنه كان أول مشهد شهده، فبالغ في التوجه والدعاء والابتهال؛ لتسكن نفوسهم عند ذلك؛ لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة، فلما قال له أبو بكر ما قال؛ كف عن ذلك، وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة، فلهذا عقب بقوله: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾. اهـ، ملخصًا. وقال غيره: وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - في تلك الحال في مقام الخوف، وهو أكمل حالات الصلاة، وجاز عنده أن لا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} (سورة القمر: ٤٦)، حديث رقم: (٤٨٧٧).

(٢) الروض الآنف، للسهيلي (١٢٩/٥- ١٣٠).

يقع النصر يومئذ؛ لأن وعده بالنصر لم يكن معينًا لتلك الوقعة، وإنما كان مجملًا هذا الذي يظهر. وزل من لا علم عنده ممن ينسب إلى الصوفية في هذا الموضع زللًا شديدًا؛ فلا يلتفت إليه، ولعل الخطابي أشار إليه"[١].

ج- ما جاء عن ابن مسعود- رضي الله عنه- أنه قال: ما سمعنا مناشدًا أنشد حقًّا له، أشد مناشدةً من محمدٍ- صلى الله عليه وسلم- يوم بدر، جعل يقول: "اللهم إني أنشدك ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد" ثم التفت كأن وجهه القمر، فقال: "كأنما أنظر إلى مصارع القوم عشية"[٢].

يقول الطبري: "وإنما قال ذلك؛ لأنه علم أنه خاتم النبيين، فلو هلك هو ومن معه حينئذ لم يبعث أحد ممن يدعو إلى الإيمان، ولاستمر المشركون يعبدون غير الله، فالمعنى: لا يُعبد في الأرض بهذه الشريعة"[٣].

د- ما جاء عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه - قال: لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال، ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما فعل، قال: فجئت فإذا هو ساجد يقول: "يا حي يا قيوم، يا حي يا قيوم" لا يزيد عليها، فرجعت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، فلم يزل يقول ذلك حتى فتح الله عليه" [٤].

يقول ابن حجر: "وأما شدة اجتهاد النبي- صلى الله عليه وسلم -، ونصبه في الدعاء؛ فإنه رأى الملائكة تنصب في القتال، وجبريل على ثناياه الغبار، وأنصار الله يخوضون غمار الموت، والجهاد على ضربين: جهاد بالسيف، وجهاد بالدعاء، ومن سنة الإمام أن يكون وراء الجند لا يقاتل

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (٢٨٩/٧).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠ /١٤٧)، برقم (١٠٢٧٠)، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧ /٢٨٩): إسناده حسن.
لكنه منقطع، حيث إن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه ابن مسعود، انظر: تقريب التهذيب: (ص٦٥٦)، لكن له شواهد في الصحيح.
(٣) فتح الباري، لابن حجر (٢٨٩/٧).
(٤) دلائل النبوة، للبيهقي (٣/ ٤٩)، وفي سنده رجلان ضعيفان: محمد بن سنان القزاز، قال الحافظ في التقريب (ص٤٨٢): والثاني هو: إسماعيل بن عون بن عبيد الله بن أبي رافع. قال الحافظ في التقريب عنه (ص١٠٩): مقبول. وهذه الرواية مع ضعفها من ناحية السند، ولكنها لا تختلف مع غيرها من الثابت من دعائه (ﷺ).

معهم، فكان الكل في اجتهاد وجد، ولم يكن ليريح نفسه من أحد الجدين والجهادين، وأنصار الله، وملائكته يجتهدون، ولا ليؤثر الدعة، وحزب الله مع أعدائه يجتلدون"[1].

٣- افتقاره- صلى الله عليه وسلم- إلى الله تعالى بعد غزوة أُحد:

وبيان ذلك فيما يلي:

أ- حدثت هذه الغزوة في الخامس عشر من شوال في السنة الثالثة للهجرة النبوية، كما هو معلوم أن المسلمين في تلك الغزوة انتصروا في بداية الأمر؛ لكن بسبب مخالفة الرماة لأوامر رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، استغل المشركون ذلك، وانقلبت الدائرة على المسلمين، وحدثت الهزيمة لهم، حيث نزل المشركون على المسلمين من حدبٍ وصوب؛ حتى أدرك المسلمون هول الفاجعة، وذاقوا مرارة الهزيمة، واهتزت قلوبهم عندما عاينوا جثث شهدائهم الطاهرة، وخاصةً مشهد أسد الله، حمزة بن عبد المطلب- رضي الله عنه-، وتأثر المصطفى- صلى الله عليه وسلم- تأثرًا شديدًا، وشقَّ عليه ذلك الأمر، فماذا يصنع؟ لابد من اللجوء إلى الله تعالى، فهو القادرالقدير المقتدر، كاشف الضر، يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب.

ب- لذا نجد النبي- صلى الله عليه وسلم- يصلي الظهر بأصحابه- رضوان الله عليهم- قاعدًا متأثرًا بالجروح التي أصابته في المعركة، ويصلي أصحابه خلفه قعودًا، ثم يتوجه- صلى الله عليه وسلم- بعد الصلاة بالدعاء، مفتقرًا إلى ربه- تبارك وتعالى-، فعن عبيد بن رفاعة بن رافع، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد، وانكفأ (رجع) المشركون قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "استووا حتى أثني على ربي- عز وجل-، فصاروا خلفه صفوفًا، فقال: اللهم لك الحمد كلُّه، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لما هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مُقرِّب لما بعدت، ولا مُبْعِد لما قرَّبت، اللهم ابسط علينا من فضلك ورحمتك وبركتك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ، والأمن يوم الخوف، اللهم إني

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (٢٨٩/٧).

عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينهُ في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسُلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، إله الحق، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق"[1].

ج- إن افتقار النبي- صلى الله عليه وسلم-، ودعاءه في هذا الموقف العصيب؛ لهو خير شاهدٍ على العبودية الكاملة لله- تبارك وتعالى-، ذي العرش المجيد، الفعال لما يريد، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعقب لحكمه؛ لذا يجب على المسلم أن يلجأ إلى ربه تعالى في كل الظروف والأحوال، في السراء والضراء، فالله- عز وجل- هو وحده القادر على نصر عباده المؤمنين؛ لكنه أراد وشاء بوقوع الهزيمة والمصيبة بالمسلمين في غزوة أُحد لحكمٍ جليلة، يعلمها هو سبحانه، **قال تعالى: {وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين} (سورة آل عمران: ١٦٦).**

٤- افتقاره- صلى الله عليه وسلم- في غزوة الخندق

وبيان ذلك فيما يلي:

أ- حدثت هذه الغزوة في شهر شوال من العام الخامس للهجرة النبوية، وكانت بين المسلمين، والأحزاب الذين هم مجموعة من القبائل العربية المختلفة، التي اجتمعت لغزو المدينة المنورة، والقضاء على المسلمين. وقد تصدَّى المسلمون بقيادة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- للأحزاب، وذلك عن طريق حفر خندق شمال المدينة المنورة؛ فلم يستطع الأحزاب دخولها، فقاموا بحصار المدينة ثلاثة أسابيع، مما تسبب في تعرض المسلمين للمشقة

(١) هو دعاءٌ صحيحٌ مأثورٌ، أخرجه البخاري في: الأدب المفرد، برقم: (٦٩٩)؛ وأحمد في: مسنده، برقم: (١٥٠٦٦)؛ والحاكم في: المستدرك، برقم: (١٨٦٨) و (٤٣٠٨)؛ والطبراني في: المعجم الكبير، برقم: (٤٥٤٩)؛ والبزار في: مسنده، برقم: (٣٧٢٤). كلهم من حديث رفاعة الزرقي.
وقال الحاكم: "حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه". ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في: صحيح الأدب المفرد، برقم: (٥٤١).

والجوع، وانتهت تلك الغزوة بانسحاب الأحزاب، حيث أنزل الله تعالى جنودًا من عنده، فتعرض الأحزاب لريحٍ شديدة البرودة، مما تسبب في زلزلة أبدانهم وقلوبهم؛ فتشتت شملهم، وفروا هاربين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويًا عزيزًا.

ب- يظهر افتقار النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى ربه- تبارك وتعالى- في هذه الغزوة، فيما جاء عن عبد الله بن أبي أوفى- رضي الله عنه- أنه قال: دعا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب على المشركين، فقال: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم"[1].

كما جاء عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أنه قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر. قال: "نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا". قال: فضرب الله- عز وجل- وجوه أعدائنا بالريح، فهزمهم الله- عز وجل- بالريح"[2].

ج- يعلمنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في دعائه في غزوة الأحزاب على المشركين، أهمية الدعاء، خاصةً في مواطن الجهاد، والتحام الصفوف، فنجده- صلى الله عليه وسلم- يدعو ويعلم أصحابه نماذج من الدعاء المليء بعظيم التذلل والافتقار إلى الله تعالى، وذلك تثبيتًا لقلوب أصحابه قبل احتدام القتال في ساحة المعركة، وشفقةً عليهم وهو يتأهبون لدخول المعركة، وطلبًا للنصر من الله- تبارك وتعالى-، القائل في محكم التنزيل، وهو أصدق القائلين: **{وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم} (سورة الأنفال: ١٠).**

٥- افتقاره- صلى الله عليه وسلم- في غزوة حُنين:

وبيان ذلك فيما يلي:

أ- حدثت هذه الغزوة في العاشر من شوال في السنة الثامنة من الهجرة النبوية بين المسلمين، وقبيلتي هوازن وثقيف في واد يسمى حنين بين مكة والطائف، وكان عدد المسلمين كبيرًا، حتى أنهم فاقوا عدوهم في العدد والعتاد، فقال بعضهم: إننا لن نُغلب اليوم عن قلة. وقد بيَّن القرآن الكريم أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم، ثم بيَّن أن هذه الكثرة لا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو، حديث رقم: (١٧٤٢).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم: (١٠٩٩٦). وقال المحقق الشيخ/ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

تفيد؛ حيث إنهم انهزموا في المعركة، ثم أنزل الله تعالى عليهم السكينة، وأمدهم بجندٍ من الملائكة، وجعل النصر حليفهم بفضله تعالى وكرمه، ثم بيَّن الله تعالى لهم أن رحمته واسعة، فهو يقبل التوبة عن عباده، فقال تعالى: {لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم} (سورة التوبة: ٢٥- ٢٧).

فقوله: "ضاقت عليكم الأرض بما رحبت": هذا التركيب تمثيل لحال المسلمين عندما اشتد عليهم البأس، واضطربوا، ولم يهتدوا لدفع العدوعنهم، بحال من يرى الأرض الواسعة ضيقة. فهذه استعارة تمثيلية، حيث إن الضيق غير حقيقي بقرينة قوله: (بما رحبت)، ففيها تمثيل لحال من لا يستطيع الخلاص من شدة بسبب اختلال قوة تفكيره، بحال من هو في مكان ضيق من الأرض، يريد أن يخرج منه، لكنه لا يستطيع تجاوزه، ولا الانتقال منه.

ب- يظهر افتقار المصطفى- صلى الله عليه وسلم- في هذه الغزوة، عندما انهزم المسلمون في بداية المعركة، عندئذ ثبت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في ميدان المعركة، وثبت معه عدد من أصحابه، وجعل ينادي في الناس: "أين أيها الناس؟ هلموا إليَّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله". ثم أمر عمه العباس- وكان جهوري الصوت- أن ينادي في الناس: يا معشر الأنصار والمهاجرين، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة؛ فتراجعوا إلى ناحية الصوت، قائلين: لبيك لبيك، واجتمعوا حول رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، وكان راكبًا على بغلته وهو يقول: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب". ثم أخذ ترابًا فرمى به وجوه الكفار، وقال: "شاهت الوجوه؛ فانهزموا". فعن أبي إسحاق قال: قال رجل للبراء: يا أبا عمارة، أفررتم يوم حنين؟ قال: لا والله، ما ولى رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، ولكنه خرج شبان أصحابه، وأهخفاؤهم حُسْرًا ليس عليهم سلاح، أو كثير سلاح، فأتوا قومًا رماةً لا يكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبني نصر، فرشقوهم رشقًا ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هنالك إلى النبي- صلى الله عليه وسلم-، وهو على بغلته البيضاء، وابن عمه أبو سفيان بن

الحارث بن عبد المطلب يقود به؛ فنزل واستنصر، ثم قال: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب" ثم صفَّ أصحابه"[1].

ثم أنزل الله تعالى سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودًا من عنده، وجعل النصر حليفهم.

ج- معنى قوله- صلى الله عليه وسلم-: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب": أي: أنا النبي حقًّا فلا أفر ولا أزول، وفيه أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، وأنه متيقن بأن الذي وعده به ربه تعالى من النصر حق؛ فلا يجوز معه الفرار، فهو- صلى الله عليه وسلم- مفتقرٌ إلى ربه تعالى، واثقٌ من نصره، متوكلٌ عليه.

ونجده- صلى الله عليه وسلم- نسب نفسه لجده؛ لأنه عُرف به لشهرته، كما أن أباه عبد الله توفي شابًا في حياة عبد المطلب قبل اشتهار عبد الله.

كما أن قوله هذا ليس بشعرٍ؛ لأن الشاعر إنما سُمي شاعرًا لوجوه، منها: أنه شعر القول وقصده واهتدى إليه، وأتى به كلامًا موزونًا على طريقة العرب مقفى، فإن خلا من هذه الأوصاف- أو بعضها-؛ فليس بشعرٍ، والنبي- صلى الله عليه وسلم- لم يقصد بكلامه هذا شعرًا، ولا أراده؛ لذا فلا يُعد شعرًا، وإن كان موزونًا.

٦- افتقاره- صلى الله عليه وسلم- إلى الله تعالى، حال الجدب، واستسقائه؛ وحال الكسوف والخسوف:

وبيان ذلك فيما يلي:

أ- عن عباد بن تميم عن عمه أنه قال: "خرج النبي- صلى الله عليه وسلم- يستسقي، وحول رداءه"[2].

وعلى هذا، فإن من مظاهر الافتقار في الاستسقاء: تحويل الرداء؛ لما فيه من التخلص من زينة الحياة الدنيا، والبعد عن النفاق والتكبر والخيلاء.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين ، حديث رقم: (١٧٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: الاستسقاء وخروج النبي- ﷺ- في الاستسقاء، حديث رقم: (٩٦٠).

والاستسقاء هو طلب نزول المطر، ومدينة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- كان غالب عيش أهلها وقوتهم على الزراعة، فلما مرَّ بهم عام من أعوامهم حالة من القحط؛ يبست الديار، واحمرت الأشجار، وجف الضرع، وهلكت المواشي، واشتد على الناس المحل. فذهبوا إلى المصطفى- صلى الله عليه وسلم- يشكون حاجتهم وضرهم، فما كان منه- صلى الله عليه وسلم- إلا أن أمر الناس بالخروج إلى المصلى- ذكورًا وإناثًا، شيوخًا وشبابًا-، في حالٍ من الخشوع والتذلل والإخبات، والافتقار إلى رب الأرض والسماوات، خرجوا حداؤهم التسبيح والتكبير، والاستغفار والتهليل، قلوبهم من خشية ربهم- تبارك وتعالى- خاشعة، وعيونهم لرجاء ربها دامعة، ونفوسهم لعطايا ربهم الكريم مؤملة راجية، إمامهم المصطفى، خاتم النبيين، وإمام المرسلين، فصلى بهم، وخطب بهم خطبة جامعة، ثم رفع يده الشريفتين حتى رُئي بياض إبطيه، فدعا واجتهد، وألح وابتهل، وتذلل وتضرع، وامتثل وافتقر لربه العلي القدير؛ فلم يكد ينزل من منبره إلا واستجاب الله تعالى له؛ فكثرت السحب في السماء، ونزل الغيث من السماء، واستبشرت النفوس فرحًا وسرورًا، وازداد المؤمنون إيمانًا ويقينًا.

ويؤيد هذا ما جاء عن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: شكا الناس إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قحوط المطر؛ فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه، فخرج رسول الله- صلى الله عليه وسلم-حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر فكبر وحمد الله- عز وجل-، ثم قال: "إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله سبحانه أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني، ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوةً وبلاغًا إلى حين، ثم رفع يديه فلم يزل يدعو حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب أو حول رداءه، وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلى ركعتين؛ فأنشأ الله- عز وجل- سحابة، فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله تعالى، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى

الكن؛ ضحك- صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذ، فقال: أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله"[1].

ب- عن الحسن عن أبي بكرة قال: كنا عند رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فانكسفت الشمس؛ فقام النبي- صلى الله عليه وسلم- يجر رداءه حتى دخل المسجد، فدخلنا فصبى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس، فقال- صلى الله عليه وسلم-: "إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى يُكشف ما بكم" [2].

❄❄❄❄❄❄❄❄❄

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (١١٧٣)؛ والطحاوي في: شرح معاني الآثار (١٩٠٦)؛ وابن حبان في صحيحه (٢٨٦٠). والحديث إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الكسوف، باب: الصلاة في كسوف الشمس، حديث رقم: (٩٩٣).

الخاتمـــــــة

إنه في ختام هذا البحث، أجد لزامًا عليَّ أنْ أُلخص أهم النتائج التي توصلتُ إليها من خلال هذا البحث، والتي يمكن بيانها في النقاط التالية:

١- إن معنى العبودية والافتقار أجل وأرقى من أن يسمى فقراً؛ لأن كلمة "فقر" تنصرف إلى أن إنساناً لا يجد كل حاجاته، وربما تكفف الناس، في حين أن الافتقار لله تعالى هو بمثابة قمة الامتثال والاستسلام وتفويض الأمر لله تعالى، وهو صفة القلوب الحية، فهو العز بالله، والغنى بالله، والاستغناء بالله تعالى عمن سواه.

٢- إن العبد المؤمن يتعبد لله- عز وجل- ليس فقط من أجل تكفير الذنوب والسيئات؛ بل إن مَن عرف الله تعالى معرفةً صحيحة بأسمائه وصفاته؛ عظَّمه وانجذب قلبه إلى عبادته، فعندئذٍ لا يملك إلا أن ينقاد له، وأن يتعبد له، وأن يعظمه حق التعظيم؛ لأنه تعالى هو العظيم الأعظم. كذلك الإنسان المؤمن يتعبد لله- عز وجل-، ويكثر من الأعمال الطيبة من أجل أن يكفر الله تعالى عنه ذنوبه، ويمحو تقصيره وزلاته، ما ظهر منها وما بطن.

٣- يرتبط الإخلاص ارتباطًا وثيقًا بالنية، فمزية النية صحة العبادة، وتمييزها عن العادة، حيث إن الشيء الواحد يكون بالنية عبادة، وبدونها عادة، كالجلوس في المسجد بنية الاعتكاف عبادة، وبدونها- كقصد الاستراحة- يكون عادة، وكالغسل بنية شرعية كالطهارة من الجنابة، يكون عبادة، وبقصد النظافة يكون عادة؛ بل بالنية الصالحة تصير العادات عبادات، كالأكل والشرب والنوم بنية التقوى على طاعة الله تعالى، واللبس بنية ستر العورة، والتجمل في طاعة الله تعالى، وكالنكاح بقصد الإعفاف والتناسل كما أمر الله تعالى. ومزية الإخلاص لذة المناجاة، ومضاعفة الثواب، وصفاء الباطن، وتنوير القلوب؛ حتى تكون على استعدادٍ للتأثر بالعبر والمواعظ.

٤- إن المقصود ببكاء الخشية، الذي هو بين الخوف والرجاء، بين الحب للمعبود وشعور العبد بالتقصير تجاه معبوده، هو بكاء الفرح بالجلوس في حضرة الله تعالى، وخاصةً إذا جلس العبد وحده بعيدًا عن الناس، وذكر ربه- تبارك وتعالى-؛ ففاضت عيناه، فهو عندئذ يكون

من السبعة الذين يُظلهم الله تعالى في ظله، يوم لا ظل إلا ظله.

٥- إنه لا تعارض بين الأمر بترك المعصية، والخبر بأن ابن آدم لا بد أن يذنب، ولكن ليس الشأن في أن يقع الذنب، بل الواجب على المسلمين أن يكفوا أنفسهم عن المعاصي والسيئات، وأن يجتهدوا في ذلك، فإذا غلبتهم أهواؤهم وشهواتهم، فوقعوا في شيءٍ من المعاصي؛ فالواجب أن يبادروا إلى التوبة، فالعبد إذا تاب محت توبته ما كان من الخطأ قبله، وهذا من فضل الله تعالى ورحمته.

٦- إن الدعاء من العبادة، فإن الله تعالى أمر عباده أن يدعوه، وسمى الدعاء عبادة، وتركه استكبار، ثم توعَّد مَن تركه واستكبر عنه بالعذاب الأليم في جهنم. وعلى هذا فالدعاء من أعظم العبادات وأجلِّها؛ لأن فيه إظهارًا لذل العبودية لله تعالى بالافتقار إليه سبحانه، ونفي الكبرياء عن عبادته.

٧- يُعد الدعاء بمثابة سلاح المؤمن، ينفع مما نزل ومما لم ينزل. وبقدر قوة اليقين بالله تعالى، والاستقامه على الصراط المستقيم، وبذل الجهد لإعلاء كلمة الله تعالى؛ تكون إجابة الدعاء بما هو أصلح للعبد، وإذا حصل الدعاء بشروطه، فإن الله- تبارك وتعالى- إما أن يعطي السائل ويستجيب له، وإما أن يؤخره ليُكثر السائل من البكاء والتضرع، وإما أن يعطيه شيئًا آخر أنفع له من سؤاله، أو يرفع به عنه بلاءً، أو يؤخره إلى يوم القيامة.

٨- لقد كان الافتقار لدى الأنبياء- عليهم السلام- يُعد بمثابة الشعور بالعجز، والفقر الحقيقي إلى الله تعالى، وفي المقابل شعورٌ بقدرة الله تعالى على تحقيق ما عجزوا عنه، وهذا- بلا شك- هو عين العبودية لله تعالى.

٩- لقد كان للأنبياء- عليهم السلام- مع أقوامهم مواقف حرجة، لم ينقذهم منها إلا صدق الالتجاء، وقوة الاحتماء بالخالق القدير-تبارك وتعالى-، فكانت لهم فنون من الدعاء الجميل، والذكر الرفيع، والافتقار الحقيقي إلى الله تعالى؛ فرفعوا أكف الضراعة، منيبين إليه، ينشدون عونه، يرجون فضله، حيث كانت لهم في هذه المواقف أنبل كلمات الدعاء، وأجمل ألفاظ المناجاة والتوسل إلى الله تعالى.

فهرس المصادر والمراجع

م:	المصدر (أو) المرجع:
١	**القرآن الكريم.**
٢	**أحكام القرآن.** محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي، راجع أصوله وخرج أحاديثه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ
٣	**إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري.** أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، مصر- المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، ١٣٢٣هـ
٤	**الاستقامة.** تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني، المشهور باسم: (ابن تيمية)، ت: محمد رشاد سالم، المدينة المنورة- جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، ١٤٠٣هـ
٥	**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.** محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ
٦	**إعلام الموقعين عن رب العالمين.** أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، المشهور باسم: "ابن قيم الجوزية"، ت: محمد عبدالسلام إبراهيم، بيروت- دار الكتب العلمية، (د.ط)، (د.ت).
٧	**أنوار التنزيل وأسرار التأويل.** ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت- دار إحياء التراث العلمي، ط١، ١٤١٨هـ
٨	**البحر المحيط في التفسير.** أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ
٩	**بدائع الفوائد.** أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن

	حريز الزرعي، المشهور باسم: "ابن قيم الجوزية"، لابن قيم الجوزية، لبنان- بيروت، دار الكتاب العربي، (د.ط)، (د.ت).
١٠	**التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول- صلى الله عليه وسلم-**. للشيخ/ منصور علي ناصف، دار الفكر، بيروت- لبنان، ١٩٩٧م.
١١	**التحرير والتنوير"تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"**. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، تونس- الدار التونسية للنشر، (د.ط)، ١٩٤٨م.
١٢	**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**. أبو العلا محمد عبدالرحمن عبدالرحيم المباركفوري، بيروت- دار الكتب العلمية، (د.ط)، (د.ت).
١٣	**التعريفات**. علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الريان للتراث.
١٤	**تفسير القرآن العظيم**. أبو الفداء إسماعيل بن كثير، عماد الدين، ت: سامي محمد سلامة،دون بلد نشر، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩م.
١٥	**تفسير القرآن الكريم (لابن القيم)**. أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، المشهور باسم: "ابن قيم الجوزية"، ت: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بإشراف الشيخ: إبراهيم رمضان، بيروت- دار ومكتبة الهلال، ط١- ١٤١٠هـ.
١٦	**تهذيب اللغة**. محمد أحمد بن الأزهري بن الهروي، أبو منصور، ت: محمد عوض مرعب، بيروت- دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠١م.
١٧	**التوبة**. للحارث بن أسد المحاسبي، ومعه: أحكام التوبة للإمام النابلسي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، مكتبة التراث الإسلامي.
١٨	**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دون بلد ناشر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
١٩	**جامع البيان في تأويل القرآن**. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو

	جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة- ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
٢٠	**الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير.** عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤ م.
٢١	**جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم.** زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن،السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، ت: شعيب الأرنؤوط، إبراهيم باجس، بيروت- مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
٢٢	**جامع المسائل.** تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني، المشهور باسم: (ابن تيمية)، ت: عزيز شمس، مكة، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٢هـ.
٢٣	**الجامع لأحكام القرآن.** أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، ت: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش، القاهرة- دار الكتب المصرية، ط٢ ،١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
٢٤	**جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام.** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط- وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة- الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٢٥	**الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية.** عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار القيم للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
٢٦	**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.** أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى ٤٣٠هـ)، دار السعادة - ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدة دور منها: ١ - دار الكتاب العربي – بيروت، ٢ - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٣- دار الكتب

	العلمية- بيروت، طبعة ١٤٠٩هـ، بدون تحقيق.
٢٧	**الدر المنثور في التفسير بالمأثور.** عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٤٣٢هـ.
٢٨	**دعاء الأنبياء.** محمد إسماعيل الجاويش دار الغد الجديد، الطبعة الأولى.
٢٩	**الذخيرة في رجاء المغفرة الكبيرة**. علي سلطان محمد القاري، تعليق: مشهور حسن سليمان، المكتب الإسلامي، دار عمار، ط١، ١٩٨٩م.
٣٠	**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني= تفسير الألوسي.** شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٣١	**الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة.** أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، المشهور باسم: "ابن قيم الجوزية"،بيروت- دار الكتب العلمية، (د.ط)، (د.ت).
٣٢	**سبل السلام شرح بلوغ المرام.** محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكحلاني، ثم الصنعاني، المعروف بالأمير، دار الحديث، بدون تاريخ، وبدون طبعة.
٣٣	**سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها.** أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، (مكتبة المعارف)، عدد الأجزاء: ٦ ، عام النشر: على مراحل من سنة (١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م) إلى سنة (١٤٢٢ هـ- ٢٠٠٢ م).
٣٤	**سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة.** أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، دار النشر: دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢ م.
٣٥	**السنن – المسمى بـ (الجامع المختصر من السنن عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-**

	ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل). أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (المتوفى ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، ط٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، عدد الأجزاء: ٥.
٣٦	**السنن - لأبي داود** سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط٢، ١٩٥٠م.
٣٧	**السنن** - أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (المتوفى ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية- فيصل عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٢م.
٣٨	**السنن الكبرى.** أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت،ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٣٩	**السنن- المسمى بـ (المجتبى من السنن = السنن الصغرى)-** أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
٤٠	**سير أعلام النبلاء.** أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ)، المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة، ط٣ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
٤١	**شرح الأدب المفرد.** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ.
٤٢	**شرح الأربعين النووية.** ابن دقيق العيد، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.
٤٣	**شعب الإيمان.** أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو

	بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور/ عبد العلي عبد الحميد حامد، وأشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣ م.
٤٤	**الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية.** أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٤٥	**صحيح أبي داود – الأم.** أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، عدد ط١، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢ م.
٤٦	**صحيح البخاري- المسمى بـ (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه).** محمد بن إسماعيل البخاري (المتوفى ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة مصورة عن السلطانية، بإضافة ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٤٢٢هـ
٤٧	**صحيح الترغيب والترهيب.** محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ
٤٨	**صحيح الجامع الصغير وزياداته.** أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.
٤٩	**صحيح مسلم- المسمى بـ (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم-).** مسلم بن الحجاج القشيري (المتوفى ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط١، ١٤١٢هـ -١٩٩١م.
٥٠	**طريق الهجرتين وباب السعادتين.** أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، المشهور باسم: "ابن قيم الجوزية"، مصر- القاهرة،

	دار السلفية، ط٢، ١٣٩٤هـ.
٥١	**العبودية.** تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني، المشهور باسم: (ابن تيمية)، ت: محمد زهير الشاويش، بيروت- المكتب الإسلامي، ط٧، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
٥٢	**العدة في أصول الفقه.** القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد ابن الفراء، تحقيق: أحمد بن علي المباركي، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
٥٣	**علاج مشكلة الفقر. دراسة قرآنية موضوعية.** عبد السلام حمدان اللوح- ومحمود هاشم عنبر، مجلة الجامعة الإسلامية- سلسلة الدراسات الإسلامية، المجلد السابع عشر، العدد الأول، يناير ٢٠٠٩م.
٥٤	**غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب.** محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
٥٥	**الفتاوى الكبرى.** تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني، المشهور باسم: (ابن تيمية)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.
٥٦	**فتح الباري شرح صحيح البخاري.** ابن رجب الحنبلي، ت: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، مجدي عبدالخالق الشافعي، وآخرون، المدينة النبوية- مكتبة الغرباء الأثرية، ط١٤١٧،١هـ-١٩٩٦م.
٥٧	**فتح الباري شرح صحيح البخاري.** أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم أبوابه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٣٧٩هـ.
٥٨	**فتح المبين بشرح الأربعين.** أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيتمي، دار المنهاج، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
٥٩	**فتح المنعم شرح صحيح مسلم.** موسى شاهين لاشين، دون بلد نشر، دار الشروق،

	ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٦٠	**الفتوحات الربانية بالخطب والمواعظ القرآنية**. محمد بن سالم البيجاني، دار الرائد، ١٤٠٧هـ
٦١	**الفصل في الملل والنحل**. أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٦٢	**فقه الأدعية والأذكار**. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، دار ابن عفان، الطبعة الأولى.
٦٣	**الفوائد**. أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، المشهور باسم: "ابن قيم الجوزية"، بيروت- دار الكتب العلمية، دون بلد نشر، ط٢، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
٦٤	**في ظلال القرآن**. سيد قطب، دار الشروق للنشر، ٢٠١١م.
٦٥	**كشاف اصطلاح الفنون والعلوم**. محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد التهانوي، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
٦٦	**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**. أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ
٦٧	**لسان العرب**. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، بيروت- دار صادر، ط٣ ،١٤١٤هـ
٦٨	**المستطرف في كل فنٍّ مستظرف**. بهاء الدين الأبشيهي، مطبعة عبد الرزاق، ١٣٠٤هـ
٦٩	**لطائف الإشارات للقشيري**.عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، ت: إبراهيم البسيوني، مصر،الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط٣،(د.ت).
٧٠	**لقاءات الباب المفتوح**. محمد بن صالح بن محمد العثيمين، (شوال ١٤١٢-

	١٤٢١هـ)، موقع الشبكة الإسلامية.
٧١	**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.** أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.
٧٢	**مجموع الفتاوى.** تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٧٣	**مجموع فتاوى ورسائل العثيمين.** محمد بن صالح بن محمد العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن- دار الثريا، الطبعة الأخيرة، ١٤١٣هـ
٧٤	**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز= تفسير ابن عطية.** أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ
٧٥	**مختار الصحاح.** زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، ت: يوسف الشيخ أحمد، بيروت- صيدا، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، ط٥، ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م.
٧٦	**مختصر منهاج القاصدين.** أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار البيان- مؤسسة علوم القرآن، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
٧٧	**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ابن قيم الجوزية، ت: ناصر بن سليمان السعوي، علي عبدالرحمن القرعاوي، وآخرون، المملكة العربية السعودية- الرياض، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
٧٨	**المستدرك على الصحيحين.** أبو عبد الله الحاكم بن محمد بن عبد الله النيسابوري،

	تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ
٧٩	**المسند**. أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٨٠	**المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**. أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي أبو العباس، بيروت، المكتبة العلمية.
٨١	**المصنف في الأحاديث والآثار**. أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ
٨٢	**معالم التنزيل في تفسير القرآن**. محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، ت: عبدالرزاق المهدي، بيروت- دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ
٨٣	**معاني القرآن وإعرابه**. إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ
٨٤	**المعجم الأوسط**. أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (المتوفى ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين– القاهرة.
٨٥	**المعجم الكبير**. أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني، (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط٢.
٨٦	**مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"**. أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي، خطيب الري، بيروت- دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ

٨٧	**مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والإرادة.** أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، المشهور باسم: "ابن قيم الجوزية"، بيروت – دار الكتب العلمية، (د.ط)، (د.ت).
٨٨	**المفردات في غريب القرآن.** أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم- الدار الشامية، دمشق بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٨٩	**مقاييس اللغة.** أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، ت: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، (د.ط)، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٩٠	**من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، "الفاء، ثم".** محمد الأمين الخضري، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
٩١	**نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر.** جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
٩٢	**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.** برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ.
٩٣	**النهاية في غريب الحديث والأثر.** مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، ت: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، بيروت- المكتبة العلمية،١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٩٤	**الوابل الصيّب من الكلم الطيّب.** أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، المشهور باسم: "ابن قيم الجوزية"، ت: سيّد إبراهيم، القاهرة – دار الحديث، ط٣، ١٩٩٩م.

فهرس الموضوعات

الموضوع:	رقم الصفحة:
مقدمة.	٧
تمهيد: ماهية الافتقار إلى الله تعالى.	١٠
الفصل الأول: طرق ووسائل الافتقار الحقيقي إلى الله تعالى. **وفيه عشرة مباحث:**	١٣
المبحث الأول: ويتضمن الوسيلة الأولى: تحقيق العبودية لله تعالى بمعناها الصحيح.	١٥
المبحث الثاني: ويتضمن الوسيلة الثانية: تعلق القلب بالله تعالى.	٢٤
المبحث الثالث: ويتضمن الوسيلة الثالثة: مداومة الاستغفار.	٣٠
المبحث الرابع: ويتضمن الوسيلة الرابعة: مداومة ذكر الله تعالى.	٤٥
المبحث الخامس: ويتضمن الوسيلة الخامسة: الإخلاص في العبادة مع وجل القلب.	٥٨
المبحث السادس: ويتضمن الوسيلة السادسة: خشية الله سرًا وعلانيةً.	٧١
المبحث السابع: ويتضمن الوسيلة السابعة: تعظيم حرمات الله تعالى، وشعائره.	٨٥
المبحث الثامن: ويتضمن الوسيلة الثامنة: الالتزام بخُلق التواضع.	٨٩
المبحث التاسع: ويتضمن الوسيلة التاسعة: المبادرة بالتوبة، وعدم الإصرار على المعصية.	١٠١
المبحث العاشر: ويتضمن الوسيلة العاشرة: ملازمة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى.	١١٣
الفصل الثاني: الافتقار إلى الله تعالى في حياة الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام). فيه ثلاثة عشر مبحثًا:	١٣٩
تمهيد:	١٤١

المبحث الأول: الافتقار إلى الله تعالى في حياة آدم (عليه السلام).	١٤٣
المبحث الثاني: الافتقار إلى الله تعالى في حياة نوح (عليه السلام).	١٤٥
المبحث الثالث: الافتقار إلى الله تعالى في حياة إبراهيم (عليه السلام).	١٥٣
المبحث الرابع: الافتقار إلى الله تعالى في حياة يعقوب (عليه السلام).	١٦٠
المبحث الخامس: الافتقار إلى الله تعالى في حياة يوسف (عليه السلام).	١٦٦
المبحث السادس: الافتقار إلى الله تعالى في حياة أيوب (عليه السلام).	١٧٠
المبحث السابع: الافتقار إلى الله تعالى في حياة يونس (عليه السلام).	١٧٥
المبحث الثامن: الافتقار إلى الله تعالى في حياة موسى (عليه السلام).	١٧٨
المبحث التاسع: الافتقار إلى الله تعالى في حياة داود (عليه السلام).	١٨٧
المبحث العاشر: الافتقار إلى الله تعالى في حياة سليمان (عليه السلام).	١٩٧
المبحث الحادي عشر: الافتقار إلى الله تعالى في حياة زكريا (عليه السلام).	٢٠٣
المبحث الثاني عشر: الافتقار إلى الله تعالى في حياة عيسى (عليه السلام).	٢١٠
المبحث الثالث عشر: الافتقار إلى الله تعالى في حياة رسول الله، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم).	٢١٧
الخاتمة.	٢٣١
فهرس المصادر والمراجع.	٢٣٣
فهرس الموضوعات.	٢٤٦

وآخر دعوانا أنْ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.